موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم (٣)

المعرفة العظمى

المكونة للخط المستقيم بين العلم والفلسفة والدين

المعرفة : غذاء للقلب
و نور للعقل
ومتعة للوجدان

منهج فى البحث العقلى والقلبى
عن الحقيقة المطلقة فى الطبيعة والإنسان ومبلغ عرفانه للحق

جزءان

وضعه

الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى
رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامى وعميد السادة الفيضيين

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

مناجـــاة

أيتها الحقيقة العظمى ... أيتها العلة المطلقة والسبب الأول أنت العلة الأولى وأنت الإله الخالق المبدع .

أيتها الحقيقة التي تسامت بذاتها فى وجودها عن أنظارنا الضعيفة وعقولنا المحدودة وإن اتصلت بك أرواحنا كما تتصل الشعاعة من النور بأصلها الأزلى ... وكقطرة الندى تجذبها طبيعتها المائية إلى البحر الذى تبخرت منه وصدرت عنه .

أيتها الحقيقة التى ليس حجابها سوى نسيج من أعمالها الباهرة ... ما بين باطنة وظاهرة فتستهدفها حواسنا وتنجذب إلى نورها الظاهر أو الخفى عقولنا . بيد أن عقولنا المحدودة لاتدرك أغوار خصائصها فضلا عن ذاتها ، وشأننا فى هذا شأن الفراش مع النور .

أيتها الحكمة الكبرى التى تلامس وعينا فنفهمها وإن كنا لا نصل إلى أعماقها أنت ربة العناية واللطف والحق ... ما ألطف قهرك إن مس ... وما أوسع لطفك حين يعم .

أيتها العلة الظاهرة الخفية ... الخفية بذاتها والظاهرة باقتدارها ... يا ذات النور الأعلى الذى يضىء جوانب ذواتنا ، وربة النور الذى وصل أصول كوننا [1] ، على أن هذا وذاك مجرد لوامع وأطياف من سناك الباهر الذى يتراءى لأفكارنا خلال المحس والمنظور والمدرك والعقول .

وإن كان ذلك النور يصدم بعضنا فيرجعه إلى الوراء أحيانا مالم تكن مفتحى الأعين ... أعين البصر والعقل والبصيرة جميعاً .

أيتها الحقيقة ... ياربة الحكمة وواهبة المعرفة ، وآلهة الإحسان

---

(1) المراد بالنور الأعلى : النور الادراكى ، والأدنى ، النور الذرى .

والعناية والتوجيه والهداية ... أناجيك ضارعا بقلب لعزتك معترف ، وعقل إزاء أسرارك متضع ، على أننا كلنا إلى سنا وجهك الخفى ناظر وفيك فا كر ، بما نفثت فى ذواتنا من روحك القادر ونورك الساطع .

وهذا نفسه ما يحفزنا إلى التفكر فى أمجادك والميل لعرفانك . وأن تشاغل بعضنا بالمظاهر والظلال عن الحقائق ، أو حجبت قشور المعارف بعضا آخر عن خلوص النظر اليك فى روعة تجليك ، فأبدى غناء بالقشر عن اللباب ولا ثمة غناء .

أيتها الحقيقة ... أيتها الذات الإلهية المطلقة ... كلنا لعظمتك ساجد ، ولعونك محتاج إن إرادة واختياراً أو لجوءا واضطرارا .

وأخيرا أيتها الحقيقة ... إنى أهدى اليك ثنائى وهو بعض ثنائك على نفسك وهبتنيه من أفضالك مع كل ما وهبتنيه من علم ومعرفة ، فكان الأمر كله منك واليك .

وإنى لأدعوك أيتها الحقيقة ... حقيقة الحقائق وأصل الأصول وعلة العلل ، أن تبارك عبادك الملحوظين منك ، وقد فازوا قديما برعايتك فلوحظوا بعين عنايتك .

وأسألك أيضاً ... الطفك بمن صرفتهم توافه الأكوان عن عرفانك . أيتها الحقيقة منى على جميع محبيكى وأيضاً المتشاغلين عن سنا حبك بجرعة شافية من رحيق معرفتك .

وبعد ، فإنى إلى أولئك وهؤلاء أهدى كتابى — المعرفة العظمى — وهو لمحة من نورك كانت فى سريرتى ولا أقول فى طاقتى ، وقد جعلنى هذا أطلب البحث الخالص عن الحق الموصل إلى عرفانك وهو دأبى الذى أمضيت فيه أكثر أيام عمرى وأصفى سنى حياتى ثم هو خلاصة مذهبى فى الحق الأعلى وعصارة تفكيرى الطامع الوثاب لفقه المعرفة ، وقد زودته

بلباب خبرتى ونتيجة تجربتى فى سبيل حبى وفى سبيل معرفتى على أن هذا من وهبك وفضلك والسلام .

هذا وليعلم قارىء كتابى (المعرفة العظمى) إن منهجى فيه مبنى فضلا عن الإلهام ولمح البصيرة على المشاهدة كأسلوب العلم والتأمل بالمنطق العقلى مع المعتقد بالشهود القلبى والإيمان الدينى المبصر .

توضيح مذهبنا فى معرفة الله والطبيعة والإنسان

وفى أوله نحمد الله على ما أنعم ، ونشكره على ما أسدى من وعى ومعرفة ، وجنب من شر وكنود وانحراف وسلام الله ورحمته على كل من هدف إلى الحق بنظر أو توسل إلى الحقيقة بسبب (وبعد) فهذه الكتاب (رسالة المعرفة العظمى) هو المجلد الثالث من موسوعة (وحدة الدين والفلسفة والعلم) فى جزءين (المعرفة العظمى وعلى هامش المعرفة العظمى) توخينا فيها تفصيل ما أجملناه من الوعى العالى للحقيقة المطلقة (بينا فنريك) أو التصوف المبصر فى موسوعتنا هذه التى يجتمع فيها وعى الحس والعقل والوجدان البصيرى جميعا

وسوف ندلى إليك فى رسالتنا هذه مذهبنا الذى يبين عن رأينا فى الكون والمكون ، والمعروف والمعرفة ، وجعلناها قسمين : قسم (صلب) وقسم (هامش) وبينا الهامش فى القسم الثانى بدلالات من الحروف الأبجدية (أبجد هوز) .

فإن اعتبرت رأينا هذا بعد تذوقه بعقلك،ووجدانك معاً مذهبافلسفيا فلك ما اعتبرت،وإن اعتبرته مذهبا صوفيا ، فلك الحق فى هذا أيضاً لأنه عصارة مجرد العقل والقلب معاً .

بيد أنه فى اعتبارنا سواء كان فلسفة أو تصوفا فى اعتبارك أنت مجرد فتحات من الرأى السليم ساقه إليك وإلينا الله وتؤيده الحقائق العلمية والفلسفية ولا سيما أن النظر العلمى فى أعلى آفاقه يعانق الفلسفة بسائر أقسامها فى الطبيعة أو فيما وراءها كما رأيت فى المجلدات السابقة من هذه الموسوعة . وكذلك شأن الفلسفة عند تطلعها واستشرافها لليقينية الوجودية

العامة تخترق مجال التصوف الذى تتوحد معه فى عالم ماوراء الطبيعة سيما وأن العلم الطبيعى اليوم يعتبر الوجود بأسره عملية رياضية يؤسسها فكر وتحدوها إرادة مطلقة .

وفقط يتحتم أن يفهم القارئ مبدئيا : أن مذهبنا هذا مذهب واحدى مؤله لا يقول بعلية المادة لنفسها أو لغيرها ، ولا بعلية العقل لنفسه أو لغيره .

وبعبارة أخرى : إنه بعيد عن المثالية وعن المادية معا ، وإنما هو مذهب فى المعرفة يقينى يقول بوجود سبب أعلى أولى أسبق من العقل ، ومن المادة فى مفهومها العام(١) .

والذى يهمنا ويهم القارئ ، أنه مذهب ينشد الحقيقة فى ذاتها واضحة كالشمس من أى النواحى أشرق وجهها ، وفى أى منهج بالغ الوضوح والصحة ، علميا كان أو فلسفيا أو صوفيا دينيا .

وقلنا فى مثل هذا المقام فى كتابنا (كتاب الوجود) المطبوع بمصر سنة ١٩٤٧ والمعاد طبعه سنة ١٩٦٧ . إن العقل فى مجموع مفهومه والشىء فى مجموع كينونيته إن هما إلا حالتان عابرتان من حالات الوجود وهما متضايفتان متكاملتان وفى تضايفهما وتقابلهما وتكاملهما الدليل على أن العلية ليست من خصائص واحد منهما ولا من خصائصهما معا ، وما زالت العلة الوجودية بعد بكرا لم يطأها فكر إنسان ، فابحثوا عن الحقيقة لا بنور الحس ولا بنور العقل ولكن بنور الحقيقة نفسها ، وذلك النور الموهوب لكم فطريا من لدن (واهب الوجود) وإن كان لا يراه فى لألآئه الواضح إلا من أزال عن

(١) فى تحول الكتلة المادية الى عناصرها الأولى والعناصر الى اشعاعات والاشعاعات الى القوة المطلقة التى هى نبع كل مادة وكل طاقة وكل سرعة ، والأصل فى وجود الأشياء الكونية من ذرات المادة الى المجرات والكواكب والشموس : الأصل فيها كلها الطاقة والسرعة عن طريق العناصر بحسب جدول مندليف للعناصر . ارجع للجزء الثانى على هامش المعرفة العظمى ص (١) حرف (أ) .

قلبه غواشي الحجب الحسية والعقلية جميعا ، ثم نظر بعين البصيرة أو الذوق الفطرى لما تتجلى به الحقيقة فى إبداعها الوجودى الكونى العظيم . ولهذا ينحصر بحثنا هنا فى ثلاث قضايا : الله ، والطبيعة ، والإنسان .

١ – القضية الأولى :

هذا ولنبدأ بالقضية الأولى أى بمسألة المسائل وعلة العلل فى الدين والتصوف ، والفلسفة والعلم جميعا ألا وهى مسألة الألوهية أو مسألة الوجود ومبدعه .

متسائلين ...؟؟

وهل هذا الوجود الكونى الماثل لحواسنا ، والمتجاوب مع عقولنا ومشاعرنا هل له فى أقصى حقائقه من علة سببية تختفى وراء مظاهره البادية عن كل محس ملموس أو مدرك معقول فيما وراء المادة والعقل كالحياة والآلة وما إلى ذلك .

أم لا ثمة موجود إلا مظاهر الكون ، وأعيانه المتعددة البارزة المحسة كما تبدو لحواسنا فقط ...؟؟

هل هى يقينا كل الوجود دون أن يكون لهذه الأعيان البارزة حقيقة خلفها أسمى منها ومتسترة بتلك الظواهر ؟؟

فإن كان هذا كذلك وليس وراء الكون المحس والمعقول حقيقة ، فتكون الأشياء المرئية المحسة فى النتيجة ، هى المعلول وهى العلة كما يقول الماديون والواقعيون وأضرابهم . مع أن هذا فى نظر المنطق العقلى السليم ضرب من ضروب المستحيل أو السفسطة . حيث لا معلول بدون علة . ومن القواعد العلمية : أن لاشىء يأتى من لا شىء . ولا معقول دون عقل يعقل وكذلك العقل هل هو علة المحس والمعقول جميعا كما يقول المثاليون أم أن هناك حقيقة تبدع الحس وتؤثل العقل وتخلقهما وتفيض بالحياة من فيضها عليهما معا ؟؟

٢ — القضية الثانية :

والعقل أيضاً ...؟؟

هل العقل — وبعبارة أوضح وأكثر استقلالا — هو الكائن المطلق فى عالم الذات[1] وعالم الموضوع معاً (عالم العقل وعالم المعقول) ، وبعبارة أخرى عالم الفكر أو عالم الشىء ...؟؟

وهل هو الكائن المطلق وحده ولا يوجد كائن مطلق وراءه . . ؟

أم أن العقل حادثة كونية كبقية حوادث الوجود كما قدمنا ، وله علة أسبق منه وجودا ، وأشمل إطلاقا ، تكمن وراء مداركه ووراء مدركاته جميعا (فى عالمه العقلى ، وعالم الموضوع) وفى عالم ماوراء العقل والشىء ومن تلك العلة الأولى يستمد العقل قوته ونشاطه ... ؟

٣ — والحياة ... ؟

١ — ٣ . القضية الثالثة :

هل الحياة وليدة المادة يقينا ... ؟ أم هى كائن أسمى من المادة فى سائر أطوارها بل هى الكائن الحافظ والمطور لها ، والمنوع الحقيقى لسائر الكائنات الحية . ؟

هذه القضايا الثلاث ، هى موضوع بحثنا فيما نذهب إليه من رأى .

أما القضية الأولى ، وهى قضية الكون والمكون ، أو العلة والمعلول ، فهى مسألة المسائل كما قدمنا ، وإليك تحقيق ذلك :

ونحن نقول والعلم كله لله ، بعلة مطلقة فوق العقل والشىء وذلك خلافا للماديين والعقليين والمتوسطين بينهما من علماء المادة والعقل والحياة جميعا .

---

(١) عالم الذات هو العالم الشاعر المدرك الداخلى فى باطن الانسان وعالم الموضوع هو عالم كل جرم مجسم أو سائل أو غاز كونته الطاقة بعناصرها الأولية . أنظر رقم ٢ من الثانى حرف (أ) .

تلك العلة الأصلية الإلهية المقومة للعقل والمادة معاً . والمؤثرة فيهما وفى الحياة البارزة عن خصائصها ، وذلك بإرادة حرة ومطلقة وعلم لا يتناهى وقدرة مهيمنة وحياة خالقة وهى تلك الحياة أيضاً .

وبعبارة أخرى نريد أن نقول : إن فى أسمى حالات الوجود . وفى أولياته السببية تكمن حقيقة إلهية مطلقة ، هى المبدأ من ناحية ، وهى المحرك من ناحية ثانية ، وهى الغاية التى ينشدها الوجود كله من ناحية ثالثة .

وإذا كان قدماء الفلاسفة مثل سقراط وأفلاطون مثلوا للخير الأعظم بالشمس التى هى مصدر نماء الأشياء ، وهى أيضا مصدر النور الذى نبصر الأشياء به ، فإننا نجزم بأن وراء هذه الشمس شمسا معنوية آلهية تشرق على الشعور والتعقل فى مستقر الذات كما تشرق شمسنا الظاهرة على غيرها من كائنات تتبعها[١] . كما تشرق الشمس الكونية على وحدات الكائنات فتظهرها .

وتلك الشمس المعنوية ، أو قل الحقيقة المطلقة الكلية ، التى نقصدها بالذات هى علة العلل والسبب الأول لجميع الأسباب وهى رب الأرباب والمربوبين وكل مايقع عليه الحس ويدركه العقل ، وبالتالى هى مصـــدر الخلق والأمر والإبداع وبالثالث مصدر الإحساس والتعقل والحياة جميعا وبعبارة أدق هى مصدر كل مافى الكائنات من نور عقلى مدرك أو نور ذرى أو شيء مدرك[٢] مشع أومتكتل — بنشاط خصائصها المطلق وهو

---

(١) وذلك فى مقابل تكون الشيئية فى الكائنات الظاهرة بواسطة الطاقة والسرعة فى عالم الموضوع . ارجع الى حرف (ا) من ص ٩ : ص ١٦

(٢) يصدر عن العلة أمران : أمر ذاتى وأمر عرضى ، فالأمر الذاتى متصل بالذات كخصيصة أو صفة لهــا والأمر العرضى أمر امكانى تابع لأمر جوهرى ذاتى ، وكثيرا ما يكون ظرفا أو غلافا أو مظهرا للأمر الجوهرى ، وهو فى كل حال امكانى الوجود مظهرى التكوين وقد يرى لنا أن العقل كائن مطلق وانما يكون هذا بالنسبة للأشياء المحدودة =

نشاط نورى معنوى طبعا فإن اتجهت طاقته الفعالة المنطلقة من لدن إرادة العلة الأولى إلى الذات الإنسانية كان نوراً إدراكيا محضا ، وإن اتجهت الفاعلية إلى الناحية الشيئية من طريق القدرة البارزة بالفعل فى شكل طاقة أو قوة كان نورا ذريا كهربيا أو كهربيسيا لاتدركه أبصارنا كأمثال الإشعاعات التى توجـــد فيما فوق البنفسجى وماتحت الأحمر من الألوان النورية ذات الأطياف مثلا وكلتا الناحيتين تصدران فى البدء بحالة معنوية إرادية من فعال مريد كما تصدر فكرة الفعل الواقعى معنوية عن الإنسان الفاعل المختار ولله المثل الأعلى على كل حال فتصير أمراً مجسما فى الخارج الكونى (تصميم أو إنشاء) ومن هذا وذاك يفهم أن للوجود فكرا يبدو فى نظام وحداته وهو متناغم متطابق مع أفكارنا الإنسانية تمام المطابقة والمناغمة .

وإجمالا فإن تلك الإلهية الروحية المطلقة مصدر جميع الكائنات وتصدر عنها أعيان الأكوان كنشاط بارز بالفعل لخصائصها العليا كما تصدر الفكرة العقلية عن العاقل المدرك مثل ماقدمنا فهى تدرك ماتفعل قبل وقوع الفعل وقبل الوصول إلى الغاية التى لأجلها تفعل .

وهى نفسها التى تدفع بنشاط خصائصها الكائنات جميعا إلى التطور والترقى ببعث إرادة حيوية دافعة فى الأكوان الإمكانية خلال تكوينها وتطورها إلى التكمل بطاقة ناشئة عن إرادتها العليا تصنع ذلك كما لو كان يحدث بفكر محرك يدبر ويدرك ويستنتج ويحكم بشعاع ينبثق فى ذواتنا مع ذات أعلى من نورها الأعظم تحت اسم العقلين . الفاكر والشاعر معا (العقل الظاهر والعقل الباطن) ، وهى فى كل ذلك مطلقة التصرف حرة التدبير لايبدو فيها مايبدو فى عقولنا أو فى مادتنا من قصور ذاتى بل أنها كاملة ومنزهة فى ذاتها ، وفى سائر خصائصها عن حدود العقل المنطقى المعروف وتصوراته ، وعن الامتداد المادى وأحيازه وإنما هى فى وجودها

= الزمانية المكانية ولكنه بالنسبة لما فوق العقل من ادراك الهى مطلق يعتبر العقل كائنا محدودا .

الثابت علة مطلقة تمام الإطلاق وبكل ما للاطلاق من معان وفوق هذا وذاك فإن لها شرائط لا تتوافر فى غيرها وسنذكرها فيما بعد .

والآن نريد أن نقول : أنها هى نفسها مبعث الحياة فى الأحياء وهى مصرفة الأشياء الكونية فى وقت واحد كسبب لأسبابها وعنها أيضا تصدر أوليات المنطق العقلى الفلسفى السليم الذى من مسلماته الضرورية مثلا أن لاشىء يأتى من لاشىء — ولا يوجد معلول بغير علة — وفى منطق العلم أن الحياة لاتأتى إلا من مبدأ حى كما يثبته ويؤكده علماء البيولوجيا الكبار ويكون من الهزر والخطل فى نظر المنطق الفلسفى والعلمى الصحيح أن تكون العلة هى العلة وهى المعلول فى وقت واحد كما تقتضيه نتائج الفلسفة العقلية والفلسفة المثالية أو التصورية أيضا فان العقل ذو قصور ذاتى ظاهر ، وكذلك نفس الشأن فى المادة وقصورها بل هى أكثر من العقل محدودية ومنطقها أضيق من منطقه ضرورة لأن منطقها لا يتناول سوى ضروب الظواهر المادية وما ينشأ عنها من إدراك حسى . فكلا المذهبين (الحسى والعقلى) يؤدى إلى الشك فى نتائجهما معا شكا محدودا أو مطلقا لماذا . . ؟

لأن الشك المطلق الذى كان دائما مصاحبا لسائر أدوار الفلسفة يترتب عليه أمران : إما القول بعلية العقل للعقل وللأشياء كما فى المثالية ، وإما بعلية الشىء المادى لنفسه والعقل معا ، كما فى المذاهب المادية والواقعية وما يبنى على ذلك من مذاهب أخرى علمية أو فلسفية ، الأمر الذى أتاح للفرصة للشكاك فى الطعن لأحكام العقل على نفسه وعلى الأشياء أيضا وقد نشأ عن ذلك وجود المدارس الشكية مذ كانت السفسطائية فى عصر ماقبل سقراط أو البيرونية فى العصور الوسطى ، أو الشك الهيومى عند (هيوم الإنجليزى) فى العصور المتأخرة وناهيك بمذهب هوبز ذلك المذهب الذى يضيق بتناقضه العقل والإحساس معا .

وقدمنا أن سبب الوجود علة واحدة سببية واعية، وهي في وعيها وفي اقتدارها أسمى من العقل ومن المادة (الطبيعة) جميعا ولدينا على ذلك براهين ثلاثة قد نعتبرها جديدة في عالم المعرفة العقلية والحسية والقلبية جميعا . ولا يمكن ردها بمنطق ما عقليا أو حسيا إلا أن يكون ذلك المنطق منطقا سفسطائيا ليس له في مجال التحقيق العقلي والعلمي من قيمة تذكر وهي :

١ — الدليل الرياضي . ٢ — الدليل الطبيعي .
٣ — الدليل النفسي الإنساني .

وسنأتي بتلك الأدلة عند المناسبة للمقام ، وهي تؤكد في مجموعها القول بأن العلة السببية الأولى المتوحدة هي مبعث ما في العقل والشيء من نشاط وحركة أو قل الحياة والعقل والشيء جميعا

وقد أعارت هذه العلة شعاعتين من نورها القديم للوجود الكوني في مجموعه كما قدمنا ، وتلك الشعاعتان متضايفتان ومتكاملتان لإحداث النشاط الوجودي في الكائنات سواء كان ما تحدثه من فيض نورها وإبداعها معنويا أو ماديا شيئا هو نور الفطرة، ونور الطبيعة (نور مرئي ونور غير مرئي)[١] أما نور الفطرة أو قل نور البصيرة ، أو قل الذوق الفطري ، أو قل العقل الباطن ، أو قل في حدود هذا المعنى ما شئت : فإن هذا النور وهو نور الروح يقع من الفطرة الإنسانية في مكان البؤرة من الذات ، وذلك يشمل كل ما يحس الإنسان ويعقل . وبؤرته التي يصدر عنها تسمى (العقل الباطن) سواء كان الأمر المدرك عقليا أو حسيا مع زيادة الشعور الكامل في السريرة لدى الوعي وانبلاج الرؤية المعنوية لدى البصيرة .

---

(١) ووجود التقابل بين النورين : النور الحيوي والفطر الذاتي والنور الذري الخارجي واضح ومعلوم .

وأما نور الطبيعة : فهو نور الطاقة النووية الذرية الصادر عن الأشعه الكونية التى تخلقه فى الفضاء بنواة الأيدروجين وكهربها المقرر من ذلك النور الإشعاعى إلا أطيافه السبعة ، التى بامتزاجها يتكون نور النهار الأبيض ، فتبدأ بالبنفسجى وتنتهى بالأحمر وينقسم ما فوق البنفسجى وما تحت الأحمر إلى موجات ثلاث لاترى بالبصر قصيرة وطويلة ، ومتوسطة ، أما ما فوق البنفسجى فموجات قصيرة جدا لا ترى ، وكذلك ماتحت الأحمر كالأشعة الحرارية وغير ذلك وأما الأطياف فقدمنا أنها ترى ممتزجة فى نور النهار الأبيض وبالتحليل الإشعاعى من منشور زجاجى تظهر الأطياف السبعة كما هو معلوم .

هذا . . . وقدقدمنا للقارىء بطلان الدعوة القائلة بأن العقل علة لنفسه وللأشياء بأن عارضه المذهب المادى قائلا : إنما العلة هى المادة وهى العلة وهى المعلول أو الخالق والمخلوق فى وقت واحد . وفى هذا المجال تكون الأشياء المادية كذلك من باب أولى أى أنها معلول لعلة . وليست هى بعلة لنفسها وإذا كان المذهب المادى يصرح بعدم علية العقل لنفسه أولغيره ، فهذا نفسه تصريح بعدم التطاول إلى العلية من المادة لقصورها الذاتى بمدى أضيق من مدى العقل فى قصوره الذاتى .

هذا والعقل إذ ينفى أن يكون للكائنات علة متوحدة ، هى أوسع منه اطلاقا وأكمل شمولا فقد ناقض نفسه بنفسه ، لأن العقل فى حدوده المنطقية ذو قصور ذاتى ظاهر ، كما تقدم ومن أدلة قصوره مثلا : أنه يثبت أمرا مرة ، ثم ينفيه مرة أخرى ، أو يشك فى إثبات ما أثبت أو نفى ما نفى ، وإذا كان هذا شأن العقل من القصور الذاتى ، فالمادة وهى أقل من العقل رتبة فى الوجود وتدعى أنها هى علة لنفسها وللعقل أيضا فهذا بالبطلان أحق وهى بالقصور أولى .

فهل يا ترى يكون الشك فى نفسه هو العلة الوجودية المحققة ؟ بدلا من

العلة الأصلية أو على الأقل العلة العقلية وذلك هو الأمر الذى دعا إلى القول بالصدفة[١] عند قوم من العلماء وإلى قوم بالشك المطلق[٢] عند قوم من الفلاسفة؟ وهل مع ذلك ومع مثل تلك الآراء الحائدة عن الصواب تشرئب المادة أو يشرئب العقل للبلوغ إلى سلطان العلية المطلقة مع وجود الفارق العظيم بين المطلق الشامل والمقيد المحدود ؟ . . حقا إن هذا منطقيا مورد للشك وواقعيا أمر بالغ الاستحالة لأن الشك هو عدم اليقين ، وفاقد الشيء فى نفسه لا يعطيه لغيره ضرورة ، والشك نفسه فى مقابل اليقينية دليل على القصور العقلى عن البلوغ للحقيقة وفى مثل هذا المجال تكون المادة الصماء أولى من العقل بالقصور ، وإذن فلا بد للعقل المستبصر والمستنير لدى النظرة السليمة للوجود من الإقرار بوجود علة كلية أكثر منه إطلاقا وأشمل وعيا فتجمع بين العقل والشيء كمعلولين لها وتؤلف بينهما (العقل والمادة) فى وحدتها المطلقة عن طريق نشاطها المبدع المقتدر وهذه تكون أسمى من العقل ومن الشيء جميعا فى وثبتها الوجودية والعلية معا

فإن كان هناك فى أقصى أقاصى حقائق الموجودات كائن مستحق لأن يكون علة لنفسه وللوجود فى إطلاقه ، لا يكون ذلك سوى العلة الإلهية الواحدية التى ذكرناها (الله) وذلك ضرورى فى المنطق السليم لتعليل الوجود فى مجموعه عقلا ومادة وروحا بل وذلك ما يأتلف به العقل الإنسانى مع المنطق السليم ولا بد أن تكون هذه العلة السببية واحدة غير منقسمة ولا متعددة وتكون متوحدة فى ذاتها ونعوتها ، أيضا وتكون كاملة لا يؤثر عليها أى ضرب من ضروب القصور التى تعترى المحدثات الكونية ،

---

(١) فى الواقع أن الصدفة كلمة لا تدل على معناها الحقيقى لأنها تلاقى بين أمرين واقعين وهذا لا يمنع أن لكل أمر منهما سببا لا صدفة فيه .

(٢) الشك نوعان : شك نسبى فى الرجل الذى شك ليصل الى حقيقة وشك مطلق فى الرجل الذى يشك مطلقا فى وجود أى حقيقة ثابتة .

وكذلك يجب أن تكون تلك الحقيقة العلية السببية قديمة لا يسبق وجودها في الزمان آن آخر حيث إنه عنها كان مبدأ كل شيء في الزمان والمكان ، وإليها ينتهي مصير كل شيء كائن ، ويجب أيضا أن تكون هي الغاية المنشودة لكل شيء لأنها العلة سابقا وحالا ولاحقا ، وهي (الله) فأين من هذا وذاك يكون مقام العقل أو مقام المادة التي نسميها بالطبيعة ؟!! .

ذلك الاسم (الله) الذي قد ألهم الخلق جميعا بسابق فطرتهم على أن يضعوا له تلك التسمية التي لا يتكافأ معها اسم آخر ، وقد تمت لله جميع شرائط العلية ، فمنها ماذكرنا ومنها ماسنذكره بعد . وإذا كان ذلك هو الأمر الذي لا يمكن لقلب مستنير أن يجحده إلا إن كان فاسدا ولا لعقل سليم أن ينكره إلا أن كان قاصر المعرفة (وذلك ما سنبرهن عليه جليا فيما بعد) .

فإن كانت العلة موجودة كما قررنا ، وهي مستوفية من الشرائط ما ذكرنا ، فكيف ندرك خصائصها وأفعالها إلا إذا كانت ممثلة بأضوائها في عالم مثل هذا الوجود الذي نعيش فيه وتكون هي في ذاتها وفي وجودها الوجوبي منزهة عن كل صورة أو فكرة من صور الوجود الإمكاني ، أو تصورات متضامنة (فكل ما خطر ببالك تجد الله بخلاف ذلك) لأنك لا تعرفه إلا به أي بما هو مغروس في فطرتك قديما من نوره . وفقط نستدل على وجود تلك الحقيقة الإلهية بهذا النشاط البارز في محيط خصائصها والبادي في عقولنا وإحساسنا في كل شيء من الموجودات الإمكانية . وتكون تلك الفاعلية هي الأمر الدال على وجود الفاعل الالهي وبعبارة أخرى : إذا كان للعلة خصائص وللخصائص نشاط . فأين يعمل ذلك النشاط ياترى إلا في محيط مثل هذا الوجود الامكاني الذي نعيش فيه ونتعقله ثم نحسه ونلمسه ونبصره فندركه ونتعقله ونفلسف في معانيه ، وبواعثه وحركته إلى

إلى غايته النهائية من سمائه لأرضه ، وما بين سمائه وأرضه من شيء محس أو معقول !

فاذا لم يكن للعلة الأولى ذات تتصف بخصائص لها ولم يكن للخصائص نشاط . وإن لم يكن للنشاط طاقة دافعة ومطورة وإذا لم يكن لطاقتها حركة وأيضا سرعة تطور معلولاتها وتحركها إلى غايتها كانت العلة غير موجودة أو على الأقل شبيهة بالمعدومة الوجود لانعدام الأدلة على وجودها ، وبالتالى تكون خصائصها معدومة أيضا تبعا لانعدام الذات وانعدام النشاط من حيث أن لا نشاط لها يدل على وجودها (وتكون الخصائص) الصفات معدومة أيضا (وبذا تكون سلبية الوجود) وهذا فى المنطق السليم أمر غير معقول بالنسبة للعلة المعقولة هنا لوجودها وأنها سبب وجود كل شيء ولا سيما أن هذا هو الأمر الذى لا تلتئم معه ألفة العقل السليم واستقراره على حقيقة نهائية للوجود وهنا سيقول المنطق العقلى بالدور والتسلسل وهما ممنوعان فى منطق العقل ، ويسميه المنطقيون بالدوران فى الحلقة المفرغة.

هذا من جهة العقل ومنطقه أما من جهة الفطرة ومن جهة البداهة الأولية فقد قالها الأعرابى الجلف القديم (إن الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير) .

ثم إن السلب لا يهب الإيجاب لأنه عدمى ، والعدم لا يهب الوجود ، وبعبارة أخرى وعلى الأقل ينتج عالما كالذى نعيش فيه ، والذى قوامه طاقة وسرعة وهى أمور إيجابية ، ثم أشياء وأحاسيس ومدركات عقلية وحسية واقعة فى عالمى الذات والموضوع وهذه الأخرى مدارك إيجابية أيضا .

نعم ... إننا نعقل ونبصر ، ونحس ونلمس أن فى الوجود نشاطا بارزا بروزا يعطينا اليقين الكامل بوجود المؤثر فينا وفيما حولنا من كائنات

سمائها وأرضها ، أو قل السدم والنجوم والشموس والسيارات جميعا والتى منها كرتنا الأرضية التى نعيش عليها ولها وتمثل فى الوجود التى أبدعها الله سوى حبة رمل فى صحراء واسعة ، نرى كل ذلك ونحسه ونعقله مماثلا كالذرة والعناصر والسرعة والحركة ، وحتى فى الكتلة المادية التى لا تفتأ تتحول تحولا سريعا لا ينى مابين لحظة وأخرى وتتراوح بين جمودة وسيولة وغازية وتظل هكذا حتى تدركها الصيرورة الأبدية فتعود إلى الحقيقة التى عنها برزت وبنشاطها تكونت ذراتها وتعود الذرات إلى الإشعاع ، ويؤول إلى الطاقة والطاقة هى ناتج القوة ، والقوة وليدة قدرة تحدوها إرادة حرة مطلقة وعلم وسيع وحياة كاملة وهذا كله لله وكل تلك الأمور تبعث على اليقين الضرورى بوجود علة لها إرادة مطلقة ، وتلك الإرادة خصيصة أو صفة من صفات العلة الأولى أو السبب الأول .

والسبب الأول هو الله ، وعن نشاط خصائصه العليا برزت تلك الكائنات وإليها تعود مرة أخرى ، وهكذا دواليك إلى ماشاء القدير العليم .

تبصير وتفصيل

إن الأشياء التى نسميها مادة بخصائصها الثلاث : الجمودة والسيولة ، والغازية إن هى فى حقيقتها وواقعها إلا مجرد حوادث عابرة ، وظواهر كونية ترجع فى أصولها المكونة لها إلى نشاط الطاقة الذرية[1] وحسب. وبالإشعاع الحادثة هى عنه ذلك الذى تتكون به الحركة والسرعة فالعناصر فجزئيات المادة .

وتلك الظواهر المادية كلها تعتبر بحكم الوضع الذى يصرح به العلم الحديث موجودة وجودا إمكانيا احتماليا بحتا لعدم ثبات وجودها فى حالة واحدة ، لأنها دائمة الحركة لاتنى لحظة واحدة عن التشكل والتحول بفضل السرعة ، ولا تثبت أبدا على حالة واحدة فترة من الزمن ، والأصل فيها أن تحدثها الطاقة النووية بنواتها وكهاربها ، ثم تطورها السرعة ، ويقودها التحول وتعتريها الصيرورة فتجعلها فى صورة ما إلى أمد . حتى تواجهها طاقة أخرى فتحلها أو تحولها إلى حالة غير حالتها التى كانت عليها وبذا تكون كا احتما لى المصير وممكن الوجود والعدم ، والعدم هنا مجازى (وهو بمعنى التحول) .

وكل كائنات الطبيعة فى نهاية تحولها إن هى إلا مجرد أطياف إشعاعية تظهر مرة كعناصر أو جزئيات مادية متكتلة أو أجرام ، أو سيارات أو نجوم أو مجرات أو سدم متحركة يتداولها حالات ثلاث ، فهى لا تخرج عن الجمودة أو السيولة أو الغازية ، حتى ترتمى فى أحضان أمها (الذرةالنووية) مرة أخرى ، وهكذا ، ومع ذلك فان الكم الشىء الذى نسميه مادة هوكم واقعى إذا يتجسم ويتكتل فتقع عليه حواسنا ويتناوله إدرا كنا الحسى فهى موجودة بالفعل وجودا واقعيا لدىالاستقراء بالحواس ولو إلى أمد : أى إلى أن يفاجئها العاملان المهمان فى الطبيعة وهما التحول والصيرورة ، فندركها حال ظهورها كما نراها ، ويقع عليها إدرا كنا الحسى فيحصل للذهن صورة منها ويدركها ذهننا العقلى أيضا وهكذا تبدو الأشياء

---

(١) الطاقة

لحواسنا ولدى عقلنا المفكر على غير حقيقتها الذاتية [١] وإن كان كيان محس ولو ظاهرا ، فتصدم بذبذباتها الطيفية الذرية حواسنا الخمس فتنبه تلك الظاهرة إدراكنا الحسى عن طريق الأعصاب لإدراك شىء واقع فى الخارج (فى عالم الموضوع) (٢) وكذلك الفكر والإدراك العقلى موجود بالفعل (فى عالم الذات) كعامل عقلى وله منطقه وله خبرته الذاتية ، وله ايضا قصوره الذاتى مع ذلك ، كما للمادة قصورها (٣) .

ومن ثم يتم التجاوب بين الشىء المدرك والعقل المدرك له ذلك ، الذى يدرك أنه موجود وانه مدرك لشىء ما فى الخارج ، ولذا يوجد بينهما تضايف وعلائق معقولة ومحسة ، وإن كان العقل لايدرك الكيفية التى يتم بها إدراكه ، ولاسبب كونه مدركا ، ولا سر العلائق التى تربطه بالأشياء الخارجية حالة كونه يدركها .

وتلك المقدمات للبحث فى مصادر المعرفة ، وفى حدود الأشياء ، وفى الإنسان ذاتا وموضوعا ، وإن كنا نقرر من جهة علم النفس إن فى تلك المدركات يوجد ما هو ذاتى محض ، وما هو موضوعى محض ، وما هو مشترك بين عالم الذات وعالم الموضوع . ولهذا السبب نفسه يوجد بينهما (العقل والشىء) تكامل يدل على أن فى كليهما قصورا عن بلوغ حقيقة الوجود كاملة مالم تدركهما كفاية البصيرة بحدسها ، وذوقها الفطرى ، لأن

---

(١) ان الأشياء كما يقول (كانت) لا ترى على حقيقتها فان حقيقتها المكونة لها طاقة غير مرئية وبالسرعة والحركة تتكون الأشياء ككتلة جامدة أو كسائل أو غاز وهى صفات المادة وكان (كانت) يقول : (أرونى الشىء فى ذاته) .

(٢) والحقيقة أنه حين تحول المادة بخصائصها الثلاث الى عناصرها الأولى تكون اشعاعات غير منظورة ، تكون العناصر وترجع فى وجودها الى القوة المطلقة التى هى نبع كل طاقة وكل حركة وكل سرعة .

(٣) العقل كائن يدرك ولا يحس طبعا وهو تابع للذات التى أصلها الحياة أو الروح فهو موجود على كل حال فى مقابل عالم الأشياء التى ترى وتحس وتدرك بهذا العقل . ارجع الى حرف (أ) .

وراء العقل والشيء فى الإنسان كفايات وخصائص أخرى وهى أسمى منهما . فنرى مثلا خلف الإدراك العقلى المحض عقلا باطنا يتمركزن فيما نسميه الشعور الذاتى التلقائى ، وهى حالة قائمة بالذات الإنسانية ومباشرة لبؤرتها وإن سماه بعض علماء النفس الماديين (باللاشعور) على أن العقل الباطن مع التحقيق واع واعيا مستبطنا وإن سماه بعض النفسيين والسلوكيين المعاصرين باللاواعى أو اللاشاعر ، وهو اسم معكوس لفظا ومعنى ومنطقا .

لأن هذا الشعور الذاتى المستبطن فى الذات الإنسانية (العقل الباطن). على تقديرنا وفى واقع الحال هو أساس العقل المدرك الظاهر ، ونبعه الفكرى بحيث يعتبر إشعاعا صادرا عنه ، والعقل الظاهر يسمونه الواعى جدير بأن يسموه العقل الفاكر ويتركون الواعى للعقل الباطن ، وبذا يقاربون الصواب إذا كانوا يعنون بذلك صدوره كقوة مفكرة عن العقل الباطن مركز الشعور وأصل التفكير وإما أنهم يجعلونه كعقل مستقل شاعر أو واع فى مقابل الشعور الذاتى الباطن ، الذى يسمونه اللاشاعر واللاواعى ، فهذا منتهى الخطأ .

وعندنا : أن العقل الظاهر الفاكر المنطقى المعروف تابع للعقل الباطن. كفرع أو كشعاعة عنه كما قدمنا ولو قالوا العقل الفاكر والعقل الشاعر لكان الأقرب للصواب فالفاكر للعقل الظاهر ، والشاعر للعقل الباطن وذلك لأن العقل الباطن الكبير هو الشاعر الواعى فى الحقيقة ، وهو الكائن العميق المستبطن فى الإنسان وهو العقل الكبير الذى حيرهم وسيحيرهم أجيالا باستبطانه وكونه فى الذات لا يجوز قط فإن يسمى هذا العقل الباطن الواعى باللاوعى .. كيف .. وهو موطن الشعور والوعى كله ومستمدهما (العقل والوجدان والذوق والبصيرة) واختصار فإن تخصيص العقل الظاهر فقط بالوعى دون غيره خطأ محض كما قدمنا حالة أن العقل الباطن بالنسبة للعقل الظاهر كبحر خضم ، وما عقلنا الظاهر بالنسبة له إلا كفقاعة على وجه مائه المحيط.

والوعى فى إطلاقه هو نور الشعور الذاتى الكامن فى شخصية الإنسان

تحت اسم العقل الباطن ، وعنه يتفرع العقل الظاهر وغيره من المشاعر المعنوية وهذا الشعور الذاتى يعبر عنه الدين فى لغته : بالقلب ، ويعبر عنه علم الأخلاق بالضمير ويعبر عنه الفن : بالذوق الفطرى أو الوجدان ، وتعبر عنه المعرفة الكاملة فى علمها الكامل : بالبصيرة ، ويسميه علم النفس : العقل الباطن ، فيستمد منه عقلنا الظاهر المفكر ضرورة كما بينا .

فالعقل الظاهر المعروف يدرك ولكن إدراكه نسبى محدود ، مادام يخرج من جعبته المنطقية الشك واليقين فى وقت واحد[1] وأطلنا فى بيان ذلك لنؤكد أن المعرفة الشاملة الكاملة لا تتأتى إلا بسائر هذه الكفايات مجتمعة: الإدراك الحسى ، والإدراك العقلى ، والإدراك البصيرى (وهى كفايات المعرفة الكاملة) وكل من هذه الكفايات يقوم كمعيار نسبى لحقائق نسبية تناسبه ، فإن أريد كمال المعرفة لله وللإنسان وللطبيعة فيجب استعمال هذه الكفايات جميعا ، ومنها البصيرة وهى أعلاها وأعمقها ، وللبصيرة أسماء عدة بسبب تعدد حالات قوى النفس، ومقدار مفاهيم الناس لها .

فمنها الوجدان حينا، والذوق الفطرى حينا، والحدس آخر حينا، والحاسة السادسة حينا ثالثا ، ويعنون بالحاسة السادسة ماوراء الإحساس والتعقل من مشاعر تلقائية متسامية فى مجال المعرفة العامة على أن الحقائق النسبية وهى موضوع البحث العقلى متعددة لدى العقل ، وهى منهج بحوثه وأن جمعتها كلها حقيقة مطلقة واحدة فى أوجها الأعظم وتلك الحقيقة ، لا تدرك إلا بسائر هذه الكفايات مجتمعة ، وفى أعلاها البصيرة ، والحقائق النسبية بجانب الحقيقة الكلية لا تعتبر إلا كنواح أو زوايا للنظر العقلى العام نحو

---

(١) ان المنطق العقلى وان كان عنوانه البحث عن الصواب الا أنه قد يستعمل فى السفسطة والمغالطة أيضا ومن لطائف النوادر أنه اجتمع فيلسوفان مؤمن وملحد فتناظرا وكان رائدهما المنطق العقلى وكانت النتيجة أن الحد المؤمن وآمن الملحد .

الحقيقة الشمولية لا كأجزاء لها ، ولا يسع الإنسان إلى معرفة تلك الحقيقة معرفة كاملة إلا بنورها القطرى الموهوب من الله والمنصب على سائر تلك الكفايات وهو زائد فى النظر على مداها .

وبعبارة أوضح وهى — عبارة شمولية — ومعناها أنه إما دامت الحقيقة المطلقة هى علة كل شىء ، الحس وما يحس ، والعقل وما يعقل ، فيمكنك أن تقول مع أهل التصوف « لا يعرف الله على التحقيق إلا بنور من الله » زائد على كفاياتنا الإنسانية . وذلك النور هو ما تسميه الحكمة بالبصيرة . وفى لغة القرآن اسمه (اللب) وذلك فى مثل قوله تعالى (وما يذكر إلا أولو الألباب) .

* * *

هذا .. وفى سبيل التوضيح يمكن أن نقول : إن الحقائق الوجودية النسبية المتعددة تعلو طبعاً عن أن يتبادلها مجرد منطق العقل وحده إن أردنا التحقق تحقيقاً شاملا متصلا بالحقيقة المطلقة فى العالمين : العالم الذاتى المستبطن والعالم الموضوعى الحسى الظاهر ، فلا يتم ذلك إلا بمعاونة البصيرة التلقائية للعقل والحس معاً فى سبيل البحث عن تلك الحقيقة المطلقة ولا سيا فى آفاقها المحلقة ككفايات للمعرفة كاملة ، ولذا قلنا إن هذه الكفايات كمشترك بين جميع الأحياء والمدركين من بنى الإنسان ، وفوق هذا وذاك فإن البصيرة بإلهامها المبصر قد تتمتع بأشكال بسيطة منها بعض الحيوانات والطيور والهوام عن طريق الإلهام أو الغريزة (١) كما يحدث فى النمل والنحل مثلا .

---

(١) ان للنمل مثلا فى بيوته التى يبنيها باحكام يفوق التصور اذا اختزن حبوبا مثلا فانه يجعل الحبة فرقتين حتى لا تنبت ثانية فمن علمه هذا يا ترى ؟ وكذلك النحل وكيفية بنائه لخلاياه ومسدساته وفى =

وعقلنا المدرك بواسطة الكفايتين : الذاتية والموضوعية (الإدراك الحسى) هو فى الواقع حادث ، وذو قصور بالنسبة للعقل الباطن ، الذى يستمد قوته ووعيه من بؤرة الذات موطن الوعى الموهوب والشعور كله ، وللعقل الظاهر لغات عدة ، وأوجه كثيرة من الجدل والسفسطة ، والتحقيق والاستقراء والاستنتاج ، والنفى والإثبات والتناقض أيضا وذلك عن طريق منطقه السليم أو المغالطى أو المخطىء .

أما البصيرة : فهى نظر تلقائى ، ووعى نافذ متمتع بسائر البدائه والأوليات العقلية وغير العقلية وليس فى قاموسها اللغوى سوى ألفاظ قليلة ، مثل ، هذا حق حق أو باطل باطل ، وهذا خير خير وذاك شر — شر . . . الخ . بينما العقل الظاهر او المفكر يعطى اليقين باليمين ، ويعطى الشك باليسار ، وأكبر من هذا وذاك أنه من طريق منطقه العقلى أن رتب للرجل الخير ووسائله للخير ، فإنه يرتب أيضاً وفى الوقت نفسه للرجل الشرير ووسائله للشر بنفس المنطق ؟ .

= تصويبه وتأويبه (التصويب هو توجه النحلة صوب الزهور لاقتناء الرحيق والتأويب عودته الى خلاياه ليصنع برحيقه الشهد والشمع فمن علم النحل هـذا يا ترى ؟ سوى الالهـام الغريزى الذى فطره الله عليه . وفى هـذا المعنى يقول العلامة ملكن ادوارد : (اذا اقبل الانسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى أصول أعمالهـا اليومية) .

البحث فى وجود العلة الأولى أو السبب الأول

قدمنا أن البداهة الأولية لدى الفيلسوف والرجل الساذج تقضى (بأن لكل معلول علة) وأن بين المعلول والعلة علاقة تلازمية ولا بد أن يشمل وجود العلة وجود المعلول ضمن محيط وجودها ، بسبب هذه العلاقة كأثر معلولى التلازمية فإن لم تكن العلة موجودة انتفى وجود المعلول ضرورة والحال أن وجود المعلول جميعاً ، وذلك كان من الذرة إلى المجرة فى عالم الطبيعة(١) وكذلك عالم الفكر والتعقل من الإدراك الحسى إلى عمق أعماق التفكر العقلى فى مقابل الطبيعة بأشيائها ، وهذا التقابل نفسه يجعلها حقيقتين نسبيتين لاحقيقة أولية واحدة أو حقيقتين مختلفتين (اثنينية) ينسب إليها أو إليهما الإنشاء والإبداع (كعلة) وفى تكامل العقل والشىء ذلك الأمر المشهود تعقلا وإحساسا دليل المعلولية ، بل والقصور أيضاً وهو الأمر الذى يحتم وجود علة أولية أعلى منهما وأشمل وأسمى فيتواجدان فى رحابها (العقل والشىء) .

وتلك العلية تقتضى أن الحقيقة المطلقة التى يجب أن يكون لها الشمول والإطلاق يلزم أن يكون وجودها وجودا ضروريا واحديا عليا ذاتيا متصفا بخصائص مثيرة لهذا النشاط البادى فى أنحاء الكائنات بحالتيها — الحالة الإدراكية المدركة والحالة الحسية المدركة — وبما أنها حالتان من حالات الوجود عابرتان ومتقابلتان ومتكاملتان ، فإنهما يأتلفان فى خصائص العلة الأولى تلك التى بزغا عنها ، وكانا معلولين لها ، وهذا الوضع الطبيعى يقتضى أيضاً قصورهما (العقل والحس) وبعدهما عن العلية المطلقة .

ومن الأوليات العقلية والبداهة التى يحتمها منطق العقل نفسه وتقتضيها

---

(١) وجود المعلومات الشيئية والعقلية وجود امكانى بالنسبة لوجود العلة (علة وجودها) الذى هو وجود وجوبى ضرورى .

اللغة أن لاشيء يأتى من لاشيء كما قلنا ، ولا يذهب شيء إلى لاشيء كما هو الواقع .

فلابد لكل كائن ظاهر ، من حقيقة علية مستبطنة وراء وجوده تسببه سواء كانت القوانين الطبيعية أو مطلقة كالألوهية المهيمنة . ولا بد لكل علة متحققة الوجود من نشاط يبدو فى الخارج كخصيصة متحققة بالفعل أى فى نظام معلولاتها وفى حركة تلك المعلولات ، لا بد أيضا لكل نشاط إيجابى من محيط يعمل فيه ضرورة ويبدو أثره الفعال فى أنحائه ، ويكون سبب بروزه من عالم القوة إلى عالم الفعل وجود طاقة عاملة عقلية أو طبيعية — نشاهدها ونعقلها فى سائر وحدات الكائنات المحسة والمعقولة .

وتقضى أوليات المنطق السليم : بأن كل موجود — أى موجود — لابد له من نشاط فعال فى الخارج يحقق وجوده ، وبالتالى يدل عليه ، وإلا فهو معدوم أو شبيه بالمعدوم كما قررنا ،

وعلة الوجود موجودة بالفعل ، ويدل على وجودها النشاط البارز الذى يتحلل به هذا الوجود ، ويتعلل به فى الوقت نفسه وجودنا أيضا كأثر لذلك النشاط الإلهى الأول البارغ عنها (الحقيقة المطلقة) .

والنشاط نفسه صفة ، والصفة تؤكد وجود ذات موصوفة وراءها ، وتكون على الإطلاق الذات العلية للوجود مادامت مطلقة تلك التى قامت بذاتها ، وقام بوجودها كل شيء وهى أيضا الحقيقة التى تنشىء الفكر فى عالم الذات ، وتنشىء الطاقة فى عالم الموضوع ، فيخال لأصحاب الفلسفات المحدودة ، الأفق أن الفكر وحده هو العلة لكل شيء بما أنه غيبى معنوى (كما فى المثالية) أو أن الشيء وحده (المادة) هو العلة لنفسه وللعقل ولكل مافى الوجود أيضا .

هذا على أن تلك الطاقة النشيطة ، سواء كانت روحية أو مادية

وطبيعية قانونية صادرة ضرورة عن إرادة وعلم يدل عليهما النظام والتقنين المصرفان للنشاط الكونى .

وأن الفاعل الأول القادر المريد العالم (وهو الله) يكون حيا بالضرورة .

والنشاط المقصود هنا هو مطلق القوة المؤثرة بسرعتها فى كائنات الطبيعة والناشئة عن صفة للخالق اسمها القدرة وقدمنا أن القوة قدرة مادامت كامنة فى الذات فإذا برزت إلى الفعل سميناها قوة أو طاقة وكذلك نفس الحال فى التعقل والحياة ، على أن سيال الحياة ونشاط التعقل قوة من نوع آخر غير القوة الطبيعية لأنها أدق وأسمى ، وهى وإن كانت من نور أرق من النور الذرى ، فانها متضامنة تضامنا تلازميا مع القوة الطبيعية ، والنور الطبيعى فى تنشئة الكائنات وبالأخص الكائنات الحية وبعبارة أخرى : تشمل الجماد والنبات والحيوان — المواليد الثلاثة وتتبلور فى الإنسان .

فالحياة تؤهل الأحياء لما يبدو فيها من تطور كونى ، وإدراك وغريزة ، وأن إرادة الفعل (فى نفسها) تتضمن الغاية التى يريدها الفاعل بفعله وأيضا تتضمن الوسيلة التى يتوصل الفاعل بها لأحداث غاية ما سواء كانت الإرادة من فاعل مطلق كالإله أو من كان مريد متعقل محدود كالإنسان ولذا كان النشاط الوجودى على الإطلاق يحوى الوعى والطاقة معا فى وقت واحد . وهو السكون لأنهما من خصائص السبب الأول (الله) ، تلك الخصائص العليا التى بها أراد وفعل وأبدع وأنشأ وكون ، ثم هدى كل مكون إلى الغاية التى أعد لها وينشدها فالسبب الأول يعى مايريد وما يفعل قبل أن يفعل ، والغاية التى يوجه إليها فعله .

ولذلك اجتمع نور الحياة والوعى ، مع نور الطاقة المنشىء متعاونين .

خلال الوجود (١) وكان فى البدء بزوغ الحياة والقوة وكذلك الوعى . عن فاعلية واحدة ونبع واحد ، هو نشاط خصائص العلة الأولى والسبب الأعلى لوجود الكائنات (الله) ولهذا نفسه كان التكوين والنظام متلازمين دائما فلا تكوين بلا نظام ، ولا نظام دون تكوين .

ولكل تلك الأسباب مجتمعة ، كان من طبيعة الحوادث الكونية والكائنات الطبيعية المركبة أن تكون منفعلة ومتطورة لأنها نتيجة لفاعل أول وذلك فى حالتى التركب والتحلل ، وخصوصا إذا لابست تلك الكائنات حيوية الحياة (٢) .

فالموجود الأول العلى وهو (الله) هو العلة المطلقة للوجود وهو كائن مطلق ولا بدء له ولا نهاية وهو ذو وعى سام ، سابق ولاحق لكل وعى كان أو يكون . وكذلك قدرته المبدعة ووعيه الكامل يتمثلان (الوعى والقدرة) فى إرادة مطلقة فعاله ، وعلم شامل دون حد .

وإذن فمن يا ترى يكون ذلك الموجود الأول المتصف بكل تلك الخصائص سوى الله الواحد الأحد الذى جلت صفاته وتعالت ذاته عن كل محدوث وممكن ذلك الذى أبدع بقدرته وإرادته وعلمه وحياته سائر كائنات السموات

---

(١) وأبرز ظهور لهما فى الانسان من جهة التكافل والتعاون فان العقل يرشد الجسم كمطية أو آلة تنفذ احكام العقل ، وكلاهما يعيش بجانب الآخر من حيث تجلى ذات الانسان على أجهزة جسده فيحيا وان فارقته مات .

(٢) وذلك الفاعل الأول الذى يطور ويحول هو الله عز وجل من حيث أنه يخلق الأشياء من نور بسيط لا يرى يتحول الى شهاب كما فى عنصر الأيدروجين مثلا ومن هذا الضباب تتكون السدم والمجرات والشموس والكواكب الأخرى وكذلك يبدع الروح بنفخة من روحه الالهى فيطور الأحياء بهذا الروح أطوارا عدة الى أن ترجع فى النهاية اليه سبحانه وتعالى .

والأرض الحى فيها وغير الحى ولذا يسجد لعظمته كل ناطق وصامت فى السموات وفى الأرض جميعا ويسبح باسمه كل ساكن ومتحرك فيها ، وإن خصائصه العليا هذه توجب وجود النشاط السببى الروحى والطبيعى البارزان فى محيط الكائنات الممكنة وذلك ما يبرران يكون هو سبحانه والعلة المبدئية والغائية أيضا لهذا الوجود الإمكانى الصرف

فعنه تعالى بزغ نشاط الإيجاد ، ونور الحياة فى البدء بحالة واعية غير مكيفة بأى كيف لأن التكييف يحدث بعد ذلك (تشيىء الطبيعة) المتأثر بالنشاط الإلهى الأول . وهذا يقتضى بالطبع وجود العلائق التلازمية التى يتحتم وجودها بين القديم الخالق والحادث المخلوق أى بين العلة ومعلولها ، ثم بين الخصائص ونشاطها ، وبين النشاط وإثارة ذلك النشاط البارز فى عالم الكيان الطبيعى المشهود عقلا وحسا فى وقت واحد ويعنى هذا كله أن العلة يلزم عن وجودها وجود معلولها ضرورة وذلك يقتضى بروز النشاط الكامن فى الذات العلى وفى الخصائص من حالة الوجود بالقوة إلى حالة الوجود بالفعل[١] لأن النشاط فى نفسه صفة لموصوف ولا بد أن أن يكون للنشاط أثر فى الخارج يلزم عنه وجود مكونات منفعلة به فان لم تكن القضية هكذا فى نتيجتها انتفى النشاط وآثاره وذلك يستلزم طبعا انتفاء الخصائص الفعالى وبالتالى انتفاء ذات الفاعل ، على أن الواقع أن النشاط وآثاره موجودان فيما حولنا بالفعل فى سائر سماء الكون وأرضه وما وراء ذلك من كائنات معنوية وروحية يعلمها الله .

فان كان ذلك كذلك ، كانت العلة المطلقة حية مدركة حياة وإدراكا

---

(١) حركات المعلول دائما تابعة لتصرف العلة فتكون افعال المعلول لازما من لوازم وجود العلة فلا معلول قط بغير علة ولا فعل يقع بغير فاعل ، ارجع حرف ا ، ب ، ج من على هامش المعرفة العظمى من ص ٩ الى ٢٤

لا متناهيين ، فان رأى إدرا كنا أيضا ولا مندوحة له عن ذلك : إنه يجب أن يكون وجودا أوليا للعلة وخصائص نظامية تكسبها العلة لمعلولاتها وهذا فى باب الحق حكم العقل السليم بأن العلة موصوفة بالإرادة المنظمة ،والنظام لا يتم إلا بنشاط واع ينشىء وينظم ، ويكون النشاط والوعى من خصائص تلك العلة أولا ، وبالتالى يتقرر وجود النظام فى المعلولات كما هو مشهود فيكسبها خصائصها الأولية والثانوية جميعا ، وذلك بصفة عامة فى الوجود الكونى كله وبهذا وذاك تكون الخصائص الإلهية كصفات لذات متصف بالكمال وبارز النشاط والقدرة هو الإله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وكذلك تكون الصلة بين الخصائص الكونية والخصائص الإلهية من جهة نشاطها المتنوع مما يجعل علاقة تلازمية ضرورية بينهما كلزوم وجود السبب عن المسبب ، ولزوم النتائج عن المبادىء أو المقدمات.

وبهذا يكون من البطل الصارخ أن يعلل وجود الوجود كله بإحدى مكوناته كما فى المذاهب الفلسفية الآتية : المثالية ، أو العقلية أو التصورية ، تلك التى تقول فى مجموعها بأن العقل هو العقل وهو الشىء وهو العلة مطلقا أو كما فى المذاهب المادية والواقعية القائلة : بأن المادة هى المادة وهى مبدعة العقل وعلته . أو الإثنينية القائلة : بالفكر والامتداد معا فى معنى العلية (كما عند ديكارت) ، أو اثنينية الفلسفة الحلولية التى تقول : بحلول العلة فى المعلول (كما عند أسبنوزا) أو أفلوطين وبعض المتصوفة كالحلاج والسهروردى المقتول [1] حيث لا يرى المثاليون فى عالم الكيان الطبيعى سوى تصورات العقل ولا يرى الماديون فى مستقر العقل من الدماغ سوى صور

---

(١) الحلول : ان الحلول معناه تحيز جسم فى جسم آخر أكبر منه ، ولا يكون هذا الا فى شىء مادى يتخلله شىء مادى فان قيل بحلول الخالق فى جثمان المخلوق أو حتى بحلول الروح فى الجسم أو بحلول الخالق فى المخلوق فهو أكثر بطلا لأنه يقال على الأقل كيف يحل الكلى فى الجزئى ، فضلا عن استحالة حلول المعنوى فى شىء مادى .

الأشياء المادية فاذا تحاكم الرأيان أبطل كل رأى منهما الرأى الآخر فى نظر الباحث المحقق لأن الصواب والواقع يعدوان هذا وذاك وقاعدتهم فيما يقولون : أن ليس فى عالم الكيان الخارجى سوى الصور العقلية ، هذا عند العقليين ومعهم المثاليون وبالعكس يقول الماديون أن ليس فى مستقر التفكير الذاتى سوى صور الكيان الطبيعى الذى يبدو له من الخارج وتكون النتيجة باختصار عند العقليين أن وجود العقل علة وجود المادة وعند الماديين أن وجود المادة علة لوجود العقل فيكون كل واحد منها علة لنفسه وعلة للآخر (ولا علة مطلقة وراء ذلك) وهذا غاية فى البطل وفى التصور معا ، لأن فى تضايف العقل إلى المادة والمادة إلى العقل دليل القصور فى كل منهما كما قدمنا فى غير هذا الموضع من هذه الموسوعة فمرة على لسان المثاليين يؤول العقل نفسه باعتباره علة كل شىء وعلة نفسه أيضا ومرة أخرى يتخلى للمادة عن تلك الألوهية والعلية ، وفى هذا وذاك يقع العقل فى التناقض البين الصارخ المولد للشك فى النتيجتين لأنك لا تدرك أن لك عقلا إلا بعد أن تدرك أن لك جسما فيه عقل ، وأنك لا تدرك أن لك جسما ولا تدرك أيضا بقية الأجسام إلا بالعقل سواء كان هذا الإدراك بالإحساس أو بالتعقل وتكون النتيجة القصور المحتوم ، وفساد دعوى كليهما للعلية وذلك هو الأمر نفسه الذى دعا رأس الشكاك المحدثين ، الفيلسوف هيوم الإنكليزى لأن يقول : (أنا أشك فى النتيجتين معا لأننا كلنا نعجز عن معرفة شىء سوى ما تدركه الحواس (على رأى الماديين) فليس من الممكن أيضا على هذه القاعدة أن ندرك وجود العقل الذى ندرك به الأشياء وعلتها) .

هذا ولا يقال أيضا بعد كل مابينا أن أصل الوجود صدفة وإن كانت الصدفة ستارا تخفى وراءه جهلنا بالحقائق [1] وكذلك لا يقال أن علة هذا

---

(١) قدمنا أن الصدفة مجرد تقابل بين شيئين لكل منهما سبب لا يعرف الصدفة ٠

الوجود نفس الطبيعة ، المطبوعة على ما هى عليه وهـــذا معنى اسمها الذى يدل على أن لها طابعا غيرها ثم أنها تسير فى طريقها عمياء لا تبصر فلا بد لها من موجه يوجهها وهو نفس المكون والطابع الذى طبعها على ما شاء فى أعيانها وفى نطاقها أيضا بدليل أن لها قوانين لا يضعها إلا مقنن مدرك وأيضا أن فيها نظاما ولا بد للنظام من منظم طبعا[1] .

ولا يقال أيضا أن الضرورة [2] هى علة الوجود لسبب امتناع الضرورة عن فعل الفاعل المريد المختار لما يفعل دون أن يضطره على الفعل شىء آخر ويستحيل أن يكون المعلول هو المعلول والعلة فى وقت واحد .

ومما يدل على ثبوت وجود الفاعلية والنشاط الإلهيين كخصائص للعلة الأولى (الله) وجود العلاقة بين ذات الموجود وجودا أوليا قديما واجبا كعلة مطلقة ، وبين الخصائص كصفات له ثم وجود النشاط اللازم عن هذه الصفات أيضا ، ثم الآثار التى يكونها هذا النشاط فى مجموع الكائنات كما قدمنا وهى حقائق موجودة بالفعل فى العقل وفى الواقع .

وكل ذلك يتسلسل عن بعضه تسلسلا منطقيا طبيعيا معقولا (إلى أن تنتهى للعلة) لأنها حقائق كونية موجودة بالفعل أمام وعينا وإحساسنا معا لا يمكن إنكارها بحال وهى محتاجة إلى الفاعل الذى تتم بإدراك وجوده ألفة عقولنا .

---

(١) كلمـة طبيعـة لغـة : تأتى بمعنى مطبوعة كصنيعـة بمعنى مصنوعة وقتيلة بمعنى مقتولة .

(٢) الضرورة هنا تفيد الاضطرار كمـا يضطر القطار أن يسير اذا أراد سائقـه ذلك بأن يحرك الأداة التى هى سر حركتـه فى سيره فلا يقال ان مجرد الضرورة هو السبب فى سير القطار .

وبهذا وذاك تكون العلة قد عللت وجود ذاتها وبررته ودللت عليه أولا وقد دلت على أنها السبب الأول ثانيا ومع كل ما سقناه بهذا الصدد تكون قد حازت كل شرائط العلية .

وبالتالى فإن بتعليل علة الوجود لذاتها يتعلل أيضا وجودنا ووجود الأشياء كمعلولات لها كما تقدم وذلك كله يقع ضمن تعليلها لوجودها الذاتى ، ويتعلل وجود نشاطها الموضوعى الكونى المشهود لنا أيضا وكله يرجع إلى اقتدارها وإرادتها وعلمها وحياتها فى البدء وفى النهاية وبكل هذا وذاك يتعلل سبب وجود الحياة فى الكائنات الحية أيضا كنشاط أسمى من النشاط الطبيعى وأدق وأوسع خبرة وينبعث ذلك النشاط الروحى عن حياتها هى كروح عام يحيا به كل حى .

وعلى هذا الاعتبار القريب من الحق جدا أو هو الحق كله فى الواقع يكون الوجود المطلق ذاتيا وجوبا فى ذاته وفى خصائصه وموضوعيا إمكانا بالنشاط وتكون الكائنات جميعا على هذا روحيها وماديها مجرد شئون متعددة النواحى والاتجاهات للذات العلى المفرد المتوحد والمنزه عن خصائص جميع ما سواه وأوضاعه .

والشئون طبعا : مجرد فاعلية للذات ، والفاعلية تغاير الفاعل فى ذاته ضرورة وإن صدرت عنه كنشاط لخصائصه ، وهى أيضا (الكائنات) بدور ثان تقوم كدلائل واضحة ، على أن الذات العلية (الله) متمتعة بأصالة وجودها الذاتى وإن كان وجودها هذا كائنا خلف ستار الأعيان الكونية ، وصفاتها الأولية والثانوية ويكون الفاعل فيها متسترا بها لتجرده عن مظاهرها وخلف الحياة أيضا لسمو وجوده عنها ويكون الإدراك الأعلى (العلم الإلهى) وأيضا الإرادة والقدرة من أخص خصائص العلة ، وتكون القوة حالة كونية مستبطنة فى حوادث الكائنات الناشئة عن نشاط القدرة — فإن أضيفت القوة إلى خصائص العلة تسمى قدرة لامتناعها عن الكيف

والكم — فاذا ظهرت كنشاط فى الكائنات ، كانت قوة طبيعية » مقيسة . وهذا بديهى وظاهر لاسيما وأن للقوة طاقة مقيسة وسرعة معروفة ، وأما القدرة فلا تعيين لحدودها ولا قياس(١) .

ومن الضرورى أن يلزم عن وجود القوة وجود طاقتها طبعا ، وللطاقة حركة وللحركة سرعة ، ولكل هذه مجال تعمل فيه — القوة ، والطاقة ، والحركة والسرعة — وذلك المجال : هو شبئية الأشياء . أو قل : محيط الكون فى مجموعه بمادته ، وأعيان موجوداته وخصائصها ، وكذلك ما يبدو فيه من قوى فكرية وروحية أو طبيعية يتعين فرض وجود الزمان والمكان أيضا وجودا اعتباريا(٢)

وإلى هنا : نخرج من هذا البحث بثلاث نتائج :

النتيجة الأولى :

إن فى هذا الوجود الماثل لأعيننا ، والذى نعيش فيه على إطلاقه أسرارا وحقائق مستبطنة لا يمكن لإدراكنا الحسى أن يستوعبها ولا يقع عليها ولا يصل إلى حقائقها برغم فلسفة المذهب المادى الحسى أو الواقعى أو ما إليهما وكذلك الإدراك العقلى فى قصور ذاتى عن البلوغ إلى هذا بلوغا كاملا لاسيما إذا تقيد بحدود قانون منطقه الذى صاغه لنفسه وفيه تجمع الشك واليقين والنفى والإثبات فى دوائر قضاياه وهى حدود نسبية لها قصورها وبعبارة أخرى القانون القاصر على الحس أو العقل أو الحس والعقل معا ذلك الذى يشمله علم المعرفة السابق ، الذى يتراوح بين الإحساس

---

(١) القدرة والقوة والطاقة أمور يتسلسل بعضها عن بعض لايجاد شيء ما .

(٢) الزمان والمكان موجودان وجودا اعتباريا فقط كائنات ومجال للسرعة والحركة .

فى عالم الموضوع والتعقل فى عالم الذات ، أو الأخذ بمجرد كفايتى الحس والعقل كما قلنا أو قل بعبارة أخرى الإدراك الحسى والإدرك العقلى فى عالم الموضوع المدرك وفى عالم الذات (العقلى المدرك) .

وبرغم هذا كله فإن الحقيقة المطلقة تبدو ناصعة وراء تلك الأفكار جميعا وقد يغيب عن العقل لقصور فيه ، إدراك أن الوجود وراء منطقه كله حقيقة عليا لها منطقها الحق الذى يمنع العقل عن التأله أو إدعاء العلية للوجود فى مجموعه وهو منطق الفطرة . منطق القلب منطق البصيرة الخ . وتلك الحقيقة تشع بأضوائها المتسامية على العقل والحس متوحدة كادراك مطلق يشملهما فى نشاطه الواسع على أنها وإن كانت فى ذاتها خفية الكنه عما يدركه الحس معا ، فإنها تلهم الكائنات المدركة بالعقل أو بالغريزة شعوراً فطريا يشع من أضوائها ونورها يدل عليها لأنها (تلك الحقيقة) مصدر حياة الكل وملهمة كل كائن حى والسبيل إلى منافسة مايصلحه وما يقربه إليها أيضاً فتنسجم بصائرنا وإدراكاتنا العقلية الحسية جميعا مع نظامها الإدراكى الأعلى الذى يبدو فى آثار أفعالها ومبدعاتها فى آثارها .

وبذا نفهم جيدا أن من الحقائق الواقعة فى حدود الوجود ومعالمه أو خلف مكوناته مظاهره وخلف المعقول والمحسوس فى نسبيتهما مالا يعلمه إلا الله أو يؤتى بعضه من يشاء من عباده كرسله وأنبيائه وأوليائه وأولى الألباب من خلقه وفى المعرفة الصحيحة لا ينكر المعقول لوجود المحس ولا المحس لوجود المعقول على أن يعرف العارفون أيضا أن وراء المحس والمعقول عوالم أوسع ومعارف أوفى بما فى الحس وفى العقل معاً ولينظر القارىء إلى قول الله مثلا (لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) وقوله تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وفى الحديث يصف الرسول صلى الله عليه وسلم العالم الأعلى الكائن وراء هذا العالم الأدنى بقوله (وهنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت

ولاخطر على قلب بشر) وفى نتيجة هذا المقام يقول الله عز وجل « وفوق كل ذى علم عليم » ومثل هذا الكلام العلى الجليل يقوم كصخرة مما وراء العقل والنقل وما فوقهما من حجب مسببة للتناقض بين المادية والمثالية تلك الصخرة التى ارتطمت بها رءوس الفلاسفة الماديين والواقعيين والحسيين قديما وحديثا ومعهم المثاليون والعقليون والتصوريون أيضاً خلال الأجيال كلها ولاسيما فى عصورنا الحديثة وذلك أن إنكار المذهب العقلى لوجود المحسات يؤدى حتما إلى الإنكار الصارخ لوجود الواقع فى العالم الخارجى ، وهو نفسه ماجعل المذهب المادى ينكر وجود العالم العقلى مع أنه موجود بالفعل وبه يختل إدراك نتائج الأشياء ومدلولاتها بحس مشترك بين المعقول والمحس وتكون النتيجة صفرا فى الصواب . ووهما فى المعرفة .

وذلك بالنسبة لقاعدتى المذهبين معاً المذهب الحسى الذى يقول أهله أن ليس فى مستقر العقل وتفكيره سوى صور الأشيا. الخارجية فى عالم الأشياء ، وهذا فى مقابل أن العقليين يقولون ليس فى عالم الأشياء الخارجية سوى التصورات العقلية كما قدمنا مرارا . . فإن أنت تابعت هذا المنطق واحسب العدد ترى أن المذهب المادى ومعه المذهب الواقعى ينفيان وجود المذهبين المثالى والعقلى ، وكلا الرأيين ينتجان شكا مطلقا فيهما.

وأما نحن فنقول لهم بدورنا : إن العقل والشىء ليسا سوى إدراكين نسبيين : والإدراك العقلى موجود على أن مداركه نسبية ، والإدراك الحسى موجود أيضاً على أن مداركه محدودة بحدود مايحس ويلمس فيدرك بالحواس فهى نسبية أيضاً .

وما العقل والشىء فى حقيقتهما سوى حالتين عابرتين من حالات الوجود وحوادثه الكثيرة وهما متضايفان متقابلان متكاملتان ، وفى تضايفهما

وتقابلهما الدليل القاطع المانع على قصورهما عن العلية معا وتكون العلية المطلقة لكائن أشمل وأكمل منهما ، ويتوحدان فى إطلاقه كما قررنا ذلك فى كتاب الوجود المطبوع بمصر والمترجم إلى بعض اللغات الأجنبية ، لأن العلة المطلقة يجب أن تكون متوحدة فى إطلاقها لا اثنينية فيها ولا تعدد ، ويكون لها الكمال المطلق دون قصور أو تحديد ذلك الكمال الذى لا يقابله مقابل فى كل كائنات الوجود ، وتلك هى (ذات الله) كما قررنا مرارا ويكون إدراكنا لمعقولاتنا الذاتية ، واحساسنا بالعالم الخارجى إدراكيين واحساسيين نسبيين لسعة معلوم تلك الحقيقة كما تقدم ، ويكون لها بهذا وذاك الوعى المطلق الذى يحوى فى شموله أيضاً مانسميه التعقل والإحساس الإدراكيين .

وفى الحق إن احساسنا بالعالم الخارجى وشعورنا بعالمنا الداخلى الذاتى (العقلى) نزعتان متجاوبتان ومتناغمتان مع ذلك الإدراك الالهى المطلق البادى فيها فيما ندرك ونحس من كائنات وما لا ندرك ولا نحس من حقائق ذاتية أو غيبية فى عالم الذات الوجودى والنفسى سيان .

ولا شك أن الخبرة الحاصلة عن التجربة الباطنة فى عالم الذات (الفلسفة وعلم النفس) مفسرة ومتكاملة مع التجربة الخارجية فى عالم الموضوع (العالم العلمى الحسى) فإذا كانت حقائق المحسات الذاتية وأصول المعقولات الإدراكية لا تتناولها حواسنا ولا تدرك منها القليل إلا بعد الجهد الجهيد عقولنا فكيف لا يكون هناك علم أوسع من علومنا ومعرفه فوق إدراكينا الحسى والعقلى معا وطبعاً هذا أمر بديهى لا ينكر .

بل إن ذلك كله يدل دلالة واضحة على أن مداركنا الذاتية العقلية والخارجية الموضوعية إنما تستمد قوامها وقوتها ونورها من ذات أوسع شمولا وأعظم تمكنا فى معنى الوجودية والعلية (هى) الذات الإلهية

المطلقة الوجودة) تستمد من نورها الأقدس القدر من الإدراك الذى يتيح لعقلنا إدراك أولياته العقلية وبداثهه الرياضية .

ومما يحجب العقل ، ويجعل فيه قصورا ذاتيا عن بلوغ معرفة الحقيقة المطلقة معرفة كاملة ، أنه ينصب نفسه مكان العلة الحقيقية أحيانا ويدعى لنفسه الإطلاق والشمول بل والعلية لبقية الكائنات أيضاً وهذا بعنى ادعاء الألوهية من العقل وذلك (كما فى المذهب المثالى والعقلى) كما رأيت حالة أنه يناقض نفسه بنفسه حين يلبس أيضاً مسح المذهب المادى حينا آخر فيدعى أن المادة علة نفسها وعلة كل شىء وبذا تكون علة العقل أيضاً حالة أنه هو هو العقل ، الواحد ، على أن هذا يبدو للعيان تناقضا صارخا يجعل قصور العقل بارزا مشهودا لدى العقل نفسه فضلا عن قصور الحس والمحسات ، وذلك الضرورى المعلوم ثم أين هى المادة فى عصرنا الحاضر ؟ وفى النصف الأخير من القرن العشرين ذلك الوقت الذى حدث فيه الانقلاب العلمى الهائل فى علوم الطبيعة التى بعد أن كانت علوما طبيعية مادية أصبحت علوما طبيعية ذرية ، وناهيك بهذا لأنه يدلك على أن الذرات بل الذريرات الكهربية والضوئية والإشعاعية الخ قد أطاحت بكيان الكتلة المادية بأسرها إطاحة لا رجعة بعدها ، بل أن العلم اليوم بسائر قضاياه ونظرياته قد أصبح فى أدمغة العلماء كما رياضيا احتماليا لا أكثر ولا أقل ثم هل غاب عن العقل ياترى أنه حين يؤله المادة يدخل هو ضمن هذا الشمول أيضاً كمعلول لها ، وهل غاب عن الحسيين حين ينفون الإدراك العقلى أنهم ينفون الجوهر العقلى الذى يدركون به مادون العقل من شىء .

* * *

النتيجة الثانية :

إن تلك الحقيقة العلية الروحية المطلقة تهيمن كمبدأ عام على سائر

مناهجنا للبحث سواء كانت حسية أو عقلية أو بصيرية قلبية، ثم تسيطر من وجه آخر باقتدارها المقدم على القوة الطبيعية بالتنظيم والتقنين لها، ذلك لأن تلك القدرة العليا المطلقة كل قوة الأعيان الوجودية مادية كانت أو روحية ومنها القوة الطبيعية ضرورة تلك التى تستق طاقتها من هذا النشاط الإلهى العظيم المقتدر البازغ عن قدرة الله ولذا فهى تعمل دائمة (قدرة الله) باقتدارها الرفيع ونشاطها الروحى الخفى تكمن دائما خلف حركات الكائنات الظاهرة والباطنة جميعاً، وتظل (فى ذاتهـا) دائما محجبة ومنزهة عن العقل والحس، وما حجابها سوى مظاهر بقية نشاط خصائصها الإلهية التى تحرك بها سائر الكائنات تكوينا وفاعلية وصيرورة من وراء ستار الكائنات، فتكمن فاعليتها الإلهية خلف أطياف سائر الصور والمظاهر الكونية وتكون فى (عالم الذات) كأفكار عقلية مبصرة ثم تكون فى (عالم الموضوع الكونى) كطاقة وحركة، سرعة، أو علل ثانوية وقوانين عامة، كما أنها بوجه آخر أدق وأعلى (العلة الأول) تمد [1] سائر خلايا الكائنات الحياة تحت اسم مستقل هو الحياة فتقوم أعضاءها وتحدد وظائفها نباتات كانت أو حيوانات، وفى الإنسان وهو العالم الأصغر فى مقابل العالم الأكبر وهو أرفع الكائنات الحية درجة تسمى (روحاً أو نفسا) وبذا تكون الحياة هى العامل المسيطر الخفى فى سائر أجهزة الكائن الحى، بيد أنها ليست جزءا منه، أى من خلاياه أو أعصابه أو أعضائه كلها لأنها لو فارقته جملة تتركه كما ميتا لا حياة فيه، ومثل ذلك: لو أخذنا خلية حية، وعزلناها عن بيئتها الحيوية لتحليلها والبحث عن الحياة فيها، ثم أعدنا تركيبها تعود خلية تماما بكل مكوناتها ولكنها خلية

---

(١) والانسـان وأنفعاله بين التفكير والفعل من أبدع المثل ذلك فان الاعمال الجليلة والبسيطة من أفعال الانسان تحتوى على فكر وتصميم فالتفكير أمـر ذاتى فى النفس والتصميم أمـر خارجى يبرز ضرورة من عالم القوة الى عالم العقل كتفكير المهندس فى تصميم بنـاء ما ثم تنفيذه بالفعل فى عالم الواقع .

ميتة [1] لا حياة فيها .

النتيجة الثالثة :

والنتيجة الثالثة المترتبة على النتيجتين السابقتين هى : أننا لو اردنا ان نتعرف إلى حقائق هذا الوجود فى صيغته المطلقة ، معرفة أشمل مما نعرف ونعلم بالعقل والحس ، ومما نعتنق من مذاهب فلسفية ، مابين مثالية أو عقلية ، ومادية أو واقعية أو شكية وكذلك كل ما حصلنا عليه من خبرة علمية .

---

(١) ان الحياة يبدأ وجودها بخلية حية واحدة تمتص بقوة الحياة غذاءها واستمرار كينونتها مما حولها من معادن الأرض ففى الخلية الأولى روح وجسد : روح تفعل وتنمى وجسد ينمو وينفعل فتنقسم الخلية الواحدة الى اثنتين ثم الى أربع ثم الى ثمان وهكذا . وتتنوع الخلية فبعضها يكون حيوانا والبعض الآخرى يكون نباتا والحيوان يبدأ من الأميبا والبروتوبلازما والبروتوزوا الخ .. حتى ينتهى الكائن الأكمل فى الحيوان ذى العقل والادراك والبصيرة وهو الانسان .

والمادة التى تستخدمها الحياة بدورها كذلك من حيث تتكون هباءاتها الأولى من ذرات ، ولكل ذرة نواة يدور حولها كهرب واحد أو كهارب متعددة تدور وتسقط وتثب فى فضاء الذرة فأصلها الطاقة النووية أو قل الكهربية .

وكان الرأى المعروف فيما سبق أن المادة لا تتلاشى ولا تفنى ، وأما الآن فانها تتلاشى فى النور بالاشعاع أى الى الطاقة التى تكونت عنها . فأول سديميات فى الوجود الكونى تكونت من نواة واحدة (بريتون) وكهيرب واحد (الكترون) وهو عنصر الأيدروجين كما بينا فى صلب المعرفة العظمى كذلك فان الخلية النباتية والحيوانية ناشئتان عن قوة روحية حيوية متعاونة مع الذرات المادية لتكوين الكائنات من جماد أو نبات أو حيوان .

أريد أن أقول : أنه لا يكفى فى تلك المعرفة الشاملة التى يجب على الباحث تحصيلها ، لا يكفى فى ذلك مجرد ماوصلنا إليه من الخبرة الحسية الموضوعية وحدها بالعلم أو بالفلسفة لارتباط ذلك بالأوضاع والعلائق والحدود والكيفيات والكميات ، والأحياز الزمانية والمكانية المفروضة وكلها فروض إمكانية احتمالية كونها الإحساس بها فى خارج الذات من شىء أو قل إنها كلها خصائص وأوضاع لكائنات عابرة غير مستقرة تظهر لحواسنا على غير حقيقتها ولا يكفى فى ذلك أيضا مجرد منطقتنا العقلى والحسى بحالتيهما الاستقرائية أو الاستنتاجية فقط دون الاستشراف إلى عالم الوعى الأعلى والبصيرة القلبية وذلك لمحدودية العقل ضمن نطاق منطقه العقلى المحدود بالتردد ذلك الذى يجمع بين اليقين والشك وأن الحس بذلك أولى لأن من معطياتها (النتائج الحسية والعقلية) الحق والسفسطة فى وقت واحد ، وقد جمعا بين تناقش المثالية للمادية ، والمادية للمثالية ولسطوح النظريات العلمية أيضا ثم دعوى كل زاعما أنه هو الحق وحده ونقيضه هو الباطل ، وكل منهما يحتفظ بحجج من الناحيتين مرتكزة على المنطق العقلى وهو الأمر الذى يفضى إلى الشك المطلق ، أو يدينهما العقل نفسه فى الاثنينية فيجعل من العلتين المزعومتين علة واحدة .

وقد جرب العلماء والفلاسفة كل ذلك بالخبرتين ، العقلية والحسية ، فاختلفوا وإلى هنا يحسن من باب إحقاق الحق والترفيه عن القلب أن نورد نكتة بارعة لسقراط هى : أنه اختلف اثنان من الفلاسفة فى قضية تتعلق بالفرق بين العقل والشىء وزاد خلافهما لدرجة الاحتدام وفى هذه الحالة رأيا سقراط يمر فى الطريق فحكماه بينهما وكان كل منهما محتدما تعصبا لرأيه فسردا عليه الرأى من الجانبين قائلين ما رأيك يا سقراط ؟ وعند من منا يكون الحق ؟ فقال سقراط : لا حق بينكما قالا ولم ؟ قال : لأنى بينما أسير إليكما رأيت الحق يتركما ويذهب، فعللت ذلك بأن لا خلاف قط على حق متوحد فى نفسه . وهكذا تظل الحقيقة المطلقة هى هى مستبطنة خلف أوليات

العقل ومدركاته : ومظاهر الحس وأطياف أشيائه مهما اختلف الناس كما يستبطن العقل نفسه وراء المدركات الحسية تماما ، وخلف ظواهر جسده أيضا باحثا (عن الشيء فى ذاته) (١) .

بيد أننا لو أردنا معرفة كاملة شاملة للوجود فى شموله : يجب أن نهدف بسائر مافى شخصيتنا الإنسانية فى كفايات(٢) صوب الحقائق الوجودية

---

(١) ان الشيء فى ذاتــه المبحوث عنــه قــد بينــاه فى الصلب وفى هامش ٢٥ .

(٢) الكفايات للمعرفة ثلاث : كفاية الحس ، وكفاية العقل ، وكفاية البصيرة أو الذوق الفطرى · ويبنى العلماء على مشاهداتهم الخاصة التى أغلبهــا حسية وبعضها عقلية احكاما قاطعة على أصول الأشياء مع أن العلم نفســه (تجريبى امكانى) وهذا تهجم من بعض العلمــاء ومبالغة فى تقــدير نتائج البحث كأنهــا تحتميــه لامكانيــة ومن ذلك مثلا احكامهم على القوانين الطبيعية وجعلهــا عللا للأشياء مع أن حقيقة القانون التعبير عن تلاقى شيئين اذا حــدث أحدهم حدث الآخر لا حقيقة الفعل أو الانفعال وفى مثل هــذا يقول السير ويليام كروكس رئيس المجمع العلمى الانكليزى (ان ما تسميه قانونا طبيعيا أن معوقى الحقيقة الا وجهــا من وجود الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة » ومثل ذلك اننــا نستطيع أن نعلل حركات الجواهر الفردة المــادية كمــا نعلل حركات الاجرام السماوية ونستطيع بهــذا أن نكتشف القوانين الطبيعية للحــركة ولكننا مع هــذا لا نكون أقرب للعلة عمــا كنا عليــه من العلية والمسألة الوحيدة التى يجب حلهــا هى أى ضرب من ضروب الارادة والفكر موجود خلف تلك الحركات ومجبرا اياها على اتباع طريق مرسوم لهــا من قبل ؟ وما هى العــلة التى تؤثر من وراء تلك القوانين ؟ ويقول الفيلسوف والأديب الفرنسى فلتير « الى متى أعبد العقل وهو يظهر عجزا فاضحا فى التعبير عن ذاته أو عن ادراك ما وراء المنظور من الأشياء والقوانين » ويقول داروين صــاحب مذهب النشوء والتطور المعروف » ما أبعد عبــاد العقل عن الصواب » فانهم يعبــدون الهــا قليل الحيــلة فى ادراك عميقات المسائل =

العلية المستبطنة خلف المظاهر ثم توحيدها فى حقيقتها المطلقة الفرده ويكون ذلك بكل ما وهبنا الله من مواهب وكفايات للإدراك والمعرفة وذلك هو الإدراك الحقيق والتعمل الصحيح والإلهام الفطرى الخالص وتكون آنذاك فى حالة توجد فيها هذه الكفايات متكاملة متكاتفة متعاونة على طلب الإدراك الصحيح فى مجال البحث الفلسفى أو العلمى أو الدينى ليتم لنا إدراك الحقيقة فى أنوار جلالها وجمالها على أن يتوج ذلك كله الهام البصيرة القلبية والذوق الفطرى السليم ومتجهة كلها لمعرفة الحقيقة المنشودة[1] التى لا يهبها الله إلا لمن يشاء من عباده .

= ويقول مستر جلادسون السياسى الانكليزى الشهير « اننى احترم العقل ولكن ليس فوق كل احترام فما هو فى بحر مباحث ما فوق الطبيعة الا قارب صغيرة قد فقد أحد مقذافين فهو كلما أراد السير الى الأمام تقهقر الى الوراء حتى لا يتجاوز حدوده المعقولة واذا كان هذا رأى القوم فى قيمة العقل فمن باب أولى مرات عديدة أن يكون هذا نفسه هو الرأى فى قيمة ادراك الحواس للأشياء أنظر حرف د على هامش المعرفة العظمى .

(١) قدمنا فى رقم ٢٧ من هذا الهامش أن الكفايات بالمعرفة ثلاث بعد ما كانت فى طوال تاريخ الفلسفة اثنين الا من قال منهم بوجود الحدس أو الذوق الفطرى ونحن نقول صراحة باضافة كفاية البصيرة القلبية لان القلب نبع الالهام والعقل معا ، وبهذا وذاك يكون للعلم منطقه الخاص وهو منطق الحواث والخبرة العلمية الحسية أى الادراك الحسى ويكون منطقها الخاص وهم الادراك العقلى وأما المنطق العام للمعرفة فيجب أن يكون منطقا شموليا كاملا والدليل على ذلك ان مخالفة النظر الى الحقائق بالكفايات كلها تكون نتيجة الحتمية أما فلسفة مثالية عقلية أو فلسفة حسية مادية آلية والمذهب الآلى فى الفلسفة لا ينتج سوى الشك النسبى أو المطلق أو الالحاد أو تأليه الطبيعة وكذلك المثالى اذ يشك فى واقعية الأشياء يبالغ فى التجريد العقلى حتى الى اللا ارادية أو الحلول أو الاتحاد .

معطيات لهذه النتائج الثلاث في عالم المعرفة

ومحصول ما يؤخذ من هذه النتائج ، إن إدراكنا الحسي يعتمد في عرفان الوجود الخارجي على الحواس فقط ، والحواس لا تدرك إلا الظاهرات المتغيرة الدائمة الصيرورة والتحول تلك التي لا تستقر على حالة واحدة في زمن واحد او في وضع واحد .

ومن البديهي أن المعرفة الحاصلة عن منطق الحس وحده لا تؤدي إلا إلى مجرد الخبرة بالظواهر الكونية المحسية فقط إن صحت ولم يعتورها الخطأ (خطأ الحواس المشهور) وذلك بدليل إضافة المجاهر والمقربات المساعدة للنظر والنظر أقوى الحواس فما بالك بغيره كالسمع والشم .. الخ .

وكثيرا ما تخطىء الحواس في تقدير تلك الظواهر مع وجود هذه المساعدة[١] .

وكذلك شأن العقل في منطقه المجرد (وإن كان بحالة أقوى ومدى أوسع) لا يؤدي بنتائجه المنطقية العقلية التي رائدها القياس والاستنتاج إلا إلى نتائج وأحكام نسبية ليست مطلقة . وكثيرا ما كانت سبباً في النزاع والجدل بين أهل المذهب الواحد في عالم الفلسفة بحثاً عن العلة ومعلولها — وكذلك في عالم الدين في البحث وعن الفرق بين الوجود الواجب والوجود الممكن ، وبين الذات والصفات ، وبين الحادث والقديم والجبر والاختيار كما يفعل أصحاب علم الكلام وكذلك بين أهل المنهج الواحد في عالم العلم

---

(٢٩) ان الحواس مشهورة الخطأ حتى مع امدادها بالمساعدات الآلية كالمناظير المقربة والمكبرة .

أن نتائج العلم كلها احتمالية متغيرة بسبب ما يجد ويكتشف مع تطور الأزمان .

وتمثل هذا وذاك تنقسم الجماعات الدينية والمذاهب الفلسفية والمناهج العلمية إلى شيع متعددة ومذاهب وفرق مختلفة فى وجهات النظر العقلى والنظر الحسى الكثيرة على أن الحق واحدمن سائر جهاته قصدته ومع هذا فكل فرقة تدعى أحقية رأيها وتستمد سندتلك الأحقية وبرهانها من المنطق العقلى نفسه أو من منطق الحس وإن اختلفت وجهات النظر الواحدبالنسبة لما فى كل منها من الحق أو الباطل ، وسواء كانت المقدمات المنطقية التى يبنون عليها نتائجهم صالحة أو فاسدة محقة أو مسفسطة .

وذلك كله يؤكد أنه يجب أن يدعم علم المعرفة الحديث على كفاية هى أعلى الكفايات وارفعها يضمها إلى كفايتيه المعروفتين فى عالم الفلسفة كفاية العقل وكفاية الحس وهى كفاية البصيرة (عين القلب) أو ما يسمى اصطلاحا فى عالم الفلسفة .الذوق الفطرى ، ليحكم بذلك على الأقل بين الرأى المادى والرأى العقلى(١) .

لأن أسلوب الفكر الفلسفى الصحيح فى المحيط الفلسفى العام يجب أن يكون متوحد الأهداف والنتائج فى النظرة العامة لحقيقة الوجود مطلقا وإن اختلفت المناهج ، وذلك يوجب أن يكون البحث خالصا فى تطلب الحقيقة بغية الوصول إليها شاملة كاملة خصوصا وأن العقل — عقلنا — جبل على أن يطلب الحقيقة متوحدة على قاعدة(أن الحق دائما واحد)

---

(١) ويكون الحل الوحيد لمعرفة عامة كاملة ليس استعمال كفاية واحدة كالحس أو استعمال كفايتين كالحس والعقل ولكن يجب استعمال الكفايات كلها لنوال المعرفة الصحيحة : الحس والعقل وبصيرة القلب .

ولا تتم ألفته العقلية عند نفسه وتجاه الحق إلا بعدم تناقضه مع طلب المعرفة الشاملة الكاملة التي تهدف إلى حقيقة متوحدة الوجود وذلك يكون في سائر مناهجه العقلية والحسية والروحية جميعا ، وأيضا في عالم القيم والأخلاق ، وعالم العلم في بحوثه لاسيما وأن العلم الطبيعي في عصرنا الحاضر صائر حتما في نتائج أبحاثه العليا إلى التوحد ، لينال معرفة شمولية تجمع سائر ضروب نتائج العلوم الجزئية في محيطها الواسع (وهي فلسفة العلوم) وكذلك الدين في معناه المطلق ، فانه متوحد ضرورة من جهة أغراضه العليا وإن تعددت رسله أو تعددت نتائجه الخلقية أو معلوماته الروحية وذلك التعدد يكون بسبب تطور العقل وتطور الإنسان خلال الأزمان وإذا كان هذا هكذا ، فقد ظهر لناولقارىء حلقات موسوعتنا أن المادة والقوة والفكر، والحياة بل كل الكائنات في مجموعها بسائر ما طبعت عليه من طبائع وقوانين وخصائص كلها حالات وظاهرات عابرة للوجود وهي متفاوتة النسب والأوضاع وكذلك في الكميات والكيفيات والعلائق ، وتوصلها جميعا حقيقة واحدة مستبطنة خلف ستار الوجود الإمكاني الظاهر للعيان باعتبار أنها هي علة الجميع المطلقة ، فتظهر بنشاطها حينا كقوة طبيعية ولها طاقة تدل على علة قادرة خفية وحينا تظهر آخر يظهر نشاطها كادراك مطلق ينظم النسب والأوضاع في الكائنات ويقنن قوانينها وكذلك يضع الألفة والتنافر في الكائنات عقلية كانت أو حسية لحكمة ظاهرة أو خفية وحينا تظهر (تلك القدرة الفائقة) بمظهر الحياة المنظورة في ملايين الملايين من خلايا الكائن الحي فتأمر وتنهى ، وتدبر وتنظم وتريد وتحي وتميت كحياة له وفيه تقاربه في اليقظة وتتخلف عنه قليلا في النوم ، وتفارقه مفارقة لعودة عند الموت .

ويكون بزوغ الحياة الروحية والقوة الطبيعية معا عن تلك الحقيقة الكبرى متضامنين بطريقة تكون مثلثا وتكون قاعدته الطبيعة ويلتقي ضلعاه في رأس المثلث كنقطة عليا للنبع أو قل الحقيقة المطلقة لكل فاعلية

روحية أو حيوية أو طبيعية تصدر عن عالم الغيب بل كل نشاط يبدو فى المخلوقات جميعا وبعبارة أخرى تكون هذه النقطة هى المصدر بمعنى أنها هى النشاط الأول للسبب الأعلى وعلة العلل تصدر كصفة ثابتة لتلك العلة الأولى فتتوحد بذلك (القوة والحياة) فى فاعليتهما وتكون قاعدة المثلث هى الطبيعة بما فيها من كائنات (الجماد والنبات والحيوان) والانسان .

الحقيقة المطلقة

وعن النور الحيوى فى الضلع الأيمن بزغت الحياة والإدراكين العقلى والحسى ثم النفس باعتبارها نقطة الاتصال بين الروح والجسد.

فمن النور الذرى فى الضلع الأيسر بزغت القوة والطاقة والحركة والسرعة والعناصر ثم التشىء المادى .

والنقطة الأولى فى خط القاعدة من اليمين يبدأ الجماد عن الطاقة وهو لا يخلو من حياة من حيث أن حياته بالطاقة الذرية الكهربية ويتوسط القاعدة النبات فالحيوان حتى يتصل بالإنسان ومن الإنسان وفى النقطة النهائية من خط القاعدة تتصل الطبيعة بالحياة والمادية بالروحية وسبحان الخالق المبدع المصور .

الحقيقة والطبيعة

وإذن فما الذى يمنع ياترى بعد كل ما تبيناه وقدمناه من الحقائق الدامغة فى بحثنا المتقدم من أن تكون هذه الكائنات فى مجموعها مجرد آثار لنشاط

علة واحدة أولى وسبب متوحد اعلى يسمو فى ذاته وفى وجوده وفى خصائصه عن كل ماندرك بالعقل أو بالحس وأيضاً عن الحلول فى كل ما نرى وتعقل أو الاتصال المباشر (الاتحاد) بكل مايوجد من آثار للحياة وللإدراك وللطاقة وللشيئية الطبيعية جميعا ، بيد أن تلك الحقيقة فى الوقت نفسه هى السبب العلى الأول (الله) بخصائصها وإفعال خصائصها ونشاط تلك الأفعال الذى عن نشاط خصائصه تصدر جميع الكائنات كآثار لنشاط تلك الخصائص المكونة لسائر الأشياء والذرات ، ووجودها سابق على وجود الكائنات جميعا ، وتكون الكائنات كلها مجرد فاعلية مطلقة أونشاط أو طاقة حيوية أو ذرية تبدو فى الظواهر المحدودة حينا ، وتختفى وراء القوانين والأشياء النسبية حيناً آخر ، وتكون تلك القوى جميعا (من حيوية وإدراكية وطبيعية واقعية) هى التى تطور الكائنات مجازا أوظاهريا بطاقة فعالة منها اكتسبتها عن علتها الأولى فتنشاع فتركب المنظور من غير المنظور وبالعكس ، فتحمل حواس الإنسان أطياف الشىء المدرك بالحس إلى ذهن الكائن المفكر المدرك بالعقل فيفكر فى الأسباب والنتائج أوبعبارة أخرى أوجز وأصرح . لماذا لاتكون تلك العلة أوالحقيقة الإلهية المطلقة هى نفسها الموجود الأول الأزلى الأبدى المنظم باقتدار نشاط خصائصه للقوة الطبيعية وقوانينها فضلا عن أنه هو مبدعها وصانعها وللحياه فى تصرفاتها باعتبار أنها نفحة من روحه وهو المبرز لشيئية الأشياء فى أصولها ومظاهرها ويكون هو أيضاً العلة التى تمد عالم الفكر بما ينتجه من أفكار ، وتكون جميعها (الحياة والفكر والشىء) حالات عابرة متكاملة من نشاط خصائص السبب الأول (واجب الوجود) (الله)من له الخصائص الثابتة الدائمة

ولماذا لا تكون تلك الحقيقة العلية الإلهية نفسها هى التى تنبض باشعاع روحى من نورها يتجلى فى ذواتنا كاضواء روحية حيوية وأقباس من نورها

فتجعل فينا ومنا حياة تتناسب مع حياتها ، وعقلا يتناغم مع فكرها المطلق وعلمها الأعلى وتدبيرها الأوفى ، بحيث لا تكون حياتنا وعقولنا وسائر ما فى ذواتنا من إدراك ووجدانات جميعا بجانب نعوت تلك الذات الكاملة والعلة الالهية الأولى سوى ومضات خاطفة أو أضواء باهتة مستمدة من نورها الالهى الأول . فتتلقى شخصياتنا عنها جميع كفاياتنا للمعرفة — من احساس وإدراك ووجدان وبصيرة عطاء منها — ثم تنعكس فى ذواتنا كخبرة شخصية وعلم ومعرفة فى مقابل أن الكائنات المعقولة والمحسة كمعقولات لنا نتلقى بوعينا طاقتها وحركاتها . كما تتلقى سائر الأعمدة المستقطبة والموصلات الكهربية والاشعاعية من سائر الأنحاء والاتجاهات — الطاقة المشعة مما يظهر من ذلك فى الرادار والراديو ، التليفزيون والسينما فهى موجات نورية غير مرئية تتلقاها نقط استقطاب مرئية ومسموعة ومعقولة فما يمنع مع كل ذلك يا ترى أن نتلقى نحن بوجداننا أسرار العزة الالهية ولدينا فى عالم الخبرة الطبيعية والخبرة العقلية والنفسية أمثال كثيرة ومتعددة نفهم بها ذلك من حيث اننا ندرك طاقة غير منظورة تحرك حركة وسرعة منظورتين أو غير منظورتين أيضا ، وإننا أيضا نفكر فكرة ما فى أمر ما فنرى أعضاءنا وجوارحنا تنتقل فتتحرك متجهة إلى ما تقتضيه تلك الفكرة ،

وما الذى يمنع أيضا يا ترى وقد ظهر لنا فى عالم الفلسفة وسائر عصورها قصور الادراكين العقلى والحسى بذاتهما وبكفايتهما معاً عن تعليل الحقيقة المطلقة ؟ بل وعن تعليل وجود الشىء والفكر فى ذاتيهما ، تعليلا كاملا سليما مع ادعاء المثاليين إن الفكر هو العلة لوجود نفسه ولوجود الأشياء وادعاء الماديين والواقعيين أيضا إن لا علة للأشياء وراء الأشياء وإن الأشياء علة وجود نفسها وعلة وجود العقل أيضا ، وكان تلك العلية مطلقة ولا علة وراءها يهبونها دون حساب من عند أنفسهم لعقلنا القاصر المحدود المخلوق والذى يحوى فى جعبة منطقه المتوحد اليقين والشك معا ، والكائن الذى يشك فى نفسه مرة ويوقن أخرى ما أجدره بالقصور الذاتى .

أو يجبونها لأقل من العقل قيمة ووضعا وهى المادة وهى كائن متكتل وذلك الكائن ما يطلق عليه طبق الكتلة المادية ، التى يكونها ويحركها قوتان هما الجذب والدفع ، فان اختلقت النسبة اللازمة اوضعهما انحل الشيء المادى إلى عناصره الأولى ، ثم الى الاشعاعات التى كان طيفا بارزا لها ومعنى هذا ان العقل والحس لا يدركان الشيء فى ذاته وإنما يدركان أطياف لكائن غيره أدق وجودا وأخفى هو (الطاقة) السريعة التحول .

أقول : ما الذى يمنع مع عجزهما عن البلوغ الى الحقيقة وقد أصبح هذا العجز والتهافت ظاهراً ظهور الشمس للمادة وللفكر معا عن أن يكون مجرد حالتين من حالات الوجود فهما يعجزان ضرورة عن العلية لنفسيهما أو لغيرهما بل عن إدراك الحقيقة المطلقة فى آفاقها المتسامية وكذلك شأن ما حول العقل والحس من فلسفة مادية ومثالية فى تعليل الوجود وعلته ، قد اتضح أنهما فى كيانهما (العقل والشيء) ليسا بأكثر من حالتين متغايرتين متكاملتين ومتضايفتين مما يدل على القصور الذاتى لكل منهما وإنهما من جملة حالات الوجود المتعددة العابرة تلك التى تنزع جميعها الى التطور والتسامى بواسطة قانون الترقى العام الجامع الشامل لهما ولغيرهما وما الذى يمنع أيضا أن تكون القوة والحياة حالتين اخريين متلازمتين متكاملتين فتمهد القوة للحياة طريقها بتكوين الاشعاع الذرى فالعناصر ، فالمادة ، وتكمل الحياة فعل القوة بالتوالد والنمو ، والتنظيم والتغذى للخلايا ثم التكيف والادراك والتطور ، وبالتطور والترقى الفكرى أو الروحى بعد التطور الطبيعى يرتقى الانسان فى انسانيته أطوارا اخرى تلك الخصائص الانسانية والروحية التى لاينال درك المعرفة والأخلاق والايمان إلا بها .

فما الذى يمنع فى النهاية من أن تكون كل هذه الأنواع والأجناس والخصائص والحالات والعلائق ، والنسب الطبيعية والمعانى الروحية

والتلقائيات الفطرية والبدائه الموجودة فى الكيان الطبيعى وفى الانسان ذلك العالم الصغير وفى العالم الكبير ما بين سمائه وأرضه وظاهره وباطنه — وما الذى يمنع بارى لدى الادراك الانسانى الصحيح الذى يصبو الى المعرفة أن تكون كل هذه الخصائص والصفات — ومعها العقل والمادة — مجرد فاعلية لكائن واحد أعلى وأشمل منها جميعا . وأوسع اطلاقا هو الله ولا يوجد فى ذاته المتمكنة الوجود تغير أو تحول أو تطور لأنه قائم بذاته لذاته دون استمداد من أغياره متوحد فى جوهره وخصائصه وتمتد صفاته الكريمة بفاعليتها الى محيط هذا الوجود الذى نعيش فيه والذى هو مسبب فى وجود عن قدرتها الالهية الفائقة — وبذا ترجع الأسباب كلها اليه وهى فى ذاته منزه عنها ولا صلة بينه وبينها سوى ما يشبه الصلة بين الفعل وفاعله أو بين المفكر ومصممات تفكيره من الافعال وذلك هو الشأن الالهى الخطير العظيم الذى تصبو إليه العلوم والمعارف فى نتائجها العليا وكذلك[1] نسلم به الفلسفة الأصلية (الأم) لا سيما فيما بعد الطبيعة[2] .

---

(١) قد شبهنا اتصال الكائنات بموجدها باتصال أقطار الدائرة ومحيطها بالمركز (ولله المثل الأعلى على كل حال) .

وقلنا ان وجود المركز بالنسبة لوجود بقية الدائرة : أقطارها ومحيطها وجود وجوبى ضرورى لايجاد الدائرة ، فان وجود المركز ووجود الدائرة مفروض حتما . ظهرت فى الخارج أو لم تظهر وأما اذا لم يكن المركز موجودا فلا وجود لأقطار الدائرة ولا لمحيطها لأن الأقطار والمحيط جميعا تتكون من نقاط وجودها يمثل وجود المركز فان انعدم المركز فلا وجود للدائرة .

(٢) ان الفلسفة تنقسم الى مادية وعقلية ثم الى اثنينية وواحدية وفوق ذلك تنقسم أيضا الى فلسفة طبيعية وفلسفة ما بعد طبيعية أو ما فوق طبيعية (وهذا الذى نعنيه فى الصلب) فكأن الفلسفة منها ما هو واقعى مشهور وما هو عينى غير مشهور بالطرائق العلمية أو حتى الطرائق الفلسفية السائدة (أنظر حرف الهاء فى الجزء الثانى على هامش المعرفة العظمى من ص ٣٢ : ٣٣

ويقينا لن تكون تلك الذات العظمى سوى ذات (الاله)القدير الحى العالم المريد الذى توحدت ذاته وتعددت أسماؤه وصفاته ثم تجلت صفاته فى أفعاله ، ثم انعكست أفعاله على صحائف هذه الموجودات كأثر لأفعالها فترقد فى محيط الكائنات قوة ذات طاقة وتعود الطاقة مكونة لاجرام المادة وما يسميه العلم بالطبيعة فى مجموعها وليس هذا فقط بل وأيضا.ذات طاقة حيوية ذات فهم وإدراك ووعى ثم مواليد وأحياء متنوعة ، ما بين جماد ونبات وحيوان

ويؤكد ما نقوله ويدلل عليه : إن كل ما نرى بحواسنا وندرك بعقولنا ونشعر به شعورا تلقائيا فى قرار ذواتنا من صلات للكائنات فى علائقها الكونية ومنافعها وحيويتها وكذلك مافيها من اتساق وترابط ونظام وتوحد فى كل النتائج المتعاونة على سير الوجود الكونى فى نظامه المحكم . فكل ذلك يدلل دلالة واضحة جلية لذوى الوعى الذكى على أن علتها الأولى التى أبدعتها جميعا بمجرد نشاط خصائصها وتدبير حكمتها وتصريف إرادتها علة واحدة ولها اسم متوحد لا يماثله اسم آخر هو (الله جل جلاله وعز سلطانه) وأنت ترى إن كل ما ذكرناه من كائنات وجودية مترابطة العلائق والفاعلية ، ويدلك على فهم ذلك أن القوانين الطبيعية جميعا تعمل متضامنة كأنها وحدة دالة بتوحدها على وحدة ذات مقننها الذى أبدعها جميعا وعلى أن (الذات الالهية) واحدة فى ذاتها ومستقلة فى خصائصها وقد طبعت كائناتها على التوحد لأن مبدعها واحد وإن تعددت فى أنواعها وأجناسها وفصولها وأيضا فى خصائصها فانه يشملها جميعا نظام واحد شامل لا ينكره ذو عقل مفكر ووحدة كلية تجمعها وهذا أيضا مشاهد،وذلك النظام يجعلها جميعا متسقة ومتجاوبة مع سببها الأول فتستمد فعلها من فعله وخصائصها من خصائصه لأنه سببها وعلتها ، وأظن أن كل ذلك يدلك دلالة قاطعة على أن لها جميعا علة إلهية واحدة واعية مدركة تمد سائر كائناتها بفيوض متدافعة من فاعلية

خصائصها الثابتة مثل الحياة والحى ، والإرادة والمريد ، والقدرة والقادر والخلق والخالق والإبداع والمبدع ... الخ تلك الحقائق المتلازمة التى تدل بوصفها وبفقهها على آمر ومأمور ، ومنظم ومنظم وفاعل ومنفعل (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وذلك للاله وصف يقينى عام يتناول جميع الكائنات الحية وغير الحية والمنظورة وغير المنظورة فعل قوة طبيعية تصدر عن قدرة إلهية وطاقة كهربية ذرية كأثر لتلك القدرة ثم حركة وسرعة يدلان على وجود القوة والقوة مضمرة تدل على وجود القدرة والقدرة كلها لله عز وجل وذلك قانون عام ثابت شامل لجميع مافى العالم الطبيعى من قوانين وأشياء .

فلكل هذا وذاك من حقائق كان للعلة الأولى والسبب الأول (الله) الشمول الكامل مع التنزيه والسلطان الأعلى فى هذا الوجود الدائم منه والمتغير .

وهنا وفى ميدان الحقيقة المطلقة يجتمع ضرورة عالم الذات (الفكر والحياة) وعالم الموضوع و(المادية والشيئية) فى نمط واحد ويعملان كوحدة مطلقة تدل بلاشك ولاريب قط على أن مصدرها واحد وأن عز وتسامى ذلك المصدر الواحد المنزه عن الحلول فيها أو الاتحاد بها جميعا .

وليكن مفهوما فهما جيدا أنه لا يصح فى العقول السليمة والأفهام الناضجة وجود معلول بدون علة ، أو أثر بدون مؤثر أوحركة بدون محرك أوقانون بغير مقنن وهذا ما أشرنا إليه فى أول كلامنا ، وأنها لمبادىء أولية وبداته لايسع العقول جميعا رفضها أو التنكر لها ، ولامجال فيها ولا اعتبار لألفاظ جوفاء أو أسماء بلامسميات يبديها الماديون أوالواقعيون أوالطبيعيون الذين لايمتد بصرهم لأكثر من الجو الطبيعى الدنيوى وإن كان له سماؤه وأرضه أو مثل مايقولون به من صدفة أو ضرورة أو طبيعية ... الخ وكله تضييق لسعة الكون الذى لم يعثروا له على حدود لرحمة الله التى هى أوسع من أفهامنا ومن علومنا جميعا ومن معارفنا أيضا — مهما اتسع مداها .

عالم الأشياء الطبيعية

وبهذا وذاك يكون على تقديرنا المتقدم أصل الوجود الالهى كما بينا وهو تقدير يؤيده عالم المعقول الدينى والفلسفى والإحساس العلمى لأنه الحق ، والحق دائما واضح أبلج ولذا أقول ، إن القوة الكونية بسائر حالاتها وطاقتها ســواء كانت ذرية إشعاعية ، أو كهربائية أو مغناطيسية ، أوضوئية أو صوتية أو مادية تكون كلها كعوامل أولية تمهيدية للتكوين والتشيؤ الكونى الطبيعى ودليل ذلك أن الطبيعة وإن وقع عليها الحس فى أدنى صورها فلا يقع عليها فيما وراء تلك الصور من عوامل خفية وخذ ذبذبات الصوت مثلا أو الضوء الخ التى أوجدها جميعا السبب الأعلى باقتداره من مشهود وغير مشهود يدلك ذلك على وجود (الحق) الذى عن فعله صدرت كلها فكون وشيء وحرك وطور وصور قديما عطلق إرادته واقتداره مما يدلك على أنه ليست كلمة الطبيعة وهى كلمة تدل على مجموع الشيء لا أكثر ولا أقل إلا كقولنا حديقة ومدرسة والحديقة والمدرسة ليس لها مسميات واقعات بالفعل وكذلك المادة وهى مجموعة أطياف نورية متكتلة وأيضاً العقل المنطقى المعلوم فانه أيضاً متصل بعقل مطلق أوسع وأدوم وأقدر يستمد منه قوته ونور إدراكه فلاشيء من هذه المخلوقات كلها بعلة أولية لنفسه أو لغيره وأكذب من ذلك وأشد بطلا : أن القول بالصدفة أو بالضرورة وجدت الكائنات .

وليست المـادة فى جملة كتلتها كما هو ثابت فى العلم وظاهر فى التجربة إلا مجرد ظواهر شيئية تكونت عن فاعلية النشاط الذرى[1] والنووى

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الفيلسوف جوستاف ليبون « ان الوجود مفعم بالمجهولات التى لا نراها ولا تقع تحت خبرتنا الحسية وما ذلك الحجاب الذى يحجب عنا الحقيقة سوى نسيج من الاراء الضالة الناقصة التى توجبهـا علينا تقاليد العـلم الرسمى والمشاهدات

فى سبيل نرقيها إلى تلقى الحياة فـكونا (المـادة والحياة) .كنور إلهى كونى روحى أو حيوى وهذا من تلك الـكائنات عود إلى الأصل الإلهى الذى عنه صدرت وبينهما مع ذلك رابطة تـكامل وتلازم ضرورية كما تشهد به الحوادث الـكونية ويشهد العلم الطبيعى بها ، ثم بهذا التضامن والتلازم بين الحياةوالطبيعه والقوانين تـكون وتنشأ الكائنات الحية وغير الحية وتـكون الحياة(١) حينئذ كمبدأ نشاطى حى مطور ومنظم يستمد خصائصه المنظمة من حياة الســـــبب الأول ، والموجود الأعلى (الله)(٢) ويكون الفـكر

= الحسية ، ويقول ادوارد لورا العالم الطبيعى والفيلسوف :
« ان العلم يتألف من نظرات العلمـاء ما بين مصيبـه وخاطئه وان كانت كل نظريات العلم صوابا فقد انتهى العلم من موضوعه ووقف عند حده فكم من حالة تظهر لنا بمظهر الثبوت وهى متحولة النواميس العلمية الا من مخترعات العلماء انفسهم ، فالعلم لا يستطيع وهـذ دحالته أن يكشف لنا عن وجه حقيقة مطلقة ، وكل ما ينتظر منـه أن يخدمنا كقـاعدة للبحث والعمل التطبيقى وأما المـادة فهى فى حقيقتها فمجرد اهتزازات للذرات النووية وأساس وجودها ذرات نووية تتكون منهـا العناصر ولذلك تكلمنـا عنـه كثيرا والمقيـاس الأعظم لتنوع الكائنـات هو السرعة وقوانينهـا المعلومة فى احداث السلب والجذب وغير ذلك .

(١ ، ٢) اذا فرضنا أنه فى البدء وجد نور فى غاية اللطافة (وهذا هو الواقع فى العلم) وان ذلك النور يشع اشعاعا مطلقا الاشعاع الذى يسميه علماء الطبيعة فى عصرنا بالطبيعة الكونية وعن هذه الاشعة الكونية تتولد العناصر بواسطة الوحدات الذرية واذا تصورنا أيضا وجود نور آخر أعلى فى الرتبة هو نور الحيـاة وقـد بزغ النوران متكاتفين متعاونين عن نشاط الخصائص الالهية كالقدرة والارادة والعلم والحياة : لو تصورنا هذا لفهمنا كيف تكونت الكائنات مادة ومعنوية روحية وغير روحية عن خصائص مبدعها الأعظم (انظر حرف « و ») من هامش المعرفة العظمى .

فكرنا[1] ـ كقوة للتأمل تدرك وتوازن مستمدة من ذلك النور الأقدس وتكون وظيفتها فى النظر المنطقى الترجيح والعزل والتأليف والتفسير والحكم بين سائر ما يتداعى على الذهن الإنسانى فى عالم الذات من معان ومدركات عقلية أو حسية على قدر الطاقة العقلية ، وهذه القوة العقلية الادراكية منبعثه عن شعور واع مستبطن فى الذات الإنسانية هو عقلنا الباطن أو الفطرى الذى يستمد قوته من نور الله مباشرة كما يستمد النور الطبيعى نشاطه من قدرته العليا (نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) .

والعقل الباطن طبعا غير العقل المعروف والموجود فى الإنسان كإدراك عقلى ظاهر متصل فى الذهن بإدراكنا الحسى ، ليحكم على نتائج معطيات الإدراك الحسى مع معطيات إدراكنا العقلى نفسه ، وما يتأتى لهما (الإدراكان الحسى والعقلى) عن طريق الخبرتين الذاتيـة والموضوعية[1] وهما قوام العلم من ناحية ، وأساس عالم التفكير الفلسفى بكفايات علم المعرفة من ناحية أخرى وإن هو أيضا إلا مجرد نور إلهى

---

(١) وظيفة العقل فى الوجود محدودة بضروب منطقه وكذلك الحس أما ما فوق العقل وما فوق الحس فهو خاص بالالهام البصيرى القلبى، والالهام نور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده وقد يناله الرجل الساذج الطـاهر القلب ويحرمه الفيلسوف المفـكر الـذى توزع منهجه بين العقل والحس · وفى هذا المعنى يقول العلامه جوستاف لوبون « أن هذا الوجود مفعم بالمجهولات التى لا نراها والحجاب الذى يحجب عنا حقائقها مكون غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى يوهمنا بهـا العلم الرسمى » نظن بدورنا أننـا قـد قدمنـا معنى هـذا القول وهو أن العقل عقلنـا المفكر يستمد قوة ادراكه من بؤرة الذات الانسانية المعبر عنها بالعقل الباطن فالعقل المفكر يعتبر شعاعة معـدة للموازنة والمقايسة تستمد قوتها ومبعثها عن العقل الباطن ، ولذلك جعل اللـه سبحانه وتعـالى موطن التعقل والادراك فى القلب حيث يقول : « لهم قلوب لا يعقلون بهـا » ·

يشع على الخلايا المعدة للتفكير عند استعدادها العصبي فى المخ ومن ناحيه يرجع فى مبعثه إلى عقلنا الباطن ، وتكون أقصى مطالب الشخصية السوية فى الإنسان هى المعرفة الكاملة ، وحلية الشخصية الخلق القويم المتأتى عن معرفة صحيحة وتكون أولى معارف الإنسان وأولاها بالنظر وأسماها غاية (معرفة نفسه ومعرفة خالقه من حيث أن الخالق سبحانه هو الحقيقة المطلقة المؤثرة فى كل شىء ، وهذا هو الأوج الأعلى فى آفاق الفلسفة والدين والعلم جميعا ، فضلا عن أنه وظيفة الإنسان الحقيقية أو العليا فى نظر الله قبل وظائفه الدنيوية[1] .

ويترتب على هذا الاستقراء والاستنتاج السليمين : أن الذات الالهية والعلة الكاملة والحائزة لجميع شرائط العلية ، انما هى ذات الله عز وجل وهو قطعا رب كل شىء ومليكه بل علة الوجود بأسره ويبرر ذلك تمكن تلك الذات الالهية فى الوجودية وفى الفاعلية الايجابية بالحالة التى يتوقف وجود غيرها من الأكوان الممكنة على وجودها الواجب لأنها وحدها هى الذات الوجوبية وهى الباعثة الأولية للفاعلية دون سواها ، بينما يكون وجود سائر الكائنات الامكانية ومعها الفكر والحياة وشيئية الأشياء أيضا وجودا امكانيا احتماليا بحتا يتوقف وجوده على وجود سببه الأول وعلته الأصلية ، وبهذا يستوى فى وجود الكون الامكانى احتمال الوجود وعدمه . وأيضا كل مايواكب هذا الوجود الامكانى الاحتمالى من قوه وطاقة ونشاط كلها فى الواقع آثار لفاعلية واجب الوجود وعلة العلل وهو الله عز وجل ، لاسيما وأن القوة الطبيعية لا تنظم نفسها ولا تقرر ايجادفاعليتها بنفسها لأنها قوة عمياء ولابد لها فى كل أطوارها

---

(١) وفى قول الله تعالى « انا عرضنا الأمانة « الى قوله » وحملها الانسان » اشارة الى ذلك وفى قوله أيضا « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » أى يعرفون وذلك رأى ابن عباس وتبعه فيه جم من المفسرين .

من منظم كالقوانين مثلا وموجه كعلتها الأولى ، ولا بد للقوانين من مقنن طبعا ، والمقنن هنا هو الخصائص الالهية العلية التى كانت أزلا موجوده كخصائص للذات الالهى الأعظم بسائر نشاطها الالهى وجوداذاتيا سابقا على وجود الأكوان جميعا .ووجود الزمان والمكان الاعتباريين المفروضين كنقاط تقديرية لعبور الكائنات من نقطة مفروضة السرعة الى نقطة أخرى مفروضة ، ومن آن زمانى الى آن زمانى آخر مفروض ، ويكون الزمان ومعه المكان بمجرد رتب اعتبارية لتطور الكائنات من مبدئها الأول الى غايتها النهائية ، المنشودة للوجود بأسره .

أقول : إن هذا النشاط الالهى ، أى نشاط الخصائص الالهية الأولى ، يتخذ من مجموع الكائنات والحوادث محيطا ومسرحا لأفاعيله العجيبة ، ولتصرفاته الارادية الالهية المدهشة وهو رابض دائما وراءها كعلة قريبة لها وأما حقيقته فانها السر الالهى الأزلى فى الأشياء وهى حقيقة (الشىء فى ذاته) ذلك السر الذى كان يتساءل عنه الفيلسوف المثالى « كانت » الألمانى الكامن خلف مجموع الأشياء الكائنة فى عالم الموضوع والذى كان يسميه كانت الشىء فى ذاته وبذا يكون هذا الكون الذى نعيش فيه بجملته حجابا شفافا يحجب الحقيقة وأحيانا يشف للعقول الباحثة بنسبة درجاتها للمعرفة ويكون أيضا حجابا كثيفا للمتحيزين لنواح محدودة من أهل العلم وأهل الفلسفة جميعا وقد يغيب عن أبصارهم بتاتا ، وذلك متى حدث التحيز مثل تحيز أصحاب المباحث العلمية أو الحسية السطحية المتمسكين بمنطق الحواس ، وكذلك تحيز العقليين والمثاليين خلف منطق العقل المجرد ثم تحيز الفلسفة المادية عموما خلف الكتلة المادية الماثلة لحواسهم ، تلك الظواهر التى لا ثبات ولا استقرار لها .

وهكذا يحجب الكون الامكانى وراء مظاهره وضوضائه وأطيافه الخداعة حقيقته أو قل يخفى أسرار الحقيقة الالهية المطلقة وأنوارها وفاعلية خصائصها الأصلية تلك التى تدفع الكون للظهور بنشاطها المبدع ؛ على أن

الحقيقة برغم ذلك كله تتضوء مشرقة من خلف ما يحجبها من أستار الأشياء لذوى العقول الراجحة والبصائر النيرة والقلوب السليمة والفطر المستقيمة ، جيلا بعد جيل متشيعة بأطوار ترقى العقول والأفكار لتتكشف فى النهاية أستارها وحجبها تدريجيا آونة بعد أخرى : وعليه فلا يمكن أن يسمى الكائن الامكانى المخلوق تلك الحقيقة الالهية الا باسم واحد هو (الله) وهو الاسم الذى تفردت به الحقيقة دون غيرها ، ولا يتخذه غيرها قط الا تضليلا من مشرك أو ضال فى مسألة الفرق بين الكون والمكون

ولتعلمن بدءا وعودة ونهاية : أن الوجود الامكانى فى اطلاقه كم واحد هو الكهرباء بلفظ واحد مفصح عن السر وإن تعددت كيفياته وصوره ومظاهره وله نظام واحد وإن تعددت طرائقه وهكذا عالم الروح أو الحياة نور على نور يصدران بالقوة أو بالفعل عن مبدع واحد لا يثنى ولا يتعدد ولا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء وهو القائم بذاته دون مقوم أو شريك، وفوق هذا وذاك فله سبحانه شئون عدة كونية وحالات نسبية [١] يقتضيها تعدد أفعاله ونشاط خصائصه تلك التى إن هى أيضاً الا مجرد صفات لحقيقة متوحدة فى ذاتها وإن تعددت خصائصها أو تعدد نشاط تلك الخصائص أو تعددت أيضا مظاهر ذلك النشاط الصادر عن خصائصها،والنتيجة أن من الله تعالى بدء الوجود وإليه منتهاه ، وهو خالقه وربه ، ومربيه ، وقد عبد بالعقول والأفكار والقلوب قديما فى قمم الجبال وبين رحاب المعابد عبادة خفية بالروح والقلب والفكر وذلك كان بمقتضى الفطرة قبل نشوء الأساطير والرموز والأصنام وقبل ظهور الكهانة والسدانة أيضا وكذلك قبل نشوء الفلسفات والعلوم والمعارف المنحرفة أو المستقيمة وهذا الهدى الالهى كان فى أقدم الأمم والشعوب موجودا ، ولكن ميل الفكر للشك والتكييف

---

(١) الشئون والحالات : فاعلية تغاير المحول لها وصاحب الشأن فيها ولا اتصال لها به الا اتصال ارادة لمريد تستلزم امرا مرادا وشانا من الشئون ٠

والأخذ والرد أيضاً وثورة الحواس المسببة لرغبة الانسان فى التجسيم وتطلب دراسة لماهية المعبود ، كل هذه الأسباب جعلت بعض أبناء الانسانية يتخيلون و يتصورون معبودهم فى أشكال عدة محسة وغير محسة يحددها تقديرهم الخاص (عقليا كان ذلك التقدير أو حسيا) على أن وجود المعبود الحق وجود غيبي مطلق غير متحيز ولا متكيف بكيفية ما لعلو ذاته وتساميها عن كل متحيز وكل متكيف كيف لا وهو موجود قبل الأحياز والكيفيات والأزمة والأمكنة ثم أن الفكر الذى يبحث الانسان به نسبى له لأنه مخلوق ومحدود وإن كان أكثر الموجودات اطلاقا وسعة ومع ذلك ظل الانسان يتهافت حول نور تلك الحقيقة تهافت الفراش حول المصباح بعقله وحواسه فقط دون البصيرة النفاذة الموصلة اللهم إلا عند بعض الالهيين رجال التصوف الخالص ، من رجال الفلسفة المستقيمة والحكمة اللونية أو كسقراط مثلا الذى كان ملهما وغيره من الحكماء .

وقد أجابت الحقيقة الفكر الانسانى عن نفسها وإنها فوق تقدير العقل والحس بعبارة قدمناها كانت وما زالت منقوشة قديما على هيكل ايزيس بصان الحجر بمصر قبل محمد والمسيح وموسى وابراهيم عليهم الصلاة والسلام بآلاف السنين جملة تعبر بها الحقيقة الالهية عن نفسها .

(أنا هو كل ما كان ، وكل ما سيكون — ومن المحال على من يفنى أن يزيل النقاب عن وجه من لا يفنى) .

وذلك كناية عن أن الكائن المحدود بمجرد تفكيره النسبى لا يعرف الله إلا بنور مطلق مستمد من الله نفسه وذلك النور لا ينقطع ولا يفنى ، وهو نور البصيرة ، وبعبارة أخرى نور الفطرة .

ولما عجز الانسان الباحث بفكره أو بحواسه فقط عن نوال ذلك المطلب فى المعرفة للحق الأعلى ارتد الى التفتيش فى أجواء أشباح الكائنات عن حقيقتها على أن الوصول الى هذا الحق الأقدس ممكن لو كملت كفايات

الانسان للمعرفة الثلاث (الحس والعقل والبصيرة) ، ولما أعي الانسان الكدح وراء طلب الحقيقة بمجرد وضع النظم الذهنية الفلسفية أو العلمية الموضعية فى مجراها وما تؤدى إليه دون المعرفة القلبية البصيرية... لما كان هذا مبلغه من المعرفة اتخذ الرموز والطقوس ، وشيد الهياكل ووضع الأصنام (الحسية أو المعنوية) وابتدع لنفسه قضايا ذهنية تؤله العقل مرة باعتباره علة كل شيء وعلة نفسه وتؤله المادة مرة أخرى باعتبار أنها الكل فى الكل الخالق والمخلوق.. يفعل هذا الانسان مؤملا أن يكسب من وراء هدنة للعقل وأتباعه للحس لعل ذلك يريحه من قريب بدلا من الكد المتتج فى طلب الحقيقة المطلقة ، فابتدع صورا وأساطير ذهنية متناقضة تفضى الى الشك مرة وقد تفضى الى بعض اليقين مرة أخرى.. فلسفات ذهنية يصنعها بنفسه كأمور محسوسة أو بعقله كقضايا معقولة فيصبح الأمر كما يقول (فرنسيس بكون) عن الفلسفات العديدة التى سبقته « إنها مسرحيات يضعها مؤلفها على مسرح الحياة » .

وايضا علم المنطق منذ وضعه أرسطو مع ما أضيف إليه من سفسطة وجدل صار مفسدة للتفكير العقلى بدلا من أن يكون مرشدا له وهو أداة ليس من المحتوم أن تهدى إلى الحق فى ذاته بالحوم كالفراش حول هذا الحق أو قل الحلقة المفرغة أو الدور والتسلسل.. وعليه فكم أضل هذا المنطق العقلى من أقوام وعقول كانت بالفطرة لولا هذا المنطق أقرب إلى لمح الحقيقة لأن كل فرض منطقى يؤتى نتيجته بحسب المفروض فيه ، جدلا أو سفسطة أو تحقيقا . لأن المنطق المصنوع مرة يبحث عن الحق وأخرى يشك فيه أو يقف مسفسطا سندا وراء الباطل ، وما من قوم يكثر بينهم الخلاف والجدل فى المسألة الواحدة إلا وكان المنطق المصنوع وراء هذا الخلاف .

وكم من أناس قبل هذا المنطق وبعده كانت تتضح لهم الحقيقة تجليا

وتعرفا إلى قلوبهم وبصائرهم النقية النفاذة ، دون أن يعرفوا من فروض المنطق الأرسطى ومقدماته وقضاياه شيئاً؛ على أن العقل السليم العارف بقصوره كان يلجأ إلى تصحيح منطقه بقبس من نور قلبه وفطرته السليمة ، لاسيما وأن المعارف مغروسة فى الأصل فطره من الله — والتلقين والدرس والتعليم أمور إذا أضيفت إلى مافى الفطرة من لمح تلقائى للعرفان تفيد المعقولات والمعلومات وتثبتها وتوسعها لأنها أصلا كلها جاءت عن هذا النبع (نبع الإلهام) قبل الكتب والعلوم وليس الأمر كما تقول فلسفة «لوك» الانكليزى من أن المعلومات مجرد صور للأشياء طبعت فى أذهاننا ولو صح هذا لتعددت هذه المعرفة لتعدد الصور المادية التى لابد أن تقف عند نهاية لدى المخ الذى يدركها ويدرك غيرها من المعانى الخفية. فلا يزداد محصول العلم ولا تتطور معارف العقل ولكن القلوب الإنسانية الواعية تمثل مرايا معنوية ينعكس ما فى بعضها على البعض الآخر من نور روحى يتجدد ولا يتناهى فضلا عن مدركات الحس، حيث أن مصدر ذلك علم الله ونور الروح وقد خلقها الله فى النفس تلقائيا عن طريق الإلهام أو التفكير أو عن طريق التعليم سواسية والحقيقة الواقعة أنه قبل الكتب والمعلمين والمؤلفات والمؤلفين وقبل إنشاء النقل بالخط كانت النفوس موجودة ، وكانت لها معارفها بحسب درجاتها من جهة التخلف والترقى والاستعداد لغزارة الإلهام وعدمه ، ودليلنا على أن العلم يؤتى قبل أن يعلم وجود علوم الأنبياء ثم الأولياء ثم الحكماء من أمثال محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الأمى الذى لم يعلمه إلا الله ثم خاطبه قائلا « وقل رب زدنى علما » وكذلك المسيح الذى أنطقه الله فى المهد بالعلوم والحكم ونبى الله إدريس الذى علم المصريين القدماء أغلب العلوم والفنون والمعارف فأسموه (مثلث الحكمة) كل ذلك حدث بينما كان العالم كله متأخرا فى سلم الرقى وذلك قبل ميلاد المسيح بـ ٥٠٠٠ سنة تقريبا فما الذى علم إدريس الطب والفلك والزراعة والهندسة والخط أيضا ؟ . والجواب يكون قد علمه الذى علم آدم الأسماء كلها ، على أن لا أسماء دون مسميات، ولا مسميات دون معان تدل على أعيانها وخصائصها ، ومن أمثال ذلك قول سقراط الذى قال

« إنى لا اعلم سوى إنى لا أعلم وإنما يأتيني من يعلمني فى ذاتى ومن ذاتى » ولهذا سمى اليونانيون الالهام الروحى الذى يأتيه بشيطان «سقراط» كلما احتاج إلى العلم أتاه» وهكذا حينما يضع الإنسان مصباح الحقيقة تحت مكيال شيئية الأشياء أو النظم الفكرية الناقصة يكون الأمر غامضا ، وكلما تعرج مجرى التفكير بسبب ما يضعه المفكر لنفسه من سفسطة وجهل ، وتجسيم وتشبيه يقوم من هذه كلها ستار ، أو حجاب بين اللسان وبين الحقيقة وبرغم هذا وذاك قد يشع نور تلك الحقيقة ويكشف عن وجهها الصبوح وأضوائها الجذابة ، تلك التى قد تلمع فى سرائر القلوب السليمة البسيطة ، تمتنع وتحتجب عن تفكير الرءوس الشامخة وهكذا ظل (الله) هو الكائن المطلق وإن رانت على بعض العقول بعض الحجب ، وبه كان وجود كل شيء وإليه ينتهى علم كل شيء ، وبعبارة أخرى : فوق كل شيء رفعة ، وعند كل شيء حضورا ، دون أن تدركه الأبصار ولا العقول ، وهو يدرك كنه ما يتضمنه سائر الأبصار والعقول فلا ينال العقل منه إلا نعتا موصوفا ، ولا البصيرة إلا تذوقا وشهودا بالروح والقلب فقط دون دخل فى ذلك للحس ولا للعقل ، إلا أن يتدارك الله نور العقل بنور البصيرة فيتسع مدى إدراكه للحقيقة .

ذلك الله الحق الذى كان متوحدا فى وجوده أزلا ، وقد دلت خصائصه ونشاط خصائصه على وجوده قديما وحالا وأبدا ، وذلك لخلوص وجوده عن أن — يشمله الزمان والمكان الحادثان العابران ، فلا حلول منه فى المكان ، ولا سبق عنده للزمان ومن ثم لا يبقى الوجود الحق إلا له كما كان أولا وكذلك يكون سرمدا يظل العلم ينشده فى آثار اقتداره ، وهى صنوف القوة والطاقة وما إلى ذلك من حركة وسرعة ومادة ، وتنشده الفلسفة فى أطياف مداركها بالإدراكين العقلى والحسى . أو الخبرتين الذاتية والموضوعية وتظل البصيرة تعبده فى هيكل ذاتها عبادة خفية بالروح لا تسمع ولا تحس ولا تعبد وهكذا ينشده الإيمان الدينى فى خصائص ذاته وأمجاد ألوهيته .

وقد قدمنا أن لدينا على كل ما أوردناه أدلة وبراهين حديثة سنوردها بعد تبيين العلائق العامة بين العلم والفلسفة والدين وهى حقائق مأخوذة من واقع الحال وعن نتائج التقدم العلمى وهى دالة ومبرهنة على وجود الحقيقة الإلهية المطلقة وجودا واضحا ومنزها عن كل شوب كونى . وتلك البراهين تقع من الفلسفة موقع الفرض الضرورى ، ومن العلم موقع الخبرة الناشئة عن التجربة المبرهنة علميا وتقع من الدين موقع اليقين الذاتى الذى لا يزحزحه تشكيك .

وبراهيننا هى : البرهان الرياضى . ولا يمكن رده عقلا وعلما ، ثم البرهان الطبيعى وهو برهان واقعى ، ثم البرهان النفسى الإنسانى وهو دليل أقرب وألصق بذات الإنسان من كل دليل آخر ، لأنه منه وفيه وإليه .

العلاقة الواقعة بين العلم والفلسفة والدين

لا يعلم الكثير من الناس عن الوشائج والعلائق العديدة التى تصل بين الدين والفلسفة والعلم والتصوف إلا القليل منهم . أما الدين والفلسفة فقد نشئا من أصل واحد ونبتا من أرومة واحدة . وذلك أن الإنسان بعد أن بحث عن الشراب والغذاء ووجدهما فشبع وارتوى أخذ يفكر فيما حوله ليأخذ صورة ذهنية عن الكائنات التى تحيط به وتكتنفه من كل جانب من فوقه ومن تحته وأمامه وخلفه وعن يمينه وشماله فأدهشه ذلك الوجود المتنوع فى وحداته وأوضاعه وكيفياته وحركاته بيد أنه يتوحد فى مجموعه بقوانين تهـــدف إلى اتساقه وتنظيمه مما يبعث على انسجامه وتكامله . ويبعث أيضا على التفكر فيه وفى خصائصه بغية الوصول إلى علته . وهكذا كلما أمعن الإنسان فى التفكير ودقق النظر الفكرى روعته أعاجيب هذا الوجود وأخذت بتلابيب تفكيره ، وإذا بحث فى كيانه هو وجد نفسه يمثل نظاما مصغرا محكما يشبه تماما النظام الكونى الخارجى الذى حوله ويتجاوب معه ولاسيما من جهة أحكام صنعه وتكامل وظائفه ، فلاشك أنه يخرج من ذلك كله بأن تناغما واقعا لا محالة وعلاقة تلازمية كائنة بين نفسه وبين العالم الذى يعيش فيه ثم بينه وبين سر الوجود الأعظم (الله) وأيضا يجد بينه وبين الكون فى مجموعه تشابها نظاميا واقعا بين كونه الذاتى والكون ـــ الخارجى الموضوعى الذى حوله ومن ثم يجد صلة وثيقة بينه وبين سر الوجود الأعظم بعد صلته بالوجود نفسه وذلك هو مقتضى الفطرة . ولكن مع تمادى الأزمان وطغيان الحواس والوجدان مع تلك الغفلة بحال الظواهر الشيئية ، فيتناقض النظر الوجدانى مع النظر السطحى وجاء دور العقل ذلك المحدود التفكير وهو

ميال بطبيعته لتجسيد الألوهية وتحديدها لكونه لم ينضج بعد فوضع لنفسه الديانات الوثنية ذات الصور المتعددة والتماثيل بغية أن يستنزل الاله الأعظم حسب تصوره في صورها وأشكالها المجسمة ثم عكف عليها متعبدا لها فجعله هذا يركن الى الجهل المريح كالذي يريد أن يعيش فقط .

وأما سبب اختلاف وجهات النظر الديني ، والنظر العقلي ، والنظر العلمي بين تلك الطوائف المفكرة ووجود تلك السبل المتغايرة والمناهج المتعددة في التفكير بعد أن كانت متوحدة الأهداف والمرامي وكان سبب ذلك أن رجل الفلسفة حين أدهشه هذا الوجود أخذ يبحث في الفروع والأصول الكونية عن العلة التي تجمعها في شمولها ، وبعبارة أخرى أخذ يفلسف في المعلومات لعله يصل في النهاية إلى علتها .

وأما صاحب الدين فقد بدأ بحثه بالإيمان والإيمان المباشر بالعلة المطلقة ثم أخذ يدرس ضروب آثارها في معلوماتها وهو دائب خلال ذلك على ذكرها والتقرب اليها .

وأما رجل العلم التجريبي فانه بحكم أسلوبه الحسي التجريبي لا ينظر في الكائنات إلا من جهة ظواهرها وعلائقها المؤدية إلى استخدامها في منافعه الخاصة والعامة ويسمى ذلك عالم الواقع ، فهو لا يريد أن يؤمن بما عدا ذلك العالم من شيء اللهم إلا ان يرتفع إلى آفاق العلم المجرد عن المنفعة الخاصة ، العلم المجرد الذي يحتم على العالم أن يستشف في المنظور ما وراء المنظور ولو بعقله دون حواسه لدى البحث الجدى في القوانين الطبيعية وما وراءها من حقائق وأسرار متصورا ما يمكن أن يكون خلفها من علل خفية فيؤمن بوجودها مبدئيا وإن كان منهج علمه لم يصل بعد إلى كشفها ، وهنالك يتصل العلم بأول آفاق الفلسفة ومن ثمة بعد خطوات مفروضة يهديه تفكيره الطليق إلى أول آفاق الدين وذلك معنى ما رأيناه أخيرا في تصوف

العلم الحديث بعد أن جاوز الاعتداد بثبات الواقعية إلى آفاق تكاد تكون رياضية عقلية بل قل مثالية وكل هذا مرجعه إلى ماغرسته يد الخالق فى ذات الإنسان من كفاياتها للمعرفة بالحس أو بالعقل أو بالوجدان وأنفع المعرفة أن تكون بهم جميعاً .

وإذن فلا بدلا لنا فى محيط المعرفة الكاملة من علم طبيعى يبصرنا بخواص الأشياء التى تقع حولنا فى عالم الموضوع وتقع عليها حواسنا وتجاربنا الموضوعية فعلا فنعى خواصها وقوانينها ، ولا بد لنا كذلك من منطق عقلى فلسفى مستقيم نوازن به بين ظواهر الأشياء وعللها الخفية ، ولا بد لنا أيضا من دين يشبع الوجدان ، وبعبارة أخرى لابد لنا من أهداف للتدريب فنتقرب بها إلى مبدع الكون وعلة الكل وذلك لفطرة فينا جبلنا عليها وهى أن تنشد الحق المنشود لكل كائن ، علنا نتصل بتيار الكمال الالهى الأعظم السارى فى الوجود من قدس أقداس الأسرار بل قل المنبثق من ذلك النبع السامى المغترف من الأنوار الالهية الغيبية وتكون هذه أولى خطوات الحياة الصحيحة التى نسلكها إلى الخلود . أو على الأقل يجب أن لايقال بعد الآن أن ثمة خلافا بين العلم الصحيح والدين والفلسفة الحقة إذا نضح وجه الدين وانزاحت عنه أغلفة القشور الملصقة به . وكذلك إذا ارتقت آفاق العلم عن أدخنة المصانع وعجيج الآلات إلى الحقائق المجردة عن النفعية وإذا استقام كذلك منطق الفلسفة فأخذت سمتها إلى ماوراء الظواهر الطبيعية — عقلية كانت أو حسية — وتصبو إلى أسرار تتصل بعالم مافوق الطبيعة .

هذا ولما نما العقل الفلسفى بحسب قانون التطور وتنوعت ضروب تفكيره وطرائق منطقه ، ونمت أيضاً العاطفة الدينية وتهذبت واتسع محيطها تفلسف الأول وتصوف الثانى وتذبذب بين الفريقين رجل الحس

والحواس وراء ستار العلم، ذلك الذى ينظر بمنظار الحس ويقيس بقياس واقعية الأشياء كل كائن عقلى أو روحى أو دينى، تلك الحقائق التى تتسامى بطبيعتها عن الحس والمحسات بل عن منطق العقل ومتناقضاته .

ومسكين ذلك الرجل رجل الحس الذى يتخبط شكا وترددا بين رجال العقل ورجال الدين فهو لايدرى إلى أى الفريقين ينضم وتحت أى لواء ينضوى، وينتهى به هذا الحال عادة إما إلى الشك وإما إلى الرفض أو الالحاد بتاتا فيخرج عن المنهج المعقول للعلم والدين والفلسفة جميعا .

ولذلك الحال الغريب كان تبع الالحاد أو على الأقل يمثل الرجل اللا أدرى — وأنت ترى على ضوء ماقدمناه لك أن الصلة وطيدة والعلائق قوية بين أعلى نظريات الفكر الفلسفى وأنضج نظريات التصوف الدينى وأيضا الراجح من مقررات العلم الطبيعى، وأنك واجد أيضا تشابها تاما بين الشك فى اطلاقه والسفسطة والالحاد فى معناهما ودروبهما، على أن العلم فى قواعده الأصلية وليدة نظريات الفلسفة ونظرات التصوف لقرب الصلة بين العقل والوجدان وكذلك تتفق أثبت نظريات العلم الجديث مع أعلى أهداف الدين الصحيح الخالص وتتوسطهما الفلسفة بمعظم (ما بعد الطبيعة) . وقواعد التصوف .. هذا يحدث إذا تسامحت نظريات العلم وخلصت حقائق الدين والتصوف من القشور والغواشى واستقام نهج الفلسفة وإما إذا أسفت الفلسفة وتحجرت نظرياتها وهبطت غايات العلم إلى حضيض المادة فجنحت إلى آلية المعامل والمصانع وتحولت نظرة العلم للوجود بل ومنهجه إلى نظريات الفلسفة المادية أو النظرية الآلية للكون كان ذلك العلم إلى الالحاد أقرب وأميل منه عن نظريات الدين والتصوف وكان ذلك بعدا عن أهداف العلم الخالص وكذلك يكون قدعق أمه الفلسفة . وإذن فلا تعجب إن قلنا إن لاخلاف ولا تباين حقيقى بين النتائج العليا

للعلم والأهداف المتسامية للدين أو الفلسفة وإن حصل التغاير فى المناهج والوسائل. فإن قال قوم بحتمية التناقض بين الدين والعلم أو الدين والفلسفة كان ذلك النظر غير العميق ناشئا عن النص العلمى أو يكون ناشئا عن فلسفة سطحية أو عن مجرد الالمام بقشور الدين دون لبابه، والحقيقة أنك لو تأملت تأملا عميقا خالصا خاليا من التعصب ترى دائما أن أعلى آفاق العلم متصل بأول آفاق الفلسفة وأن أسمى آفاق الفلسفة متصل حتما بأول حقائق الدين وهو التصوف، والتصوف نفسه هو روح الدين وشعار الفلسفة فى أصلها ونبعها وهو مانسميه (حكمة) أو هو (علم ماوراء الطبيعة) . وأعلم قبل الدخول فى البراهين التى آن أن نسوقها اليك: أن الفروض العلمية والفلسفية التى يعتد بها فى ميدانى العلم والفلسفة الصحيحين على ضروب ثلاثة: الفرض الضرورى ، والفرض الامكانى ، والفرض الاستحالى .

فالفرض الضرورى : مايقوم بنفسه ويقوم به غيره .

والفرض الإمكانى : ماقام بغيره ولا قيام له بنفسه .

والفرض الاستحالى . مالا قيام له بنفسه أو بغيره لأنه سلبى الوجود.

البراهين الثلاثة

البرهان الرياضي :

أما البرهان الرياضي فهو الدليل القاطع الدلالة، المانع للشك ، وسبيل ذلك أن البراهين الرياضية ثابتة ومبرهنة دائماً بنفسها على نفسها كالبديهية الحسابية التي تقوم (١ + ١ = ٢) ومايتفرع عن ذلك إلى آخر العدد، الذي لايتناهى في الحقيقة ، والنظام العددي يبدأ بالواحد إلى مالانهاية ، حالة أنك في آخر العقود دائماتقول ١٠، ١٠٠ ، ١٠٠٠ الخ .. فترى الواحد بارزا فيما ينشأ من رتب الاعداد ، وهو متوحد أيضاً في رتبته ، فالعشرة مثلا : واحد + صفر ، ومائة : واحد + صفرين، وألف واحد+ثلاثة أصفار ، وهذا إلى ديشليون تجد الواحد + جملة أصفار ، والصفر في ذاته كائن عددي فقط وضع ليكون دالة على وجود الواحد وما يحتويه من كم حال تطوره في رتبه التي لانهاية لها والبديهية الهندسية القائلة :بأن النقطة تكون الخط ، والخط يكون السطح ، وتلاقى مستقيم بآخر يكون زاوية، والخط إذا تمثل في نقاط عائدا إلى نفسه كانت الدائرة ، فمركز الدائرة إذا انشع في محيط تجليه يكون هو الفرض الضروري لاقطارها ومحيطها حتما وتكون الأقطار والمحيط في جميع نقاطها موجوده وجودا إمكانيا بالنسبة إلى المركز .

وكلامنا هنا عن الحقيقة الوجودية مقايسة بالدليل الرياضي يقضي : بأن نمثل الوجود بالدائرة ، والله (علة الوجود وله المثل الأعلى) يكون مركزها وتكون الحياة والعقل والفكر كأقطار لها ، وتكون الطبيعة نفسها بماديتها وسائر مجراتها وكواكبها وشموسها وسياراتها محيطا لتلك

الدائرة، فالدائرة الرياضية لا يمكن تصور وجودها رياضيا إلا إذا تصورنا وجود المركز قبلها كنقطة مركزية وحيوية لوجودها وقدمنا أن وجود المركز فرض ضرورى فى النظرة الرياضية العلمية بالنسبة للدائرة فى اقطارها ومحيطها .

ويكون وجود الأقطار ووجود المحيط ، فرضا إمكانيا يستوى فيه طرفا الوجود والعدمية ، أى أنه احتمالى الوجودية والعدمية ، بينما وجود المركز ضرورى محتوم لايجاد الدائرة ، والفرض الضرورى مالا يمكن رده فى علوم الرياضة .

ومعنى هذا : أن وجود المركز صار ضرورى الوجود متمكنا فى الوجودية لأنه إن تصورنا وجوده تصورنا فى الوقت نفسه وجود الدائرة بأقطارها ومحيطها .

فإن وجد ولم توجد الدائرة شكليا ، أو فراغيا ، أو واقعيا ، فهذا لا يطعن فى وجود المركز بحال ما ، لأنه ضرورى الوجود ، وجدت الدائرة وضعا أو لم توجد ، وبعبارة أخرى : فإن وجد المركز ولم توجد الأقطار ولا المحيط فهذا لايطعن فى وجود المركز لأن العقل جبل على أنه إذا عثر على وجود المركز تصور حتما وجود الأقطار والمحيط بسائر نقاطه فى الوقت نفسه لأنها جميعا مجرد نقاط ممثلة للمركز . فما الأقطار إلا انشعاعات لوجود نقطة المركز ، تؤكد به وجودها المركزى وتدلل عليه وبالتالى تمد نقاط المحيط بالثبوت والوجود الامكانيين .

وبهذا فانه بتعلل وجود المركز يتعلل ضرورة وجود الأقطار والمحيط فى وقت واحد كنشاط لنقطة المركز ، وذلك لوجود العلاقة التلازمية بينها وبين المركز والقاعدة العلمية تقول : إن وجود المركز يلزم عنه أولا وجود الأقطار ، وثانيا وجود المحيط ، وثالثا يتم وجود الدائرة (المركز والأقطار والمحيط) فان وجود المركز كنقطة مركزية للنشاط

ضرورى ، ووجود الأقطار والمحيط وجودا إمكانيا لازما عن وجوه المركز ، فان لم يوجد المركز فلا أقطار للدائرة ولا محيط. وإن وجد المركز كان وجود الأقطار والمحيط ممكنا ومفروضا لقيامها بوجود غيرهما وهو المركز الضرورى الوجود .

وهكذا حال العالم الذى نعيش فيه بمجموعه ، وبعبارة أخرى برتبه الثلاث : الطاقة ، والعناصر ، والمادة ، أو عالم الموضوع الواقعى بما فيه جملة وتفصيلا ويمثله محيط الدائرة ، والقوى الروحية والمعنوية والفكرية (عالم الذات) تمثل لها بأقطار الدائرة ، والنقطة العلية والمركزية للوجود تلك التى تمد بنشاطها كل شىء يؤول إلى وجودها الضرورى وجود كل شىء إمكانى يمثل لها بمركز الدائرة .

هذا ، ومن الخصائص الرياضية للمركز ، وهو سند دليلنا الرياضى هذا وجوهره أن المركز هو أولا المركز الضرورى الوجود فى ذاته ولذاته وهو أيضاً (المركز) وله العلية ، ثم الأقطار (وهى إمكانية الوجود) وسبب وجودها (العلاقة التلازمية) بين وجود المركز الضرورى الوجود ووجودها الإمكانى الاحتمالى وأما المحيط فما هو إلا جملة نقاط تعينها وتحددها أطراف الأقطار وتتمثل فيها (الأقطار) فهـــو إمكانى الوجود أيضا .

وإذن فالمركز هو المركز أولا ، وهو الأقطار ثانياً ، وهو المحيط ثالثاً وليس بالعكس ، أى ليس المحيط هو الأقطار ، والأقطار ليست هى المحيط وهكذا يظل المركز قائماً بنفسه لا تربطه بالأقطار أو المحيط صلة سوى العلاقة التلازمية بين الواجب الوجود لقيامه بنفسه ، والممكن الوجود بغيره ، وهذا المحيط الدائرى مثال مطابق كال المطابقة لعالم الشيئية والظواهر والصور فى الوجود ، ويمكنك أن تقول بعبارة أوضح ، وتكون الأقطار

مثالا لما فى الكون من قوة روحية أو عقلية أو نووية والمركز مثال للحقيقة المطلقة العلية .

وأعجب ما فى الأمر أن هذه المسألة الرياضية لا تعكس رياضيا عائدة ومثال ذلك أن الواحد فى الرتب العددية هو الواحد ، وهو الاثنين مضروباً فى نفسه وهو الثلاثة بإضافة الاثنين الواحد ، وهى ممثلة له وليس بالعكس أى ليست الثلاثة هى الاثنين وليست (الاثنين) هى الواحد، وهكذا يتمثل الواحد فى صور الأعداد إلى ما لا نهاية وكذلك النقطة الهندسية : هى النقطة فى نفسها ، وهى علة الخط ، ثم السطح ، ثم الزاوية ، ثم المربع ، ثم الدائرة إلى آخر الأشكال الهندسية ، وكلها تنبع عن النقطة وتعود بالتحليل الرياضى إليها .

ومعنى ذلك بالنسبة للدائرة : أن ليست واحدة من نقاط المحيط هى قطر من الأقطار بالذات ، وليس واحد من الأقطار ، ولا كلها فى مجموعها هو المركز ، وأما المركز الجامع الضرورى الوجود فهو المركز (دون أن تؤثر فيه نقاط الأقطار أو نقـــاط المحيط ، وهو مؤثر فيها ضرورة) ، والأقطار والمحيط فى وقت واحد بحكم نشاطه المركزى المنشع إلى المحيط تكون حركتهما فالمركز إذن هو المركز وهو الأقطار وهو المحيط وليس بالعكس أى ليس واحد من الأقطار أو المحيط هو المركز وإنما هى مجرد آلات أو نقاط رياضية تمثله وتدل عليه .

وكذلك الوجود الإمكانى فى مجموعه بالنسبة لعلته ، وبعبارة أوضح أن الله هو المتوحد الوجود بذاته ، وهو السبب الأول المركزى الذاتى بالنسبة لوجود الممكنات اللازمة عن نشاط خصائصه وأن له التأثير فى جميع الموجودات بنشاط صفاته ، فهو الروح والفكر والعقل بدور آخر إمكانى دون أن يكون الروح فى نفسها ولا للفكر ولا للعقل ولا للكون بأثره أى نصيب من العلية أو المشاركة فيها تلك الحقيقة التى هى رتبة

الإلهية المركزية المنزه عن الحلول أو الاتحاد بشيء منها وليس بين تلك الممكنات وبين العلة قط، سوى العلاقة التلازمية بين الواجب الوجود وممكنه، وبعبارة أخرى بين الخالق والمخلوق أو الصانع والمصنوع وذلك من حيث قيام الممكن الوجود بفاعلية واجب الوجود، أو بعبارة أخرى اوضح وأوجز، العلاقة بين القائم بذاته (الكيان) الممكن للقيام بغيره لأنه العلة التي تتوحد كل المعلولات فيها لتعود إلى علتها الأولى كما تتوحد الأقطار في مركز الدائرة، ويبقى معنا المحيط، الذي يمثل لنا في وضعه محيط الطبيعة بأسرها وذلك باعتبار أن محيط الطبيعة أيضاً مجرد ظواهر إمكانية بما فيها من سموات وأراضين قائمة بذاته الواحدية المنزهة بكل ضروب التنزيه في وجودها الذاتي عن كل شيء منها وإنما صفاته هي المقومة لكل موجود عداه.

وبعبارة واضحة وضوح الشمس، لك أن تقول: إن الله، هو الله متجليا بضروب من نوره الكامل المتنوع في الروح والعقل والجسم والشيء وفي سائر نشاط الكائنات، وليس الأمر بالعكس. أي لا الطبيعة هي الفاعل بذاتها، ولا العقل ولا الروح أيضاً، إنما هي كلها حقائق وجودية إمكانية قائمة بعلتها الالهية الأولى القائمة بذاتها دون احتياج الى السوا. وهي الله.

وهذا يقضي ضرورة بأن لا واحد من الروح أو الفكر أو العقل أو المادة يكون كعلة للوجود أو لنفسه، وقلنا إن وجودها جميعاً وجود إمكاني احتمالي، والوجود الوجوبي الضروري كله لله عزوجل وهو سبب الأسباب وعلة العلل، وأنه المنشيء والمصور والقائم على ما أنشأ وصور، وإلى ذاته أيضاً تنتهي نتائج التطور الوجودي للخصائص الطبيعية أو الروحية فتتوحد في خصائصه سائر أعيان الدائرة الوجودية بأسرها فانية في النقطة الواحدة التي أبدعتها وهي النقطة المركزية العلية الضرورية.

فإن مثلنا لوجود الله الوجوبي (وله المثل الأعلى) بوجود المركز

الضرورى لكى توجد دائرة ومثلنا للروح والعقل ، والطاقة العامة بأقطار الدائرة أيضاً ، ومثلنا لمحيط الطبيعة بمحيط الدائرة ، كان ذلك مطابقاً للواقع تمام المطابقة ، ولا تعجب فالله ذاتاً وصفاتا يتنزه عن المثل وليس عن المثال الذى يدل عليه ، لأن المثل مقارن ، والمثال دلالة على وجود الموجود الحق وقدرته فى وجوده والمثال عائد فى نفسه إلى صنع الممثل وإبداعه .

وهذا دليلنا الرياضى على وجود الله عز شأنه . وقد نوهنا عن قيمة الدليل الرياضى لدى المنطق العلمى والفلسفى معا فى أول الكلام ، ثم يؤيده الدليل الثانى وهو البرهان الطبيعى الذى سنطبقه على واقع الوجود الإمكانى ليكون كالحجة الدامغة الدالة على قصور الكائنات الإمكانية الشيئية والعقلية أو الروحية كلها عن البلوغ إلى العلية المطلقة ، واضطرارها جميعاً لوجود علة غيرها يكون وجودها ضرورياً ، ومتقدماً على وجود الروح والعقل والطبيعة جميعاً ، باعتباره علة أولى وتكون تلك معلولات لها ، ويكون وجود العلة ضرورياً كوجود المركز بالنسبة لوجود الدائرة وتكون العلة ثابتة الوجود فى مقابل أن وجود العوالم كلها بالنسبة للألوهية وجودا إمكانيا اعتباريا متحـــولا بالضرورة إليها ، كسبب أولى لهـا وغاية التطور .

وقدما أن مركز الدائرة هو المركز ، وهو الأقطار ، وهو المحيط فى وقت واحد ، ولا يصح العكس .

البرهان الطبيعى :

الدليل الذى سنقيمه ليس هو الشمس ، وإن كانت الشمس لا تصح دليلا(١) ، ولا النجوم ولا أكبر المجرات ، ولا أدق الذرات كذلك .

---

(١) ولله المثل الأعلى على كل حال .

وإنما دليلنا الطبيعي منحصر فى تصريف القوة الطبيعية العامة وما يتفرع عنها من سرعة وحركة منتجة للأشياء الكونية ، ومعلوم أن القوة الطبيعية بالذات ، هى القوة التى يتكون بها كل شىء من الذرة إلى المجرة وهى التى مع جهل ماهيتها للعلم والفلسفة معا تتمركز كنقطة مركزية نشاطية بالنسبة لكيان الطبيعة فى سائر ظواهر العالم الواقعى بطاقتها ، وكل ماينشأ فى الكائنات من سرعة وألفة وتنافر وجذب ودفع .

فهى (القوة) المبدأ الطبيعى المكون الذى تتكون به الكائنات الطبيعية جميعا وهى كذلك نبع سائر مافى الكائنات من طاقة نووية ذرية ، وحركة وسرعة كما تقدم . فلو فرضنا قياسا على ما ضربناه من مثال الدائرة الرياضية ، أن القوة الطبيعية بطاقتها العجيبة هى النقطة المركزية الرياضية فى سائر دوائر الوجود ، لكنا صادقين وتكون هناك مطابقة عجيبة بين المشبه والمشبه به

وإذن فلنفرض فرضاً ضروريا : أن القوة الطبيعية هى النقطة المركزية الفعالة فى محيط الطبيعة بل وفى سائر العوالم التى نحسها ونلمسها ونبصرها وندركها بالعين المجردة والعقل ، أو بالعوامل والآلات المساعدة على الأبصار لأوسع مدى فى الطبيعة ، ولنعتبر هنا أن الأقطار قياسا على الدائرة ، هى جميع مافى الوجود من طاقة ذرية مشعة أو محركات ديناميكية ، سواء كانت طاقتها جميعا فى شكل إشعاع أو ذرات جوهرية ، او عناصر كونية أو سرعة أو حركة . أو حرارة . أو ضوء أوصوت أو كهرباء أو مغناطيس ، وإذا اعتبرنا أيضا الظواهر البادية لنا من الأشياء المحسة أنها المحيط العام للوجود .. فماذا نرى ؟ !

— نرى دون شك — أن القوة العامة نفسها وفى مقامها المركزى الضرورى : هى القوة أولا ، وهى الطاقة وهى الكتلة وهى الإشعاع

وثانيا ، وهى الذرة وهى العنصر وهى أيضا الضوء والمغناطيس والسرعة والحركة والكهرباء والحرارة والصوت ... الخ .

وأخيرا الكتلة المادية التى أزاغت بتكتلها بصائر قوم لايدرون أنهم لايعقلون .

فالقوة طبعاً أنشأت الشمس بطاقتها ، وما تتصل به الشمس من شموس أكبر ومجرات وسدم . . . الخ ، وتكون بالضرورة هى علة أرضنا أيضاً (ذلك السيار الصغير) واخواتها ومثيلاتها من السيارات، وتكون أرضنا بالنسبة للقوة كتكرة لاتزيد عن حبة العدس أو دون ذلك تتقاذفها أيدى (القوة الطبيعية وطاقتها) جذبا ودفعا ولكن بنظام وقوانين ، على أن ماتراه من إنشاء وإبداع واقعين فى الطبيعة وقوانينها بالفعل، لايزيد عن أنهما أمران مجازيان فيها ومستعاران من غيرها وإن تسمت بهما (القوة الطبيعية) أو الطبيعة وهى تنوب عن الفاعلية الإلهية المطلقة التى هى علة لها بل هى العلة الحقيقة الدافعة بنشاط خصائصها من قدرة وإردة ... الخ .

وكل ماقلناه يصدق تماما علميا ، ولاسيا بمقاييس علمنا الحاضر فى القرن العشرين ، تلك المعلومات التى غيرت مقاييس الطول والعرض ، والحجم والسمك والزمان والمكان والابعاد كلها فجعلتها اعتبارية وآيلة إلى مجرد نسب السرعة وبالأخص فيما يراه (آينشتين) .

وإن قلنا : إن ليس شيئاً من هذه الأكوان جميعا (من المجرة إلى الذرة) وكذلك الطاقة المشعة إلى الجواهر الفردية والمادة المتكتلة. إن قلنا : ليس كل ذلك إلا مجرد قوة التطورة لصدقنا أيضا لماذا ؟

لأن الذى يجب أن يقال هنا : إنها كلها طاقات للقوة وليست القوة بواحدة من تلك الحوادث ، ولا كلها فى المجموع أى الحوادث ، هى القوة فى ذاتها أو فى رتبتها المركزية وأيضا الكهرباء والمغناطيس والسرعة

والحركة ، ليس واحد منها هو القوة ذاتها ولكن القوة هى القوة وهى بالتالى كل أولئك بالتبعية

ويبقى معنا إذن شىء واحد : فمن أين جاءت القوة ياترى ؟؟ !!

ومعلوم — علميا أيضاً وفلسفيا — أن القوة العامة مجهولة الكنه والماهية من الفلسفة والعلم على التحقيق وظننا أنها ستصير مجهولة الماهية إلى الأبد ، ما دامت كفايات المعرفة العلمية والفلسفية مقصورة على مجرد الحس والعقل فقط ،وما دامت القوة تكمن خلف ظواهر الأشياء ومدارك العقل جميعا وذلك لشمولها وتمركزها وتساميها الديناميكى فى منتجاتها من النشاط الكونى الطبيعى ، وصور ذلك النشاط العديدة (كالسرعة والحركة والدفع والجذب) وكذلك لا يقال فى شأن العقل سوى أنه قوة ، وإن كانت أرفع من القوة الطبيعة درجة بالادراك والتعقل .

فهل القوة هى السبب العلى المطلق ياترى وليس وراءها سبب آخر ؟ كلا .... !! ولماذا ؟ . لأن القوة فى ذاتها كائن أعمى غير مبصر ولا مدرك ، ولا يعمل دائماً إلا مقودا بمنظم وضابط ، وذلك المنظم الضابط كائن عاقل ومعقول فى وقت واحد ، وهو الممد لعقلنا بقبس منه وذلك الكائن الأعلى هو القدرة والأرادة الالهيتان فى العموم ، وعقلية الإنسان عليه فى الخصوص .

فان عزونا إلى القوة الطبيعية الاطلاق فى الوجود ، كان عقل الإنسان أولى بذلك منها وأجدر لأنها عمياء وهو مبصر ، ودليلنا أنه ينظم سائر القوى فى مجراها ، وخذ مثلا لذلك (النار) التى إذا لم ينظمها عقل الإنسان فى المجرى النافع صارت إلى المجرى الضار بالاحتراق وغيره .

فهل الإنسان بذلك يكون آلة هذا الوجود ياترى ؟ ؟ كلا أيضا !!!

لأنه مخلوق غير كامل وذو قصور للأسف عن الاحاطة بكل شيء .

وهنا وعلى هذه المساءلة يجيبنا (ديكارت) الذى يقال عنه أنه مؤسس الفلسفة الحديثة، وقد اكتشف — بعد التفلسف العريض والبحث الطويل : (إنه لو كان علة لنفسه (هو) لصنع نفسه على أكمل ما يمكن من الأوضاع والخصائص وما كان يكون أبدا (على مثل هذا النقص الذى هو فيه) .

ولأجل هذا : جزم ديكارت بعلة كاملة أوجدته وأعطته من الكمال بقدر وحساب وأعطته أيضاً من النقص الذى هو لازم من لوازم المخلوق المعمول كفلا لاصقا بجبلته ثم أوكلت اليه التكامل والتسامى لأجل عرفان تلك الحقيقة بالنسبة للحقيقة المطلقة ثم حفزته إلى الاستمداد من أضوائها سواء فى الحياة أو بعد الموت عند التجرد نهائيا من المادة فى النهاية

ويؤخذ مما قدمنا : إن لا الشيئية — أى المادة — ولا القوة الطبيعية بسائر صنوف طاقتها. ولا الإنسان وما فيه من فكر وإدراك : ليس واحدا من كل أولئك بعلة للوجود .

وإنما وصفها الحقيقى أنها جميعا موجودات إمكانية عابرة فى سلم الوجود وهى لنقصها وقصورها متضايفة ومتكاملة دائما أبدا ، وذلك هو المشاهد فى الواقع ، كتضايف الحياة والجسم الحى مثلا وتضايف القوة مع أعيان الطبيعة وظواهرها ولا بد إذن لوجود الكائنات المتضايفة المتكاملة من علة كاملة فى ذاتها وبذاتها ، وتكون هذه العلة المطلقة ضرورية الوجود وواجبته وتكون فضلا عن ذلك هى الممدة لتلك الكائنات المذكورة بأسرها وبما فيها من قوة وحياة وإدراك وإرادة . لأنها بهذا الاعتبار الضرورى تكون حقا علة لكل شيء فى الوجود وهى (الله) فاذا انتفت العلية للوجود عن القوة الطبيعية وعن الإنسان بما فيه من حيوية وإرادة وإدراك لا يبقى معنا إلا (الله) وإن كلمة طبيعة : لفظ وضع للتعبير عما يحتويه الكيان الوجودى

من أشياء واقعية فهي اسم مجازي وضع لغة على وزن فعيلة بمعنى مفعوله . كصنيعة بمعنى مصنوعة ، أو كحديقة، وما الحديقة إلا اسم وضع ليدل على مجموعة أشجار ونباتات ، وليس لهذا الاسم مسمى حقيقي وإنما حقيقته شيء آخر هو مجموعة الأشجار الكائنة في الحديقة ، وتكون كلمة حديقة تسمية مجازية لا أكثر ولا أقل لأنها إذا ذهبت كائناتها من أشجارها وزروعها كل واحدة منها إلى حال سبيلها لا يبقى لكلمة طبيعة من وجود ، فهل يا ترى تعطى لهذا اللفظ الأجوف (كلمة طبيعة) صفة الألوهية والخلق والإبداع؟؟ وإذا كنا قد نفينا عن القوة الطبيعية العامة هذه الصفة (صفة العلية أو الألوهية) وهي أولى من مجرد كلمة طبيعة ونفيناها عن العقل أيضا فما قيمة هذه الكلمة (طبيعة بالنسبة (للقوة المطلقه) التي تسيرها وتسخرها أو للعقل الأعلى الذي يوجه القوة ويسخر الطبيعة على أنها كلها في الوقت نفسه موجهة من غيرها وهو (الله) الأسمى من الطبيعة وقوتها ومن العقل وما فيه من ذكاء وتعقل، هذا ولم يبق معنا من الألفاظ الجوفاء ما يسند إليه جهلة العلماء ولا تعجب ان يكون من العلم ما هو جهل) (علية الوجود بأسره) سوى كلمة الضرورة الجوفاء فان كان ثمة ضرورة فلن تكون سوى اضطرار المصنوع للسير مع نظام صانعه. وربما يبقى أيضا كلمة صدفة ولا صدفة في الوجود إلا خلال قانون من تتلاعب بأفئدتهم الصدفة التي توجد في الكون لانتظام محيطه كما لو فرضت وجود ليمونه في وسط مائة تفاحة فالليمونه واحدة ولا تظهر الا فيما ينسجم نسبيا مع عدد التفاح بالنسبة للمرات التي تظهر فيها الليمونة دون التفاح كله فتسمى صدفة .

وقدمنا أن الرجل الذي تقع فوق رأسه طوبة من عمارة بغير فعل فاعل منظور فتعطبه أو تميته ولو أردنا تعليل ذلك لعزوناه للصدفة ويغيب عنا وجود المؤثرات الجوية وتفكك الملاط الذي كان يمسكها وهما سببان قويان لسقوط الطوبة وإصابة الرجل .

وأخيرا يبقى علينا إيراد الدليل الثالث ، وقبل أن ندخل فيه نذكر

القارىء بأننا لم نخرج من الدليل الأول والثانى إلا بكلمة واحدة وواحدة قط. هى أن (لا إله إلا الله) . وهو البرهان الذاتى وهو آخر أدلتنا الثلاثة على وجود الله .

البرهان الإنسانى الذاتى :

وهذا البرهان هو أقرب وأوضح للنظر العقلى والوجدانى معا إن نظر الإنسان (, هو يجد فيه مستدلا على وجود الله بوجوده وما فيه من معان متسامية لاسيما وأن الدليل (المطلوب) على وجود الألوهية ينبع من ذات الإنسان نفسه لا من شيء آخر خارج عنه ، فان الذات وهى النفس ، وهى الروح ، وهى الحياة ، وهى القلب أيضا وكل هذه الأسماء مجرد اعتبارات ومترادفات ، وزوايا (للنظر) يرى منها شيء واحد وهو الذات الإنسانية فى ذاتها وبخصائصها .

تلك الذات التى تعمر جسد الإنسان ، أو بعبارة أعمق أنها تشع فيه بذاتها وبخصائصها وأما ظرفها الموضوعى فهو الجسم من حيث إنه مجرد ظرف طبيعى مكون من خلايا وأعضاء وأعصاب ومخ تظهر النفس فيه بأفعالها المعنوية وهى وحدة مركزية نفسية ، وليس بعجيب أن نمثلها أيضا بالنقطة الرياضية فى دائرتها أو بالقوة الطبيعية العامة المتمركزة فى الطبيعة بالنسبة لصفاتها وخصائصها الكونية ، وتظل الذات الإنسانية مع ذلك أوسع مجالا ، وأقرب إلى الحقيقة من المثالين السابقين (الدائرة والطبيعة) .

وحسبك أنها هى الكائن المدرك الذى يتوقف عليه إدراك الدلالة الرياضية وإدراك ما تقتضيه القوة الطبيعية فى أفاعيلها وفيما وراء تلك الأفاعيل من حقائق وأسرار الأمر الذى يسقط كل دليل وكل برهان مالم تؤيده هى (الذات) الإنسانية وتدرك المقصود منه ، فتؤكده وتصوبه ،

أو تنفيه وتخطئه. فهي معيار الحق الذهني في عالم الرياضة وفي عالم الطبيعة معا .

هذه الذات المركزية في شخصية الإنسان — ويسميها علم النفس اسما مركزيا أيضا هو بؤرة الذات — تلك التي ترجع إليها جميع خصائص الإنسان وصفاته وكفاياته ، ومواهبه العصبية والعقلية والإلهامية جميعا .

فهي من الإنسان ومن أفعاله المتنوعة وقواه المختلفة في مجموع شخصيته ، بمكانة المركز من الدائرة الرياضية أيضا . وبمكانة القوة العامة المركزية الخفية من الدوائر الكونية الطبيعية بل وأكثر ، وتظل الذات الإلهية وراء ذلك كله ووراء ذواتنا أعظم وأسمى .

فمن الذات الإنسانية كما تصدر بها حياة الشخص أولا فكذلك يصدر الشعر والإرادة . ويصدر أيضا الفكر والتعقل بإدراكيه العقلي والحسي وأيضا هي نبع الوجدان والإلهام ، والمعتقد والانعطاف الوجداني . . الخ.

وبهذه القوى والخصائص ، والكفايات الذاتية النفسية مجتمعة ، يتأثر أولا المخ ، ثم المجموع العصبي بأسره ، ثم سائر خلايا البناء (الجسماني) الموضوعي وسائر أعضائه وعضلاته .

ومعنى هذا : أن جميع خلايا الإنسان الكائنة في الجسم بما فيه من مخ وأعضاء تقوم وتتكيف لا بالعضل ولا بالدم ، ولا بالعظم ولا بالعصب ولا بخلايا المخ ومراكزه العضوية المادية أو المعنوية ولا بقشرته السنجابية وإنما بشيء واحد وواحد فقط. هو الذات أو قل الحياة أو قل الروح أو قل فيما يلم بتلك المعاني ما شئت من تعريف مطابق للحقيقة وتلك الذات هي الذات المركزية المعنوية ممثلة فيما نسميه الحياة التي لا تأتي إلا من حي ، وكذلك الفكر والشعور ، والإحساس والإرادة .

وهكذا أفعال الإنسان تنشأ جميعها عن الفكرة المتمركزة فى خلايا المخ والتفكير ويكون فى كل هذا كنقطة مركزية تمثل الذات التى صدرت عنها الفكرة ، وهى المسببة لسائر أفعال الإنسان عقلية كانت أو حسية وليس بواحد من أولئك (لا الفكر فى إدراكه ، ولا الشعور ، ولا التصور . ولا الخيال ، ولا الاحساس ولا سائر الكفايات فى مجموعها هو الذات الإنسانى نفسها .

ولكن الذات هى الذات ،وهى الفكر وهى الاحساس ، وهى الشخصية منشعة فى محيط الجسم ، وليس بالعكس .

فتكون الذات هى المدرك ، وهى الإدراك بقسميه العقلى والحسى ؛ وليس واحد من أولئك هو الذات نفسها كما قدمنا ، لأن الذات هى النقطة المتمركزة روحيا ونفسيا،وهى المقومة لجميع تلك الخصائص ، التى هى دونها بكثير فى الرتبة ، لأنها تصدر نقاط الدائرة فى أقطارها ومحيطها عن المركز .

والذات الإنسانية من شأنها أن تتصل بأضواء الخصائص الإلهية مباشرة لخاصية الإلهية فيها دون سائر الكائنات ، اتصالا مباشرا بالروح والقلب .

وتكون جميع الخصائص والقوى المعنوية والحسية فى الإنسان معلولات إمكانية بالنسبة لوجود الذات ذلك الوجود العلى الضرورى ، للجسم الذى يعتبر (امكانيا لها) لأنها خالقته مجازا أى محييته : . الجسم الذى أن تخلت عنه — وهى علته — تحلل وتحول بفضل الصيرورة إلى حالات أخرى ، صور أخرى جمادية أو نباتية أو حيوانية .

هذا من جهة ذرات الجسم ، وخلاياه وأعصابه ، وفى هذا المقام يقول الدكتور والفيلسوف البيولوجى العظيم (الكسيس كريل) : « الروح هى جانب أنفسنا المحدد لطبيعتنا ، والذى يحـــدد موقف الإنسان عن بقية الحيوانات الأخرى ثم ما هو الفكر .. ذلك الكائن العجيب ، الذى يعيش

فى أعماق ذواتنا دون أن يستهلك أى قدر قابل للقياس أوالوزن من النشاط الكيميائى .

« إن العقل مخبأ بداخل مادة حية يهمل إدراكه (الفزيولوجيون والاقتصاديون) إهمالا تماما ، كما لا يكاد الأطباء يلاحظون بمباضعهم وجوده ، ومع ذلك فإنه أعظم قوة فى العالم » .

حقاً إن لمثل هذه الحقائق مغزى عظيما : فإنها تدل على حقيقة علاقات معينة ذات صبغة مازالت غير معروفة تماما بين العمليات السيكلوجية والعضوية (الفزيولوجية) وأنها تبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحى ، الذى أهمله علماء الصحة) .

كل هذا العمليات المتقدمة تتم فى الجسم ، أما هى — أى الذات الإنسانى أو قل الروح أو الحياة — فترجع عائدة إلى مصدرها الأول وعلته الحقيقية وهى الذات الإلهية المقومة لكل شىء بعد أن تؤدى وظيفتها وبعد أن تترك غلافها الطينى فى الأرض متزملة بغلاف أثيرى أفضل منه ، فيكون حيئذ ما لله لله وما للأرض للأرض ، وأما هى فتلبس الغلاف الأثيرى المذكور الذى كونته القدرة الإلهية من الجسم .

وهكذا يتم كيان الإنسان وتلاشيه وأيضاً كيان الوجود كله وكذلك فناؤه بما فيه من طبيعة ، وقوة وحياة صادرة أول الأمر عن القدرة الإلهية ، كما فى بيان الأمثلة التى قدمناه وكذلك الدليل أيضا الذى قدمناه لك من الرياضيات والطبيعيات وقد جعلنا منها أدلة على وجود الخالق عز وجل وهى أدلة دامغة تقوم على مافى الوجود الامكانى كله من أفعال وقوى تتصل بالعلة المطلقة التى وجودها وجود وجوبى ضرورى الوجود بالنسبة للعام الامكانى الذى جعلنا من وجوده دليلا على وجود مبدعه ، وقد بينا أيضا أن للخالق المبدع ذاتا قديمة الوجود وسابقة به على وجود كل شىء وخصائص تتصل بها

تلك الذات الإلهى ، وإن لتلك الخصائص نشاطا لازما عن وجودها الايجابى فهو موجود أيضا بالضرورة . ولهذا النشاط الفعال حتما آثار وفاعلية ينشأ عنها أكوان انفعالية وتلك الأكوان والآثار لا ثمة من صلة بينها بين الذات الالهى المبدع الذى هو السبب الأول بخصائصه العليا إلا انه السبب فى كل نشاط فى الوجود بخصائصه المعاله فإذا كان الاله موجودا وهذا ما لا شك فيه لدى العقل السليم والقلب المستنير ، وكان لوجوده الإيجابى نشاط يلزم عن صفاته وخصائصه الإلهية . فأين يا ترى تكون آثار هذا النشاط إلا فى مثل هذا الكون وأن تكون الآثار منفعلات ناشئه عن فاعلية صفاته وأيضا فى غير هذا الكون الذى نعيش فيه من سمائه لأرضه ومن ذراته لمجراته وشموسه وسدمه ، وبهذا أو ذاك تتم الفة العقل من حيث أن لا حركة بلا محرك ولا صنعة دون صانع ولا حادثة دون سبب محدث لها ، وبالاجمال فلا يتم موجود إلا بموجد ولا مخلوق إلا وله خالق هذا هو الحق الصراح الذى لا مشاحة فيه ولا جدل وهو الذى ينطبق على مايراه الحس وتتم به ألفة العقل ويحدث به للقلب اليقين وإذا كان هذا هو الحق الصراح فلندع ماعداه من شك المشككين وسطحية السطحيين وأيضا إلحاد الملحدين .

الإنسان

الإنسان بمعناه ومبناه وروحه وجسده كائن حى ، دراك ، مميز وهو اجتماعى بطبعه وأيضا هو حيوان بجنسه وجبلته وإنما يدين لله بفطرته ، وهو فى مركزه الوجودى يتوسط سائر المناطق والرتب الوجودية ، مابين آلهية وطبيعية وملكية ، وحيوانية ، فهو بمظهره الجسمانى كائن طبيعى موضوعى ، تعتوره العوارض والفواعل الطبيعية كأى كائن آخر فى عالم الموضوع .

وأما من جهة ما هو متمتع به من حياة وروح ، وفكر وإرادة ، وأيضا من جهة الحوافز الكائنة فيه للإدراك والمعرفة ، سواء عن طريق العقل والحس ، أو عن طريق الوجدان والقلب ، فهو كائن شاعر مدرك وهذا ما لاشك فيه ، ثم هو أيضا مفكر مريد (وهى الخاصة التى امتاز بها الإنسان عن سائر الكائنات) .

وبهذا وذاك : يعتبر الانسان كائنا إلهيا يتقمص جسدا طبيعيا لأنه نوع أرقى من سائر الحيوانات التى من جنسه ومن الملائكة وهو فى خلقته شخص آلهى روحى مجرد أرقى من الملائكة إلا إذا كان فاجرا فيكون الملك أفضل ، وكذلك هو أفضل من سائر الجن والشياطين إطلاقا إلا أن يتدلى من هذا الأفق بالنفس الأمارة والهوى فيصير أخا للشيطان أو تابعا له ومنقادا بذلك باتباع هوى نفسه الأمارة . (والجن أو الشياطين جنس مستجن فى الوجود النارى النشأة والطبيعة) .

وعلام أسست هذه المكانة للإنسان فى الوجود يا ترى . . ؟ ؟ ذلك

لأن الإنسان جامع لأمرين عظيمين : الأمر الأول : أنه يشمل بروحه وجسده جميع ما فى الحيوان والشيطان والملك من خصائص ، وقد فضل على الجميع بشيء آخر : هو طينته البشرية ، التى يتسامى بها وبالكائنات الطبيعية جميعا بواسطة ما فيه من روح تلقاه عن الله تعالى، وسريرة متصلة بسر الله وبتلك الروح وهذا السر يتصل بالشئون الروحية والالهية ، والطبيعة جميعا فى وقت واحد .

والأمر الثانى : أنه هو المخلوق الوحيد بين سائر المخلوقات الذى حمله الله الأمانة (وهى الحرية والإرادة ، ثم التعرف والعبادة الكاملة المقربة إلى المعبود سبحانه وتعالى دون غيره من المخلوقات ، ولهذا وذلك ميز .

وأما الأمانة : فإنها الأمانة التى حملها الإنسان وأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وهى (الإرادة والحرية وبوجه آخر التعرف إلى الله وطلب المعرفة وقد فسر ابن عباس «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فسرها قائلا : إلا ليعرفون .

وهذا لأن مجرد العبادة قد تكون مدخولة ، ولكن العبادة التى يراد بها المعرفة لا شـــك فى أنها تكون سليمة ومستقيمة ، وهما : الحرية والإرادة أو كمال المعرفة والمعرفة هما ميزتاز امتاز بهما الإنسان وحده دون المخلوقات كلها ، ولذا فضل على الجميع .

فالإنسان من جهة وضعه الوجودى . فى رتبة الملك والحيوان ، ولذا فهو متصل بعالم الوجود الأعلى بطرف ، ومتصل بعالم الوجود الأدنى الطبيعى ـ فى أعلى رتبة منه ـ بطرف آخر .

وأما وظيفة التى خلق لأجلها ، والواقعة فى السؤال : لماذا خلق الإنسان ؟؟ فهو ما يأتى :

أولا : باعتباره الحيوان المفكر تفكيرا كاملا دون الأحياء الأخرى التي تسير بغريزتها ، فهو مكلف من الله تعالى باستمرار هذا الجنس الكريم بواسطة التناسل .

والثانى : أن يكون هو الصلة الوحيدة بين الأرض والسماء أو بعبارة أخرى الصلة الوحيدة بين الخالق ومخلوقاته المتنوعة ولو تمثلنا دائرة الكائنات وأوجدنا فى محيط الدائرة فجوة ناقصة تريد أن تصل أول نقطة فى الدائرة بآخر نقطة فيها يكون هذا هو مركز الإنسان من الوجود وإن فرضنا أن أول نقطة فى هذه الدائرة الجماد فالنبات فالحيوان كان الإنسان هو النقطة الأخيرة التى تكمل بها دائرة الوجود الطبيعى . وضربنا هذا المثل تبيينا لقولنا إن الإنسان هو موضع الصلة بين الأرض وبين السماء أو بين الله وبقية مخلوقاته وفى الآية « إنا عرضنا الأمانة . . . » عقب الله تعالى عليها فى كلامه بذم يراد به المدح فى قوله تعالى « إنه كان ظلوماً جهولا » أى ظلوماً لنفسه باعتبار أنه مجرد حيوان وجهولا أى بقيمة مايحمله من سر الله فيه . لأنه كما قدمنا امتاز بالإرادة والحرية والتعرف إلى مبدعه ومبدع الكائنات جميعا .

ويكون الإنسان بهذا وذاك قد جمع بين النورين : النور الطبيعى الذرى بجسمه والنور الإلهى الروحى بروحه .

وقد علمت أن الفرق بين القوة الخفية والنور — النور الذى تكون عنه الإدراك ، والنور الذرى الذى تكونت عنه الأشياء — هو فرق نسبى قد يعبر عنه تصورا ، كما تعبر عن ضلعى مثلث قائم الزاوية .

فإذا تكونت المادة بحركة الطاقة النووية أو قل النورية ، واستعد الكيان الطبيعى لأن يتكون منه كائن أرقى ، تضامن مع نشاط القوة الطبيعية نشاط القوة الروحية (الحياة) فى تنشئة الكائن الحى ، النامى المتكيف المتولد ، المتطور بمختلف أنواع المتطورات ، من جماد

ونبات وحيوان ثم إنسان ، فكان الإنسان فى أرقى درجة من سلم هذا الوجود رفعة وعظمة ، وصلة ببارىء النسم .

ومن كل ذلك تعلم : أن الإنسان نموذج مصغر للعالم الكبير بما فيه من روح وعقل ومادة وما فيه أيضا من خيور وشرور فإن تغلب خيره على شره اتصل بنور بارئه وبفضله وأن تغلب شره على خيره ارتد حيوانا بل أدنى لقوة فيه وانظر إلى قوله تعالى « أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

ويقول سيدنا على كرم الله وجهه فى مثل هذا المعنى مخاطبا الإنسان :

داؤك منك وما تشعر ودواؤك فيك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذى على نقشه يظهر المضمر

وهذا كله عن الإنسان بنوع خاص ، وأما عن أجناس المخلوقات كلها وأنواعها من جماد ونبات وحيوان ثم إنسان فاعلم . أنه إذا امتزج نور الحياة بنور الطاقة الطبيعية النووية لإيجاد كائن حى ، يتعين حينئذ وجود هذا الكائن الذى تعمره الحياة وذلك عند وجود جرثومة الحياة الأولى فى بنائه ، وهى أول — خلية فى الوجود ، وكان أن بدأت الحياة من قبل فى المياه ، وفى ذوات الخلية الواحدة (الأميبا) .

فإذا تطور ذلك الكائن الحى تبعا لسنة الترقى ، وتنوعت خلاياه وتعددت وظائفه ، وتدرجت من البساطة إلى التعقيد كما فى الإنسان مثلا ، ظهرت رويدا رويدا خصائص إلهية أخرى ، كالفكر والإرادة والابتكار والإلهام) . . . الخ .

فإذا تكاملت شخصية الإنسان ، وتلاقت أضواء الصفات الإلهية فيه بأضواء الصفات الطبيعية الناشئة عن غرائز الجسم معطيات ، أصبح كائنا

إنشائيادراكا، مريدا مميزا، وتميز بذلك عن جنسه (الحيوان) كنوع منفرد بذاته.

فالإنسان على هذا كائن اجتماعى بالطبع، وتتكون أخلاقه وصفاته بحسب تكوينه الوراثى أولا، وعاداته وبيئته التى تربى فيها ثانيا وهو مخلوق بعيد الأمل والنظر بحكم نوعه، ولكل هذا يصبح فؤاده مرآة تنعكس عليها سائر أضواء الصفات الإلهية كالحياة والعلم والقدرة والادراك والارادة .الخ (إلا إذا أفسدت قوة الانعكاس على سطح مرآة نفسه بالانحراف أو الجهل أو سوء الخلق كما يفسد الطلاء العاكس للأضواء فى المرآة الطبيعية لما يطرأ عليها من صدأ أو تلف (ويرث ايضا مع ذلك سائر الصفات الطبيعية من نباتية أو حيوانية تلك التى ورثها من أسلافه ومن جبلته الطينية، ويكون لها تأثير كثير أو قليل فى سمو استعداده وخلقه وانحطاطه.

وهكذا أن تسامى الإنسان وتكامل بالكفاح أو الاستعداد والرياضية وإما أن أهمل وتدلى وكان مطواعا للغريزة (كالحيوان) يحدث الانحراف ومعاشرة السفهاء من الناس سبيل غريزى فيه هذا : والإنسان بكل ماوهبه الله من الاستعداد عال، ورزقه من تأهيل للصواب يصبح هو الكائن الوحيد الذى يقرب الوجود الإمكانى الكونى من الوجود الوجوبى الإلهى كما قدمنا وهى صفة لم يحظ بها كائن غيره من سائر الأحياء على وجه الأرض، وهكذا يشرف العالم الأدنى من طرق روح الإنسان على العالم الأعلى عن قرب، ويتجلى العالم الأعلى فيه بأضوائه وأنواره على العالم الأدنى.

ومع هذا وذاك يظل الإنسان اجتماعيا بطبيعته، ومفكرا بادراكه وملكا بروحه وكائنا إلهيا ببصيرته، وأيضا حيوانيا وشيطانيا بغرائزه وطبيعته الدنيا وبشذوذ جبلته إن لم تكن له شخصية سوية بالوهب الإلهى او تقوم بالأخلاق الفاضلة عن طريق الرياضة النفسية.

وهنا يجتمع نور الادراك الحيوى الإلهى مع نور الإيجاد الإشعاعى الكونى الطبيعى فى نقطة واحدة هى ذات الإنسان، فيشع الوجود عن علته الخفية للإنسان من خلف مظاهر الطبيعة وعللها الثانوية، كما اجتمع فى بدء انشائه لطبيعة النور الحيوى والنور الإشعاعى الذرى متضامنين فى نقطة واحدة من نشاط خصائص الحقيقة المطلقة، وهى الطاقة العامة التى مرجعها إلى القوة. والقوة قدمنا أنها القدرة الالهية عاملة فى الوجود الروحى

والطبيعى ، وكل ذلك يدل بسائر الدلالات والشواهد على وجود حقيقة الحقائق .

وعليه : فما عسى أن تكون وظيفة الإنسان العليا فى هذا الوجود ياترى ؟ ؟ والجواب : إن الإنسان قد خلق مستعدا لأن يعمل بيده ، ويفكره بعقله ، ويؤمن بقلبه ، وقد أعد مع ذلك لأن يعرف نفسه وربه، وما حوله فى الوجود من أفكار وأشياء فيكسب خبرة وتجربة وحكمة ، وبذلك كله يكون هو الكائن الوحيد الذى يصل حلقات الكائنات كلها بمبدعها الأعظم ، بمعنى أنه يكون نقطة الصلة ومرآة التجلى الإلهيين وكذلك للإلهام والاستعداد للنبوة وللرسالة فى الافراد الفائق الفطرة فى الجنس عن عادة الطبيعة .

النفس

حقا إن معرفة الإنسان لنفسه من أدق الأمور وإخفاها ، وأعوصها بحثا من حيث ما تنزع إليه النفس من حسنات أو تنزو به إلى سيئات ، وذلك من جهة ما كمن فى النفس البشرية من خصائص طيبة أو نزوات رديئة فيكون ذلك مما يترتب عليه تفرق السبل المؤدية إلى خيرها أو شرها فيأخذ الإنسان خبرة عنها بالفكر أو بالعمل أو بهما معاً فى وقت واحد أو بالهداية الإلهية مطلقا حتى تصير من أوضح المعارف وأقربها لمن أبصر وإن كانت دراسة النفس من الدقة بمكان عظيم ، وقد تقع النفس فى شراك وحبائل مخزية مدنسة لطهارتها بسبب الجهل ، والجهل فاعلم هو أكبر الشرور وحسبك أنه مدخل الشيطان إلى الإنسان .

وإذن : فمن الواجب على كل كائن إنسانى حتى يدرك ويعقل ، أن يعرف نفسه من جهة مواهبها وخصائصها ، وأيضا من جهة عيوبها ونقائصها الصادرة عن غرائزها ثم يدربها على الخير دون الشر ، لاسيما وأن النفس لو هذبت وثقفت ، وارشدت إلى طريق الصواب ، كانت مصدرا صالحا ونبعا جاريا لسائر العلوم والمعارف ، حتى العلم بالله ! ! وهى بشكل ذلك تصبح ملهمة بسبب إراداتها المتصلة بإرادة الله ، وعلى الأخص عندما تستقيم وتستنير وتعرف .

بيد أنها فى الوقت نفسه لو جهلت أو انحرفت ، تكون مصدرا لسائر الشرور والنقائص الكامنة فى جبلتها بحكم الغريزة وخصوصا إذا أعوزها العلم بصفاتها وأحوالها وكيفية سياستها ومدى استجابتها للحق ، وعندما يجهل الإنسان

أحوال نفسه يحصل حتما كل ضعف وكل نقص ، بل وكل خفوق فى فقه أغراض هذه الحياة ، وكيفية السير مع نواميسها ، وليس هذا فقط : بل أيضا تجهل حينئذ مصيرها فى العالم الآخر .

والعلم بالنفس وأحوالها ومسالكها ، وما ركز فيها من غرائز أومواهب يصرح لامحالة تصريحا واضحا من طريق المقابلة والمعادلة بين أحوال النفس وأحوال الجسم وما بينهما من صلات وعوامل تؤثر وتتأثر وهنالك يعلم : أن فى معرفة النفس وقوانينها ، سر القوة وسر السعادة ، والانسجام مع الحياة[1] وبعكس ذلك : تكون النفس نفسها سبب كل تعاسة وكل شقاء اجتماعى وحيوى بل وكل مرض ، بسبب اضطرابها وفقدها لسكينتها : أما إذا رفع الجهل عنها تكون هى الميدان الأعظم لسائر ألوان المعرفة ، وفروعها من علم وفلسفة وفن ودين ، فضلا عن ما يحصل لها من السكينة والثبات بسبب اليقين الحاصل عن ذلك ، وهذا نفسه يكون سبيلها إلى معرفة ذاتها ومعرفة ربها ، وحينئذ تكون النفس الانسانية مجلى الهدى والخير ، والعلم والحكمة بما يفاض من أسرار مبدعها عليها

وهذا وذاك كله يوجب أن يكون علم النفس مقدما على كل علم سواء معرفتها مقدمة على كل معرفة فلسفية أو علمية أو دينية ، ومن ثمة يلى ذلك العلم بالأخلاق والسلوك الشخصى .

وليعلم المطلع على هذا الكلام ، والمعنى بتربية نفسه . أنه فضلا عن ما يحصل له من معرفة عامة ، أن سكينة النفس أغلى وأسمى من كل قيمة

---

(١) اتفق علم الطب البشرى ، وعلم الطب النفسى على أن التبادل بين النفس والجسد من جهة التاثير المعنوى والعصبى والعضوى أمر واقعى ، ويحصل بنسبة ٤٠٪ للجسم على النفس فقط و ٦٠٪ للنفس على الجسم ، وفى الظروف الخاصة يكون التاثير النفسى اكثر ، مثل الانهيار العصبى والهوس والجنون وما الى ذلك .

فى الحياة كالمال وغيره وحتى من الصحة نفسها . لأن المال والصحة لا ينفعان ولا يثبتان إلا مع سكينة النفس وقد يحتمل الفقر وتساس الصحة مع سكينة النفس أيضا . فان اضطربت النفس اضطرب كل شيء مع اضطرابها .

ويقينا أنه يوجد بين النفس وجسدها الذى تعمره ، تبادل وتكافؤ حقيقى فى التأثير والتأثر المتبادلين بين النفس والجسم ، قوة وضعفا أو صحة ومرضا وإن كانت النسبة للنفس فى هذا التأثير ٧٠٪ وللجسم ٣٠٪ فقط فانه تفاعل على كل حال أما إذا أزيل جهلها وصح نظرها ، واستوت وجهتها فتوازنت قواها ، صحت وسلمت وانسجمت مع جسدها ومع الحياة .

ومعنى ذلك : أنه إذا انسجمت النفس وجسدها السوى وتعاونا ، صلحت الحياة ، واستقامت ، وحصل الغنى النفسى ولو مع القليل من المال الذى يحوطه حسن التدبير ، وحسنت صحة الانسان جسدا ونفسا ، وتحققت فى نفسيته فضيلة الأخلاق . فاذا تنافرا واضطربا — النفس والجسد معا أو أحدهما — بالهوى أو بالمرض وعلى الأخص (التفسانى) أو بمحايدة سلوك الطريق السوى ، أو بالانهيار النفسى أو العضوى عقب الصدمات المرضية للنفس أو الجسد ، اضطرب كل شيء فى الحياة الخاصة والعامة ولا ينقذ هذا الانسان المتداعى الشخصية حينئذ سوى الصحو الروحى ، والتشبث باحياء الارادة ، وأثارتها لتوجيه النفس نحو صحتها وسلامتها (وهنا ينفع الايمان بالله والاعتماد عليه نفعا عظيما كعلاج نفسى قيم) ثم يأخذ الإنسان فى دراسة نفسه من جديد بعد علاجها بحسن سياستها وعرفان نزعاتها الخيرة ونزواتها الشريرة ، وما فيها من مواضع القوة ومواضع الضعف فيتم له المراد من الصحة النفسية والجسدية .

وقد صنع سقراط حسنا إذ بنى فلسفته على الحكمة الذهبية القائلة

(اعرف نفسك) معتبرا أن هذه المعرفة وحى سماوى هبط إلى وعيه من السماء لا كلمة قرأها على باب هيكل دلفى وجعلها شعارا لمسلكه فى الحياة النفسى والفلسفى معا .

وهذا لا يمنع أن يعتبر كل إنسان نفسه أنه هو نفسه المخاطب بتلك الحكمة ولا يمنع أيضا أن يكون مصدرها السماء !!

وللنفس عند أهل التصوف الشأن الأكبر فى السلوك الشخصى للسلوك العام لأنها عندهم حجر الزاوية فى موضوع بحثهم ومنهج رياضتهم الموصلة إلى مولاهم الحق وذلك لأن النفس إذا تهذبت وصاحت كانت هى المصباح المنير الذى يضىء لهم سبيل الوصول إلى معرفة الحقيقة الالهية ، وإلا كانت الحجاب الأعظم الذى يحجب السالك عن الوصول إلى تلك الحقيقة وذلك إذا جهل نفسه وجهل سياستها !! .

وفى التعاليم الدينية للنفس المكان الأول ، فتعبر عنها الديانات تارة بمعنى القلب ، وتارة بمعنى الروح ، وتارة بمعنى اللب وانظر إلى قول الله عز وجل « وما يذكر إلا أولو الألباب » هذا وتارة تكون بمعنى المارد الشيطانى الجاثم فى هيكل الإنسان ، ذلك الذى يبعده عن طاعة الله والتقرب إليه تحت اسم النفس الأمارة بالسوء .

وأما تعريف النفس فى نفسها وفى ضروبها ومسالكها فلسفيا وعلميا ، فهو من أصعب الأمور !! لأنها حينئذ تكون هى التى تعرف نفسها بنفسها فإن لم تكن نفسا متينة مدربة اختلطت عليها سبل الخير والشر ، فتقف وسطا فى مكان السلب والحيرة ، أو تندفع اندفاعا مع تيار الشر والجهل ، أو تزهد فى الدنيا زهادة تضعفها ، وهذا الزهد الظاهرى غير الزهد الحقيق الذى مكانه القلب وإن أوتى الانسان عظمة سليمان أو مال قارون ، ومعنى هذا يستوى عند الإنسان فى كلا الحالين فيكون شاكرا فى كليهما (العطاء والمنع)

والصبر على أحكام الله ضربا من ضروب الشكر لأنه حينئذ يكون نعمه كبرى (وناهيك بنعمة الرضى) . والنفس الانسانية إذا استقامت واعتدلت وصارت محلا لكل خير وكل فضل لأنها حينئذ تحوى ســـائر ما أهل به الإنسان من كفايات ، ومواهب ومعارف ومدارك وعلوم وذلك لأن الذات الإنسانية أو الروح بتعبير آخر : قطب روحى تشع عليه أضواء صفات الله القديمة وكمالاته .

والكلام فى علم النفس كم مشترك بين علم النفس العلمى وعلم النفس المسلكى ، وبين الدين وبين الفلسفة ، لأن للنفس فى الدين قيمة كبرى من جهة علوم الدين .

ومن جهة العلم عموما : فإنها مبحث من مباحثه العلمية ، بل هو أكبرها وأعظمها شأنا . ويبقى معنا سؤال يصح أن نجيب عليه :

هل النفس الإنسانية حالة فى الجسد الحيوانى الذى نعمره كما يحل الشىء ذو الجرم فى شىء ذى جرم آخر أكبر منه ؟؟

والجواب : أنه لا يمكن بأى حال أن ذلك الجسد المقيس الموزون المحدود يحصر النفس الإنسانية كحيز لها . لأن النفس أو الروح بعبارة أخرى كشكل كائن معنوى أو إلهى لا يتحيز قط فى حيز مادى ، وإنما الروح تتصل بالجسم اتصالا مشعا فقط ، كما تشع الأنوار الطبيعية الغير مرئية على الأقطاب المتعددة لاستقطابها[1] ، فتشع الضوء بسبب ذلك الاستقطاب وذلك للتجلى الروحى يكون بدرجة كبيرة فى اليقظة ، وقليلة فى النوم ، ومتوسطة فى الرؤيا ، وبخيط تذكارى عند الموت ، إلى أن تصل بالجسد ثانية فى حياة أخرى ، وفى خلق آخر ألطف .

---

(١) الاستقطاب معناه التجمع كما تتجمع أنوار الكهرباء فى أعمدتها وأسلاكها أو اطياف التصوير الشمسى فى بؤرة عدسة الآلة اللامة للأشعــة .

ولعلاج النفس أو استمرار سلامتها يجب أن يعلم المطلع على كلامنا هذا : أن الفكرة سواء كانت خيرة أو شريرة تبدو فى أول الأمر بسيطة كخاطره معنوية صغيرة لتتصل بخلايا التفكير فى المخ ، فان أحاطها الإنسان بما يشبهها ويتناغم معها ، ويقويها بأمثالها من الخواطر ومشهود الأماكن والظروف المناسبة وإجمالا بالجو المناسب لها ، وكلها ظروف تساعد على تثبيت الفكرة فى المخ للخير أو للشر سواسية فإذا أحيطت الفكرة بأمثالها نمت وانطبعت فى خلايا المخ انطباعا ثابتا ، فان لقن الإنسان الفكرة لنفسه مرارا تلقائيا ذاتيا وهو يعى أولا يعى ، انطبعت فى الأعصاب ومن ثم تنطبع فى العضلات فيتم فعل الشر إن كانت بذرة الفكرة شرا ويتم فعل الخير إن كانت البذرة خيرا .

فأحسن الطرق لعلاج النفس فى سائر الأحوال إزاء ذلك أن يلقن الإنسان نفسه فكرة القوة وخصوصا فى الخير ، لتقوى ثم تنطبع فى المخ أو فى الأعصاب لأن الفكرتان تمكنت بالإيحاء من الغير أو بالتلقين الذاتى وكانت تؤدى إلى جريمة مثلا ، يتم فى هذه الحالة مفعولها ويصعب حينئذ كفاحها ، ولا يمكن انتزاعها إلا بوازع قوى من عقوبة أو إرادة مصممة ، ولا يبقى بعد ذلك من دوافع النفس سوى الصورة الظاهرة لصيغة العمل الذى يحدث اضطراريا من طريق (الحافز والاستجابة) .

الإنسانُ والمعرفة

إن المعرفة فى إطلاقها أعلى وظائف الإنسان فى الحياة النفسية والوجودية ولأجلها كان هو موضعَ الصلة بين الخليقة وخالقها بشريطة أن تكون معرفته كاملة مطبقة على سائر كفايات الإنسان للمعرفة وعلى أعماله وذلك هو الأكمل كل ما لم ولأجله كل ما خص الله به فؤاد الإنسان من إدراك وبصيرة وعلم بالحقائق النسبية وتشوف الحقيقة المطلقة الكلية بقدر الطاقة فتنتج تلك الخصائص فى الذات الإنسانية عرفانا كونيا — طبيعيا وعقليا وإلهيا — لأنه جبل بفطرته على طلب الحقيقة مطلقة ومتوحدة وإن حجبته عنها أستار المظاهر الكونية (وهذا الاستعداد فى الإنسان يوهب إلى كل مخلوق إنسانى على قدر استعداده مالم تعقه العوائق ولذا قلنا إن المعرفة غذاء للقلب ، ونور للعقل ومتعة للحواس .

ثم إن للإنسان وراء ذلك وظيفة طبيعية ثانية هى : حفظ وجود النوع كما قدمنا فى غير هذا المكان وبعبارة أخرى استمرار الحياة بالتوالد (ومتابعة ناموس الترقى) وذلك ما سنتكلم عنه فيما بعد .

وبالمعرفة يدرك العقل أنه مدرك للناحيتين الطبيعية والإلهية ،فتتجلى له جميعا فيعى مفاهيمها ومدلولاتها إن وعى .

وذلك لأن الإدراك الحسى يحول له الأحاسيس من صور كونية إلى معان ومدارك عقلية بواسطة الحس المشترك وتداعى الصور والمعانى عليه فتكون تلك المدركات ملائمة ومتناغمة مع التعقل والتصور العقليين فى الذهن الإنسانى ، وأما الإدراك الذاتى المحض فيأتيه من قبل ذاته عن طريق التفكير أو الإلهام والحدس .

وبهذا أو ذاك يتصل الوجود الطبيعى الإمكانى بالوجود الإلهى الوجوبى عن طريق ذات الإنسان ، وما فيها من كفايات ومدارك حسية وعقلية وقلبية بصيرية للمعرفة .

فتتنوع كفايات المعرفة أو درجاتها بذلك إلى أربع رتب ، وإليك بيانها :

١ — الإدراك الحسى الموضوعى : وبه تنتقل أطياف الأشياء الكائنة فى عالم الموضوع (عالم الحس) إلى الذهن عن طريق فريعات الأعصاب الحسية السمعية والبصيرية والشمية والذوقية — فتصير فى الذهن عمليات إدراكية معقولة بعد أن يطرح الذهن عنها أغلفتها المحسة كالألفاظ والأصوات والذبذبات وغير ذلك .

٢ — الإدراك العقلى الذاتى : وموضوعه المقارنة بين التحليل والتركيب الذهنيين ، وتصنيف القضايا الإدراكية عن طريق منطقه العقلى الضابط لمنهج تفكيره ، فهو يحلل الحقائق ويستقرىء أبعاضها ليستنتج منها نتائج متعددة بناء على مقدمات عقلية ذاتية تنبع عن ذاته أو تكون بديهية كونية حسية تتألف من خبرته الموضوعية والذاتية فى عالم الموضوع وفى عالم الذات ، وهنا يتجاوب فى تفكيره عالم الذات وعالم الموضوع ، فيفتح له ذلك فقها خاصا فى الوجود ناشئا عن الخبرتين : الذاتية والموضوعية ، وفى هذه النقطة بالذات (نهاية العلم وبداية الفلسفة) .

وبعبارة أخرى: تأسيس النظريات القابلة للتطبيق العلمى والخبرة الحسية التى تتصل بمجال الفلسفة ، فيتناولها العلم كنظريات فلسفية قابلة للتطبيق العلمى فيطبقها بالتجارب العلمية ، فإذا ما عرف أسبابها وقوانينها وعلائقها وكيفيات اجتماعها وافتراقها ، والأسباب المؤثرة عليها ، استنتج من كل هذا الاستقراء نتائج علمية مجتمعة ، وهى فى عالم البحث نتائج إجمالية تعميمية

تتصل بعالم الفلسفة فتكون (فلسفة للعلوم) ، وقد يحصل الإنسان بتلك الوسائل على جملة من الحقائق النسبية ، وتظل الحقيقة المطلقة تلمع له من بعيد ، فإن أوتى معرفة أعلى وحكمة أعمق تعرف إلى تلك الحقيقة عن كثب بما يفاض على فؤاده من أضوائها الخفية ، وبذلك يعود العلم إلى أحضان الفلسفة بعد انشقاقه عنها بنتائجه العلمية الواقعية ، وهنا تتقارب وجهتا النظر العلمى والفلسفى .

٣ — الذوق الفطرى : ومنشؤه الوجدان المتأتى عن تذوق المعارف الوجودية للحقائق الذاتية والموضوعية كونية كانت أو عقلية أو إلهية حين تبزغ له من أوجها العالى وهى مصفاة من شوائب الحيرة والتردد أو عدم التثبيت وذلك يشمل ما فى الوجود كله من مدركات عقلية أو حسية أو قيم واخلاق ، وفن .

فيكون حينئذ الحكم على الحقائق حكما ذوقيا فطريا شعوريا ، وإن خالف بعض المخالفة منطق الحس ومنطق العقل ، بيد أنه مصحح لهما ، وفوق هذا فإنه معيار الحقائق والقيم والانعطافات النفسية وميزان الأخلاق لأنه (الذوق) .

٤ — البصيرة : وتسمى فى لغة الدين (نور القلب أو لبه) ، وفى لغة الفلسفة (الذوق الفطرى أو الحدس) ، والبصيرة هى مطلق الشعور التلقائى ، وموطنها العقل الباطن أو قل القلب الذى هو الموطن الحقيق لسائر كفايات الذات الإنسانية متكيفا فى الشخصية ، ومنها التعقل الصحيح والإلهام أيضا ومنها كذلك البداته العقلية والدلائل الرياضية (والإلهام) يمد سائر الكفايات الأخرى فى محاولاتها الانعطافية أو الفنية أو الإدراكية العقلية ، أو الإدراكية الحسية أيضا بشعاعات منكسرة تنبعث عن بؤرة ذاته المركزية .

والبصيرة وراء كل ذلك هى العين الروحية الصادقة التى تدرك الحقا

تلقائيا بشعور ذاتي بدهي ، وإدراك فطرى إلهي يفوق كل إدراك والبصيرة وسيلة النبوة ومبعث الابتكار والعبقرية ، ونظرها هذا يمتد ويسمو فوق الإدراكين العقلي والحسي ضرورة بمراحل يعجز الإدراكان عن تناول آفاقها .

ويسمى الله ذلك كله (الحكمة) والحكمة يؤتيها من يشاء من عباده، ولن تكون الحكمة حكمة حتى يجتمع فى وعى كل من أوتى هذه الحكمة سائر الكفايات الحسية والعقلية ، والذوقية ، والقلبية كاملة ويكون عماد كل ذلك البصيرة .

والبصيرة من جهة أخرى هى بصر العقل الباطن ، البصر الشاعر الواعى فى الإنسان رغم من يسميه اللاواعى خطأ ، وفى مدخرات ومشاعر العقل الباطن كم عام من الشعور الذاتى ، تشترك فيه سائر الكائنات الحية على تفاوت فى الدرجات قوة وضعفا ، مابين بسيطها فى الإدراك وعظيمها فتبدو بشكل غير واع فى الجماد وتبدو بشكل شبه نائم فى عالم النباتات ، وبشكل متحفز غريزى فى عالم الحيوان ، وبشكل إدراكى فاكر وشاعر فى نوع الإنسان .

والنتيجة من كل هذا أن المعرفة الكاملة لا تنال إلا بسائر هذه الكفايات مجتمعة ولن تكون إلا للإنسان طبعا ، بل هى فى أفراد بنى الإنسان نسبية ومتفاوتة الدرجات وبهذا وذاك يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تتسامى فى ذاته جميع الحقائق النسبية وتتكامل الحقائق الكلية المؤصلة للكائنات كما تقــــدم ، وبها يواجه الإنسان الحقيقة المطلقة التى هى المجال الأعظم لتلك المعرفة — معرفة الوجود الكونى والإلهى معا ، وما فى الكائنات بين ذلك من خصائص إلهية ، وإنسانية وطبيعية .

وبعبارة أخرى : أن ذات الإنسان هى النقطة المركزية التى يجتمع الكل

فيها ، ولذا فانها تجمع كل ما وجد فى محيط دائرةالوجود من حقائق وكلها مجتمعة فى شخص الإنسان لأنه العالم الأصغر فى مقابل العالم الأكبر والذات الانسانية (١) مهيأة بطبعها ، وبما وهبت من المواهب الإلهية لإدراك سائر الممكنات وحقائقها العليا فى مركزها العلمى ، فتشع عليها الحقيقه بانحائها فيدرك الإنسان ذو الوعى وجود (الألوهية) حق الإدراك وبالتالى يدرك وجود الإدراك نفسه ، وبالثالث يدرك وجود الكائنات الطبيعية الكونية جميعا ، ثم تنعكس تلك الأضواء ثانية على مرآة الذات الإنسانية حاملة صور بقية الوحدات التكونية ، أو النقط الوجودية الدنيا بكيفياتها وخصائصها ، فيصير الكم ، والكيف ، والحد ، والصورة ، واللون كلها خصائص وصفات أولية أو ثانوية اعتبارية وتكون فى وعى الإنسان علوما عقلية ، أو حسية ، أو فلسفية ، أو معرفة إلهية مستقرة فى الذات الإنسانية ، تأتى إليها طورا من عالم الذات نفسها ، وطور آخر من عالم الموضوع الخارجى صادرة عن معانى الأطياف الكونية المتداعية على إدراكنا الحسى ، ولذلك اختلف الناس فى الوعى بحسب قوة كفاياتهم للمعرفة وضعفها وشمولها أو الإلمام فقط ببعضها فالبعض يقف مع الحس ، والبعض يقف مع العقل ، واختلفوا بسبب ذلك فى النظرة إلى حقائق الأشياء الوجودية الكونية ، والمعاني العلية التى تسببها ، ومن هنا يحدث

---

(١) وفى هذا المعنى نفسه يقول سيدنا على كرم الله وجهه :

داؤك منك وما تبصر ... ودواؤك فيك وما تشعر

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الاكبر

وانت الكتاب المبين الذى ... على نقشه يظهر المضمر

أى على ما أودع فى الانسان من حقائق وأسرار يظهر ما هو مضمرفى عالم الوجود الخارجى كله .

الجدل أو السفسطة والبعض يترقى إلى أضواء البصيرة فتلمع له من الغيوب لمعات روحية وإلهية موهوبة تهدى العقل والحس للصواب وترقى بهما إلى ميدان الحقيقة المطلقة ، فترى الحق لذات الحق ومن استكمل كل ذلك أطلق عليه إسم العارف أو الحكيم والله يؤتى الحكمة من يشاء «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » واسم العارف هنا مرادف لاسم الحكيم ، والعارف والحكيم يراد فهما اسم (رجل الله) ويقول الله تعالى : «وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » .

المنطـق

قد قدمنا : أن الدين والفلسفة والعلم حقائق نسبية وجودية تجمعها أرومة واحدة هي الحقيقة المطلقة التي تشمل في توحدها وفاعليتها سائر تلك الحقائق النسبية وتهدف إلى غاية واحدة أيضا وهي النزوع إلى طلب العلة الأولى في محيط المعرفة العامة وحينئذ قد ينظر إلى هذه المسألة من زوايا ثلاث ، وبعبارة أخرى من خلال مناهج ثلاثة : منهج الدين ، ومنهج الفلسفة ، ومنهج العلم وهي في مجموعها وإن اختلفت في المناهج فانها جميعا تتفق في المبدأ وفي الغاية ، والمبدأ في الدين سائق الفطرة ثم العجب من صنع الصانع الخالق المبدع فيما صنع ، تلك الحالة التي تستوجب حب الخالق وعبادته ، وتلك هي الغاية في منهج الدين وكذلك الفلسفة تبحث بدورها عن العلة الوجودية والسبب الأول لكل ما هو كائن من ظواهر الوجود وأسراره الخفية ولا سيما فيما (بعد الطبيعة) وغاية الفلسفة في منهجها عرفان العلة المطلقة بعد عرفان العلل الثانوية النسبية .

وأما العلم فانه يدفع العالم إلى الدهش والعجب أيضاً من أحوال الكائنات في تصرفها وتنوع حركاتها وأجناسها ، وأنواعها وفصولها . . . الخ وبهذا يؤهل العلم أهله إلى استقراء وحدات الكائنات في تصرفها ثم تصنيفها للوصول إلى خصائصها ومنافعها وأسبابها بغية الوصول إلى المعرفة أولا ، ثم استنباط ماينفع الناس ثانيا .

وها أنت ترى أن الغاية في المناهج الثلاثة إجمالا هي : طلب الحق في ذاته ولذاته .

هذا لو صحت عقائد الدين ، واستقام طريق الفلسفة وارتفعت آفاق العلم إلى أوجها العالى .

ويؤخذ من كل هذا : أن حقائق الدين ، وحقائق الفلسفة ، وحقائق العلم ، كلها تقوم كشواهد أو معالم أو كدلائل ، أمام الوعى الإنسانى ، الذى لا يفتأ ينشد الحقيقة المطلقة فى كل شىء ، على قدر مافى طاقته من مدى واسع أو محدود ، غير مكتف بما يصادفه خلال الكائنات من حقائق فرعية ونسبية .

وفى مقابل تلك الحقائق الكونية يوجد فى وعى الإنسان كفايات ثلاث قدمناها ، وكلها تستحثنا على الجد فى سبيل المعرفة العامة ، وتتخذ الفلسفة لها معيارا فى هذا السبيل يسميه الباحثون المنطق سواء كان هذا المنطق منطقافلسفيا أو علميا أو دينيا،أو كان منطق الفطرةالذوقى الموهوب للإنسان من الله والمغروس فى فطرته ، ولا تعجب فان للدين منطقه كما للفلسفة منطقها وللعلم منطقه كذلك ، وزد على هذا ماغرس أصلا فى تحيزه الإنسان العقلية من منطق بديهى أعد للتميز بين الخطأ والصواب وهذا المنطق الفطرى البديهى يعرفك أن الثلاثة أكثر من الواحد ، وأن الشمس لا تشرق من المغرب ، ولا تذهب فى غروبها إلى المشرق ، هذا فى نفسه منطق . ولو لم يتعلم الإنسان علوم المنطق المعروف ، وفقط يجب أن يكون منطق كل واحدة من الكفايات سليما وكاملا .

ولما كان ذلك هو الواقع ، كان لكل من الدين والفلسفة والعلم منطقه الخاص به ، ومنهجه الذى يتجه به فى سبيل بحثه ، وإن تلاقى الجميع فى النتائج على بساط التوحد ، وفى رحاب المعرفة على إطلاقها .

وتتكون نزعة التدين عن فكرة بديهية أولية ، مضمونها : أن لا بد لهذا الوجود العجيب ، المنتظم الوحدات والعلائق والقوانين والأغراض من علية أولية خالقة ، أو قل إله مبدع ومسيطر ، قياسا على القاعدة البديهية المنطق القائلة : بأن لابد لكل مصنوع من صانع ولكل معلول من علة .

فالدين إذن يبني منطقه وقواعد منهجه على بداهة الإيمان فى الإنسان بوجود الصانع أولا ، ثم البحث بعد ذلك فى المصنوع وصلته بصانعه ومبدعه ، وتكون النتيجة عنده : عقيدة قوية أو ضعيفة بحسب حاله فى ذلك قوة أو ضعفا ، ثم يرتب على نفسه بعد ذلك وظائف من العبادات والمعاملات تعبر عن التعظيم ، والشكر لذلك الخالق المبدع وهو الله ، على ماخلق ووفق ، وأهم تلك التعبدات حسن السلوك فى التعامل مع الله ومع الناس .

وأما الفلسفة ، فقد صدرت عن هذا التفكير نفسه ، ولها أولياتها وبداءتها أيضاً ، وإنما فى قالب من التساؤل العقلى والباعث عليه الدهش والعجب من أسرار الوجود فى علله الثانوية ، وفى تصرفه أيضاً وذلك بعد أن يندهش الإنسان ويتحير عقله فيتساءل العقل : ما هـــذا الوجود وماعلته ؟ فيذهب مفكر إلى وحدة العلة وآخر إلى الاثنينية وغيرهما إلى التعدد ، ثم يتساءل العقل الإنسانى أيضاً . من أنا ومن أين جئت ؟ وماسبب هذه الكثرة التى تظهر فى وحدات الوجود وما هذا النظام الذى يبدو فى قوانينه ؟؟ وهل ياترى مبدأ هذه الكثرة ونهايتها يؤول إلى وحدة مطلقة ، أو اثنينية أو تعدد ؟ وبعبارة أخرى أوضح : هل للوجود علة واحدة صدر عنها ، أو علتان متقابلتان ، أو علل متعددة أم العلة الأصلية وحدة مطلقة تعود إليها سائر أعيانه وحقائقه ومظاهره النسبية .

والعقل من دأبه أن يرجح التوحيد بداهة ، ولكنه يأبى إلا البحث

لماذا كان هذا ولم ترتب عليه ذلك بغية الحصول على اليقينية الفكرية ، والالفة العقلية اللتين سبقه إليهما رجل الدين بمحض الإيمان .

ولكن كيف الوصول ؟ وبأى منهج للبحث يحصل الفكر على معرفة يقينية تؤكد مارجحه رجل الدين من قبل ؟ الطريق إلى ذلك فى نظر الفلسفة هو المنطق العقلى الصحيح ، فيتخذ العقل من امكانياته الذهنية وكفاياته للمعرفة، منطقا صالحا لمنهجه الفلسفى ، ثم يضع على هذا الأساس علما للمعرفة مطابقا لما عنده من كفايات لفهم خصائص الجزئيات الكونية أو يبدأ بالاستقرائه للجزئيات وهو الأفضل ، فإذا وصل للكليات وهو مقتنع أن نهجه فى استقرائه كان سليما ، استنتج بناء على ذلك قواعد ونتائج عامة تسبقها فقد مات صحيحه أو خاطئه فيبنى عليها الترجيح المطلوب عنده المؤدى إلى اليقين أولا يبنى ويرتاب فى النتائج لعدم الدليل المرجح فيحدث الشك ويبدأ البحث من جديد مستعينا بعلم المعرفة لينال العقل ألفته بالوصول إلى نقطة غائية . هى الحقيقة الى كان يبحث عنها ، والتى يجب أن ينتهى إليها ولو كانت تلك الحقيقة مجرد مظاهر الأشياء (المادية) فيجعلها كل الموجودات أو يقنع العقل نفسه بأنه هو نفسه المادة ، كل شيء فى كل شيء . هو العلة وهو المعلول . وهو الحقيقة المطلوبة وهو الباحث موقفا سلبيا فيعتنق الشك المطلق لعقيدة أو يلحد ، فيكون الالحاد معتقده الرئيسى كدين يدين له فيحل فى شخصه محل العقيدة الحقيقية بمبدع الكائنات أولا يرضيه كل هذا من شك وإلحاد فيهتدى بعد الجهد والكد فى البحث إذا استقام نظره وصحت فلسفته وتفكيره إلى اقتناع يقارب ما اهتدى إليه برجل الدين .

وإذن فيكون المفهوم من تعريف المنطق العقلى أنه دعامة الأسلوب الفلسفى ، ومنهج للفلسفة يهيء للباحث قواعد البحث فى ظواهر الوجود بغية الوصول إلى حقائق تلك الظواهر وعللها ويتسع أفقه أكثر فيتعرف

إلى العلة المطلقة التى تشملها جميعا أن استقامت طريقته فى البحث مستعيناً بعلم المعرفة أيضاً .

وإن لم يمكنه ذلك تعرجت فلسفته وتعرج معتقده ، وجنح إلى الشك أو الالحاد أو الاعتقاد بأحقية المادة الكونية نفسها للعلية أو العقل فى ذاته وهذا مايسميه المنطقيون بالحلقة المفرغة التى فيها يدور العقل حول نفسه فاذا كان الدين يبحث عن إبداع العلة فى معلولاتها تلك التى اعتقد وجودها مبدئيا مترقيا فى كيفية حكمتها وأغراض تلك الحكمة ، ويكون أسلوب الفلسفة هو البدء بمعرفة المعلول أولا واستقرائه قبل معرفة العلة ، تقصيا لاستنتاج العلة الجامعة والسبب الأول ويكون الباحث مستعينا بقوانين المنطق العقلى وكفايات علم المعرفة وحينئذ يقتصر على كفاية واحدة كالحس أو كفايتين كالحس والعقل ، أو ثلاث كفايات كالحس والعقل والذوق الفطرى وهذا الأخير هو النظام الأكمل ، هذا إذا استقام الطريق الفلسفى ولم يتعرج ، وإلا نقصت معرفة الفيلسوف بقدر نقص كفاياته للمعرفة .

أما العلم فانه يتسلم من نتائج نظريات الفلسفه أو أولياتها المنطقية مقدمات لتجاربه وخبرته العلمية التجريبية ، وذلك بطريق استقراء المحسات بواسطة الحواس الخمس وما يساعدها من مناظر موضحة ليصل إلى الفقه بخصائص أعيان الأشياء الوجودية وقوانينها التى تنظمها وتحكمها باحثا فى صفاتها الأولية والثانوية ، والأ.راض العلمية التى تصلح لها تلك الخصائص لينتفع بها الناس فى حياتهم العملية ويعلموا صورة صحيحة عن الكائنات الحسه التى يعيشون بينها .

فأسلوب العلم موضوعى تجريبى إمكانى ، ويقوم منطقه على الخبرة الحسية الموضوعية فقط إذا طابقت حقيقة أو حقائق عقلية يمكن الاستناد إليها والاستفادة من وحدات الكائنات بواسطتها .

وأسلوب الفسلفة أسلوب عقلى محض مبنى على التأمل فى الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، وقد يصطحب ذلك التجربة أولا يصطحبها فتنقسم الفلسفة بحسب منهجها إلى مذاهب متعددة ، واحدية أو اثنينية أو معددة ، أو واقعية مادية أو عقلية تصورية أو مثالية مغرقة ، وتكون النتائج من جهة المادة مادية تؤله المادة أو من جهة العقل معرفة تؤله العقل أو مثالية مترددة بين الفلسفة العقلية أو التصورية ، أو نقدية للفلسفتين .

وبهذا وذاك يظهر لك أن الدين والفلسفة جميعا ، كلها أساليب ومناهج فى المعرفة العامة للبحث عن الحقيقة تلك الحقيقة التى يتوقف عليها الفقه فى أصول هذه الكائنات المحسة أو المعقولة ، أو الغيبية تطلب حقيقة ما وإن كانت غيبية فحينا تصل إلى إدراكها وحينا لا تصل .

وأما تقسيم الكفايات وتطبيقها على مناهج المعرفة — المنهج العلمى والمنهج الفلسفى ثم المنهج الدينى . فيغلب عليها الحس فى منهج العلم لأن موضوع بحثه المحسات ، حتى تبدو له حقائق أخرى . وفى الفلسفة البحث الفعلى حتى يصل إلى نتائج معقولة أعلى وفى الدين الذوق الفطرى أو البصيرة التى يساندها الإيمان حتى تنتهى إلى اليقين وفى هذه الحالات أما أن تتغلب البصيرة وهى عقل القلب ولبه كما بينا ، فيتدين الإنسان للوهلة الأولى ، وأما أن تغلب عليه أحكام العقل فيتفسف وأما أن يقف مع مجرد الظواهر ومجموع الحواس الخمس فيغلب عليه منهج العلم .

ولا يمنع مانع أن تكون تلك الكفايات كما مشتركا بين رجل العلم ، ورجل الفلسفة ، ورجل الدين سواسيه ، بل هذا هو الأولى وإلا وجب لتوحيد المناهج والمقاصد والغايات فى سبيل طلب الحقيقة .

القيم

والقيم : حقائق كلية عينية ماثلة بذاتها فى الوجود ، وماثلة أيضا فى وجداناتنا تلتزم بتقديرها لذاتها ضرورة ، وليس لسبب غيرها . ففى الطبيعة مثلا (حق مطلق) مصدره صفة أو مجموعة صفات للسبب الأول المبدع للوجود وهو الله ، فيكون اسم الحق مطلقا مقياسا عاما نقيس نحن فى ضوئه جميع الحقوق والحقائق النسبية المتعلقة بالأخلاق وبغير الأخلاق بسائر صنوف التعامل والتقاضى .

وكذلك نحقق به أمورا وجدانية وعملية أخرى ، ولا سيما فيما يختص بالسريرة والضمير .

١ — والحق فى نفسه قيمة وجوديه تستند فى تقديرنا لها على غيرها كما قدمنا .

٢ — وكذلك الخير أيضا قيمة ثانية وجودية ، تلزمنا بتقديرها واحترامها فهى كل مايجمع اتجاهات النزوع فى الذات إلى الخيور[1] كالاحسان للغير والانعطاف والحب والشفقة ، والرحمة بالناس وغير ذلك ، وتلك القيمة (قيمة الخير) هى القيمة التى نقدر بها نسب الأخلاق فى الانسان فى الفرد الانسانى وفى المجتمع ، على أن الخير فى أسمى درجاته صفة الله عز وجل .

٣ — ثم (الجمال) : وهو قيمة ثالثة يتلمسها الوجدان فى سائر أشياء

---

(١) الخيور اسم يراد به الجمع لجزئيات الخير فى اتجاهاته المختلفه وهى فى مقابل كلمة شرور كناية عن جزئيات الشر .

الوجود: سمائه وأرضه وشواهقه وبحاره ، وكائناته: حية وغير حية كمصادر أو حقائق للمظاهر البادية من الكائنات أو لأعماق خفية عن النظر تتذوقه النفس ويجد الوجدان فيها جمالا مصورا ومشعا على الشيء الجميل بصفة معنوية روحية تناغم وجدان الروح وتنسجم مع التفكير الصحيح أيضا فالجمال يشع معنويا كما تشع الشمس على معالم الطبيعة الأرضية بصفة محسة ملموسة ، فتظهر وحداتها التي لا ترى إلا بنورها .

٤ — وفي مقابل الجمال توجد قيمة رابعة: هي الجلال ، أهملها المتكلمون في القيم ولا ندري لماذا وهي قيمة برأسها وإن حصل بينها وبين أختها الجمال تبادل وتناوب ، كأن تقول مثلا جلال الجمال أو جمال الجلال، فالجلال روعة الجميل والجمال يتناول ما في الجلال من سكينة وعمق ، ثم إن الجمال يختص بأحاسيس دقيقة مبهجة والجلال بالدهش مع الاحترام للروعة البادية عن العظائم الجليلة المنبثة في أنحاء الطبيعة كجلالة السماء بنجومها وجلال البحار في صولته وجلال الجبال في سموقها وعظمتها .

وهكذا فكل من الجمال والجلال قيمة على حدتها ، لأن الجمال والجلال معاً في اطلاقهما صفتان علويتان من صفات واجب الوجود ، وهما صنوان .

٦ — والكمال أيضاً في نفسه قيمة عليا ، ولكنها قيمة شاملة تتوج تلك القيم جميعا ، وهي معيارها أيضا — كيف لا — والكمال هو التمام الذي تحاول الوصول إليه تلك القيم كلها في تساميها بمثلها العليا .

وكل قيمة من تلك القيم تبلغ شأوها الأعلى في مظهر غيبي أو مخلوق فتعطى نسبة من الكمال بحسبها وافضل مظاهر الكمال هو الانسان على أن الكمال في المخلوقات كلها نسبي وأما الكمال المطلق فلله وحده ، وتلك القيم كلها تثير نفحات العبقرية والشاعرية في نفوس الناس ، فيضعون هذه

الخصائص على كل لون عبقرى أو جليلى أو جميل أو كامل فى الوجود مما يسميه الناس (بالفنون) ويعبرون عن ذلك بكلمة : ما أحقه أو ما أخيره أو ما أجمله أو ما أجله أو أكمله بصيغة التعجب .

فإن كان الحق قيمة تحمل الناس على التعليم بمضمونها فى الحقوق العامة وإذا كان الخير أيضا قيمة أخرى تلزمهم بالتقدير والاحترام للخيور وباتباعها أيضا فإن الجمال قيمة تبهج النفوس وتتسامى بها إلى آفاق الروحية فتؤنسها وإن الجلال أيضا قيمة باطنية تبعث فى النفس خشوعا وتأملا متساميا ورهبة ومحبة ملؤها التعظيم والاجلال للمعانى ولا سيما المعانى الالهية الخالصة تلك التى تبعث التعظيم فى ذواتنا ، متسامية .

كما وإن الكمال أيضا هو القيمة المعيارية لسائر تلك القيم كما قدمنا .

ومظهر هذه القيم يوجد إما فى الدين ، وإما فى الطبيعة ، وإما فى التفكير الفنى وإما فى أخلاق الانسان وفى خلاله الجميلة ولذلك يعتبر الفن هو التعبير العلمى أو الذوقى لما فى الدين من قداسة ولما فى الفلسفة من عظمة فى التفكير ولما فى العلم من وثبات محلقة لتلمس ما هو كامن خلف مظاهر الطبيعة من حقائق وأسرار التعبير عن ذلك كله لا يكون إلا بلغة الفن الخاصة به : فإذا تعلق التعبير الفنى بالسمع ، فالموسيقى أو فن الالقاء والقراءة ، وإن تعلق باللسان أو بالقلم ، فالفن الأدبى كالشعر والنثر والخطابه وإن تعلق بالنظر فهو الرسم والتصوير والنحت والزخرفة وإن تعلق الفن بالثلاثة (السمع والكلام والبصر) فهو فن التمثيل ، الذى يظهر المآسى الدرامية أو المهازل الفكاهية .

وإذا تعلق التعبير بالجميع وداخله الالهام : فهو العبقرية فى الشخص نفسه أو فى المظهر الماثل أمامه .

الأخــــلاق

إن الأخلاق هى التعبير عن الفضائل الكامنة فى أعمال الخيرات مطلقا فالفضائل معروفة . . لأنها نقيض الرذائل ، وأساس الأخلاق التطوع الاختيارى بعمل الخيرات مع العلم بها ثم العلم بنقيضها وهى الرذائل ثم القيام بها مع اعتبار أنها من الواجبات دون انتظار لمقاضاة الأجر على نتائجها .

ولا تكون الأخلاق سليمة حتى يغمر التكامل جميع خصائص الانسان العليا ومواهبه الخلقية على قدر الطاقة البشرية وسواء كان ذلك يحدث باتخاذ نزعات روحية متسامية أو فى مكافحة نزوات غريزية متدلية ، وكلاهما مع التسامى تؤدى إلى الكمال النسبي طبعا وإن كانت لا تؤدى إلى الكمال المطلق الذى هو لله وحده ضرورة .

وعليه فيجب تحويل النزوات تدريجيا إلى حالات مع الدربة للتسامى بها دون مصادرتها جميعا أو جلها مصادرة مفاجئة بالعزل أو بالعنف والقوة ، إلا إذا استعصت بالصفات النفسية المؤدية إلى التحول أو تمادت فى الاثم ، فيجب حينئذ قصرها بالردع أو بالعقوبة .

وقد أخطأ غالب القدماء من الفلاسفة ، وبعض أهل التصوف فى تقدير حقيقة الأخلاق أمام الواقع ، حيث بنوا علاجهم للنقائص الخلقية أو ضعف الأخلاق على التجديد أو البتر وعلى الكبت للشاذ من الصفات .

أما البتر : فمعناه التعطيل لبعض غرائز النفس النافعة بتاتا لأجل محاربة بضعة من الصفات الجسدية فى الإنسان لا يرغب فيها ، وذلك

بحجة صيانة النفس طاهرة بتجريدها أو إضعاف سائر قوى الجسد بالجوع والسهو لنوال هذه الغاية ، أو بالزهد الكلى والتقشف المغرق السلبى المنافى لما تقتضيه طبيعة الإنسان السوى ، وما علموا أن الزهد صفة تكون فى القلب وليست فى مظاهر الأعمال أو الأقوال ، وإلا فكم من زاهد مظهرا وملؤه الشره للدنيا وكم من متقشف مرغم على هذا التقشف لسوء تدبيره .

وأما الكبت بالحرمان : وهو حرمان الجسد من بعض غرائزه الطبيعية التى ربما شذ مستعملها عن المألوف فى الأفعال السوية ويترها بحجة أنها ليست مشروعة وهذا خطأ ، لأن الله لم يخلقها عبثا وفقط أمرها باتباع الصراط المستقيم من أن غير المشروع من الأفعال الغريزية قد ينال الإنسان الضرورى لجسده منه بالوسائل المشروعة فى الدين أو فى الأخلاق كوجود الفرق بين الزواج والزنا ، والتكسب والسرقة مثلا ، فالعمليات واحدة والوجهة والنية والتنفيذ يختلف ، فتجعل النية والاتجاه المشروع أو غير المشروع الحلال حراما والحرام حلالا وكل أعمال الإنسان إزاء ذلك معيارها التشريع الإلهى أو الخلق السوى وليس القصر أو البتر أو الكبت .

ولا شك أن البتر والكبت يكونان أضعافا لصفات النفس بأسرها . وتمثيل ذلك من الطب البشرى كمثل الطبيب الذى يأمر مريضه بالحمية ، حالة أن أن جسد المريض غاية فى الضعف ، والحمية لا تكون إلا للأقوياء وبمقدار مقدر ، ومن حق المريض فى هذه الحالة أن يعطى المقويات والتغذية الجيدة حتى يعتدل مزاجه الصحى ، ثم وضعه بعد ذلك فى نظام معتدل من الحمية ، ثم يسعى للطبيب فى تكامل قوى البنية الجسدية حتى يصل بها للمعيار الصحى السوى .. وكذلك فإن الأمر نفسه يكون فى علاج النفس .

وقدمنا أن كل ما يمكن نواله فى حرام من طريق الشذوذ والانحراف

يمكن نواله أيضا من طريق التمشى مع الشرائع الإلهية فى أوامرها وأحكامها دون مخالفتها وضربنا لذلك مثلا بالفرق بين الزواج المشروع والزنا وهو غير مشروع حالة أن العملية واحدة فى كلتا الحالتين وغاية المطلوب خلقيا ودينيا هو الاستقامة وفى الاستقامة معنى الاعتدال .. وفى الحديث (ماشاد أحد هذا الدين إلا غلبه) .

واعلم أن الله جلت قدرته قد خلق الإنسان فى حالة سوية ، وفطره على الخير فطرة ثم أباح له مقادير من الأفعال الغريزية مشروعة ومعقولة ، وذلك لصالحه وقوام جسده وروحه ، فلا يحتاج هذا الفعل الإلهى بعد ذلك إلى مشذب أو منتقص يبتر ماشذ فى نظره من خصائص الإنسان الفطرية وأن سميناها غرائز وقد خلقها الله لحكمة ونظام أفعالها بشرع ولم يكن غرض الدين أو الأخلاق الكبت أو البتر .

كلا . . وإنما مقصود علم الأخلاق وشريعة الدين الاعتدال والتوسط فقط لأن الفضيلة دائما تقع وسطا بين رذيلة التفريط ، ثم رذيلة الإفراط .

وإذا كان الغرض هو الوسط الخلقى ، لهذا يحدث بالتسامى والتحويل مكافحة للتنقص المحدث للشذوذ ، والخروج عن الوسط الخلقى المطلوب بالتفريط أو بالإفراط .

فليس على المربى حينئذ ، سوى أن يتسامى بالغرائز عن المآرب الدنيئة إلى الغايات الرفيعة ، وليس عليه أن يميت عاطفة التطلع والنزو فى من يربيه ، ولكن فقط عليه أن يتسامى بها تدريجيا ، فتنقلب هذه الصفات المذمومة نفسها إلى صفات محمودة بالكفاح الشريف وخذ لذلك مثلا الطمع فهو صفة تمدح وتذم فمن أخذها على الوجه المذموم كانت رذيلة وأما أن أخذها

على الوجه الممدوح كانت فضيلة وتسام فى السلوك . ورغبة فى الجد وتطلب معالى الأمور فلو كبتنا هذه الصفة أو بترناها انقلبت صفة سلبية لاتصلح للخير أو للشر ، أو انفجرت بالكبت فأصبحت طمعا موجبا للجريمة أو السرقة أو الاحتيال أو قل ماشئت . وما ذلك إلا لأن مغرس المنافسة فى الجد ، والطمع الذميم فى النفس عامل واحد : وهو المطلب المصحوب بالرغبة ، فالطمع المسف هو نفسه التطلع الرفيع ، والفارق فى الوجهة والغاية فقط ، تنقصا أو تكملا . فان تنقصت الرغبة بالإسفاف كانت طمعا مذموما ، وإن تحولت إلى التسامى كانت نزوعا شريفا لبلوغ الرفعة ومعالى الأمور وتطلعا للمجد ويجب الحث عليه ، وهذا مثال واحد ضربناه لك يقاس عليه بقية صفات النفس وخصائصها الغريزية من جهة التكمل والتنقص .

والعامل الخالق يجب أن يكون أداة للتضامن ومسايرة لقانون الترقى وبهذا وذاك استحق علم الأخلاق اسمه ووظيفته واستحق أيضا حقه على متابع قانون الأخلاق بأن يكون فى يومه خيرا منه فى أمسه ، وأن يكون فى غده أفضل منه فى يومه .

فان حدث العكس ، أى التخلف من الترقى وهو استبدال الحالة الإيجابية فى النفس بالحالة السلبية ، وقع العوج والشر والجهل ، على أن الجهل وحده كاف لأن يكون مولدا للشرور جميعاً .

وتكون المعرفة الخلقية وهى: معرفة الفضائل والكمالات النفسية وقيمتها ، من أعظم منابع الخير فى هذا الوجود ، وهذا نفسه يوجب على كل امرىء واع : معرفة نفسه بنفسه على قدر الطاقة وإصلاح عيوبها ، وبعبارة أخرى يجب عليه تحصيل العلم بخصائص النفس وكفاياتها وكذلك العلاقة المتبادلة

بين النفس والجسم صحة ومرضا ، وتفكيرا وعملا (١) .

وإنى لأختم هذا النموذج فى علم الأخلاق بعرض قاعدة عظيمة جليلة الفائدة فى تصريف أحوال النفس ، وتأثيرها على الجسد .

وهذه القاعدة توجب أن يعلم كل ملم ، ولو إلماما مبدئيا بعلم النفس : إن الفعل الخلقى المنتج ، يتأتى دائما بعد فكرة (وفى حدود الوسط الخلقى) وبعبارة أخرى : إن الأفعال عمليات فكرية فى مبدئها ، تصدر أولا عن المخ ، ويلى التفكير مباشرة أثره ، وهو الفعـــل الخارجى (خارج الذات) .

فالفكرة الحسنة التى تنتج عملية حسنة ، أو القبيحة التى تنتج عملية شريرة ، تتكون أول ما تتكون كفكرة بسيطة فى المخ كما تقدم ، فإن وجدت الفكرة أفكارا مشابهة لها تتداعى على المخ أيضا ، قويت وتركزت بعد أن كانت فكرة بسيطة فإن توالت التصورات الفكرية المناسبة لها ، انطبعت فى مركز المخ ومن ثم تنطبع فى النخاع الشوكى ومنه إلى بقية الأعصاب فالعضلات . وهنا تتكون عناصر الفعل كاملة ولا ينقصها سوى التنفيذ والمظهر الحسى الواقعى . فإن تم كل ذلك وكانت الفكرة خيرة ، تمت العملية الخلقية الجميلة الكريمة .

وبمثل ذلك يكون حال الفكرة الخيرة أو الشريرة حينما تتوافر لها جميع العناصر والظروف المهيئة ، فتجرى على القانون نفسه وبالنظام نفسه كما وصفنا ، وإذا انطبع التفكير خيرا كان أو شريرا فى المخ ، ثم فى

---

(١) قدمنا أن هناك تبادلا واقعا بين الجسم والنفس من جهة التأثير وبينا أن نسبة تأثير النفس فى الجسم أكبر من نسبة تأثير الجسم على النفس . فبهذا المثابة تحدث الانطباعات الخيرة من النفس فى تصرفات الجسم وميوله وفى مجموع نزعاته ونزواته على السواء .

الأعصاب ثم فى العضلات ثم وجدت الأداة وتهيأ المظهر ، تتم العملية الخلقية سواء كانت جريمة أو فعلة حسنة لا محالة .

وهذا القانون نفسه تكلمنا عنه عند كلامنا في النفس بايجاز وتركيز فارجع إليه هناك . وعلى الإنسان اليقظ المتبع للقانون الخلق النفسى ، أن يجعل من يقظته النفسية والخلقية بوابا لمخه لا يسمح بالدخول إلا للأفكار الخيرة ، ثم يساعد بالظروف المشابهة على تركيزها ونموها وانتشارها فى سائر مراكز المخ العصبية وفى بقية الأعصاب والعضلات .

وأما الفكرة الشريرة فلا يسمح لها بالدخول ولا بالتركيز ، ولا بالنمو بإضافة أفكار سيئة أخرى مشابهة إليها .

وعلى كل حال ، فالقاعدة العامة هى : التسامى بالغرائز النفسية ، وبالصفات الروحية أيضا إلى آفاق أعلى مما هى فيه دائما لأن النزعات الروحية والنزوات الغريزية تكون كلها مواهب ومكاسب إذا سارت فى طريق الترقى والتحول والتسامى ، تكافأت حينئذ وتوازن الجسم ، واتزنت النفس واتزنت معها الأخلاق الشخصية وأصبح الإنسان مخلوقا سويا ، وذلك ما يقتضيه الوسط الخلق المطلوب والعكس بالعكس .

وهذا وذاك يصرح بأن سائر خصائص الإنسان الروحية ، وصفاته الغريزية الجسمانية الكامنة فى شخصه كلها فى نظر الحقيقة الإلهية الخالقة ، متقابلة متكاملة متناغمة أعدت لمصلحة الكائن الإنسانى الحى وذلك سواء كانت روحية أو غريزية ورائدها الاعتدال ، فإذا حدث النقص فى ناحية منها تأثرت بها الناحية الأخرى ولن توجد روح مطمئنة وقلب مستريح إلا فى نفس وجسد سليمين سويين .

وقلنا فى تعريف الإنسان : أن للانسان السوى فى الحياة وظيفتين .

إحداهما : المعرفة ، والثانية . استمرار حياة النوع وبقائه وترقيه ، وبذا يكون الإنسان كائنا اجتماعيا بطبيعته ، جبل على أن يعيش فى مجتمع .

وسلامة المجتمع فى شيئين :

سلامة الخلق الشخصى لكل فرد ، وسلامة الخلق الجماعى للدولة ،وذلك مايسميه الناس بالسياسة الحسنة .

السياسة

وسياسة المجتمع تقوم على الحرية المعقولة ، ثم الألفة والاحترام لحرية الغير بين أفراده ، ثم التكافل والتعاون بعد ذلك ومثل المجتمع فى ذلك كله كمثل مجتمع خلايا الجسم وهى تعد بالملايين التى ربما زادت على مجموع سكان هذا العالم من الأفراد بالنسبة للجسم الذى تعيش فيه تماما ، فتسعى كل خلية لصالحها الذاتى وصالح المجموع ، فى وقت واحد ، فان تعارضت المصلحة العامة قدم صالح المجموع .

وهذا ما يجب أن يكون عليه المجتمع الإنسانى الصحيح فى مجموعه ، والمجتمع كالجسم يحوى خلايا عديدة هى أفراده ، ولذا كانت الغاية الخلقية التى يتجه إليها دائما العمل الخلق وأيضا الواجب الدينى والسياسى جميعا هى خير الفرد وخير الجماعة ، ثم التكافل الاجتماعى والتضافر فى المجموع على مسايرة قانون الترقى العام ، فتهدف الجماعة إلى الخير لأفرادها عموما ، الأمر الذى كما يتناول شعبا بعينه يتناول أيضا أبناء الإنسانية جميعا شعوبا وأفرادا ، وهكذا ينقاد جميع الأفراد كما تنقاد جميع الكائنات مع ذلك القانون العام قانون التطور والترقى فى المجموع (مجموع الكائنات) وهذا لا يتم فى النوع الإنسانى إلا بتوحيد العلائق والصوالح فى التعامل بين الفرد وبين الجماعة وبين كل شعب وآخر بشرط العدالة وعدم الانحياز ثم تحويل الجهد الناتج إلى مقاصد إنسانية لمنفعة الجامعة الإنسانية فى محيطها الجامع ، وتلك هى الاشتراكية الصحيحة ، على أن تكون اشتراكية روحية ومادية فى وقت واحد .

ولأجل هذا الغرض أنزلت الكتب وشرعت الشرائع ، ووضعت

القوانين وقواعد الأخلاق العليا ودوليا . وذلك لإيجاد ضرب عام من التشريع الأخلاقى والسياسى الموحد يسود الجماعة كنظام إنسانى شامل، ويؤسس على أربعة أسس : التكافل ، والتراحم ، والحرية ، والتسامى .

فالتكافل لا يتأتى إلا من طريق التعاون ، وذلك باعتبار كل فرد فى الجماعة مسئولا عن أخيه كما تكون الخلية البشرية مع غيرها فى الجسد الواحد ، وذلك الجسد الكبير هو المجتمع وخلاياه أفراده ، وخلايا الجسد التى ضربنا المثل بها فى الجسد الإنسانى أو غيره من الأحياء دأبها وشريعتها التكافل والتعاون ، وهذا لا يمنع من أن تتناول كل خلية على حدتها منفعتها الشخصية التى لا تتعارض مع منفعة غيرها من أفراد المجتمع ، وذلك فى ظل المجموع وتحت رعايته .

والتراحم أيضا يمثله لنا تساند جميع خلايا الجسم طلبا لصحة الجسم فى مجموعه .

وأما الحرية فيمثلها لنا تهيئة الفراغ فى الجسم الواحد لكل خلية تدور فى جوهرها هذا وتتصرف بحرية كاملة ، على أن يكون تصرفها تصرفا نافعا ومعقولا لا يضر غيرها ، ولتحقيق ذلك فى الهيئة الاجتماعية وبالنسبة للفرد الاجتماعى : يجب أن يعيش حرا فى تفكيره وعمله وإنتاجه، ومتمتعا بثمرة مايعمل ، وتكون حريته مكفولة ثم مشمولة بالاحترام والتقدير لحرية الآخرين ، وذلك هو القيد الواحد الذى يحد من حرية كل شخص فى دائرته بالنسبة لحرية الشخص الآخر ألا وهو احترام كل فرد من المجموع لحرية غيره من الأفراد وكل حرية مطلقة دون هذا القيد الذى يوجب الأمن والتعاون والحفظ لحرية الآخرين إنما تكون حرية مستحيلة الوجود إلا فى شكلين لا ثالث لهما هما : الفوضى والجنون .

وأما المراد بالتطور والتسامى إلى الترقى ، فهو يدل جميع الأفراد فى

المجتمع العام الجهد الصادق فى الرقى والرغبة المتطوعة الخالصة فى النهوض، والترقى بالعقل الإنسانى عموما من جهتيه : الثقافية والتهذيبية مضافا إلى ذلك الترقى فى معيشته الشخصية ثم النهوض بالصحة وظروف المعيشة عامة وحفظهما وذلك بالنسبة الأفراد والجماعات الذين يعايشوننا فى مجتمع واحد، ولو كان ذلك المجتمع الواحد هو المجموع الانسانى العام على اتساع مداه . . بغير تحديد .

كما أنه يجب على الفرد فى نفسه أن يكون فى يومه أرقى من أمسه ، وفى غده أحسن وأصلح من يومه كمبدأ أو قانون عملى ، وما ذلك إلا لمسايرة قانون الترقى العام ، وهذا فى الفرد وفى المجموع على السواء ، لأن المجموع ما تجمع إلا من أفراد ، أو مجموع أفراد .

والفرد فى الجماعة كالركن للبيت ، والبيت بعد أن يصمم ويقام يجب صيانة اركانه دائما فترمم أولا فأول ، وأهم ما فى البيت أركانه ، وأركان المجتمع بالضرورة هم أفراده الذين يجب صيانتهم ، صيانة تكون من أنفسهم لأنفسهم ومن مجموعهم لمجموعهم لاسيما وإن كانوا يعيشون فى ظل حكم ديمقراطى .

والله سبحانه وتعالى ضرب للناس مثلا بذاته حيث جعلهم (وهم عبيده) متساوين فى النعم والحقوق. فأباح لهم الماء والشمس والهواء وبقية الأرزاق دون قيد أو شرط ، باعتبار أن الله أوجد الكل للكل وإن كان أعطى كل فرد بحسب ما يصلحه ويصلح له ، قليلا أو كثيرا من الرزق وجعل الله الحرية المعقولة حقا مشاعا بين الناس ، كبيرهم وصغيرهم ووضيعهم ورفيعهم أبيضهم وملونهم على السواء ، دون حجر أو قيد إلا فى الحدود التى فيها اعتداء على حريات الآخرين أو أموالهم ، أو أنفسهم أو حقوقهم أو أعراضهم ثم طلب الرب عز وجل من جميع عباده التسامى والتكامل ، فأرسل

لهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وسن لهم الشرائع ، ووضح لهم معالم التعامل ، وحث على الألفة والتعاون بين الجماعة ، ثم أمر بالعدل والإحسان سواسية .

والنتيجة من هذا البحث ، أن العوامل الفعالة فى الاجتماع فى تقديرنا وتقدير الحقيقة هى : الحب ثم الاحترام ثم الإحسان ثم العدل ، واعتبار أن مجموع الإنسانية كمجموع العائلة الواحدة ، التى تربط سائر أفرادها وشائج من القربى والمودة ، واحترام الصوالح الخاصة فى ظل الصوالح العامة ، وذلك هو العقد الاجتماعى الفطرى الصحيح الذى قام أساسه على المبدأ العائلى وأنه يشمل الجماعة الخاصة أو العامة جميعا كالإنسانية بأسرها مثلا ، ولذا يجب أن يقوم على حراسة هذا المبدأ كدستور عام ، أرشد الجماعة باختيار الجماعة (الانتخاب الحر) له كأرشد الأخوة فى العائلة الواحدة إذا قدموه عليهم فيكون بالطبع رئيسا لهم ومرشدا باختيارهم الحر ، وأن ليس بين اهل المجتمع الإنسانى عقد اجتماعى سوى ذلك ، برغم أن (روسو) قد فرض أن الأصل فى المجتمع هو الاعتداء والسلب ، إلا أنهم تعاقدوا على منع ذلك وعلى احترام الحقوق بينهم بتنازل البعض عن بعض حقوقهم للبعض الآخر .

وبرغم ما ارتأه أمثال هوبز وبنتام وميكيافلى وإضرابهم ، من أن سبب ذلك (العقد الاجتماعى) وعلته هو : أن الجماعة قد تعاقدت على أن تتنازل عن بعض حقوقها أو كلها الفرد منها ملكوه عليهم ليرعى صوالحهم ، اختيارا أو قهرا بواسطة شرائع يصدرها عن محض إرادته هو (كملك أو نائب لله فى أرضه) وإن تعارض ذلك الفعل مع صوالح المجموع ، وهذا مبدأ فاسد ضرورة لأنه يشعر بدعوى الحق الإلهى الكاذب الممنوح للملوك المتسلطين ، ذلك الأمر الذى ذاقت منه قديما البشرية صنوف العذاب — والاستبداد وهذا أيضا حدث بدعوى الحق الإلهى دون مصوغ أو مبرر ومثله كمثل

النظام الكهنوتى الذى بسببه عانت البشرية آلاما وأهوالا بسبب الملوك والكهنة وهو مبدأ أنانى يبغضه الله والناس جميعا .

وفى اعتبارنا : إن أهل العالم جميعا عائلة واحدة وربها الله والله وحده وحسب ، وبسبب هذه المذاهب المتطرفة التى يزعم واضعوها بأنها مذاهب فلسفية أو إلهية خطأ كلها ، وهى كما قدمنا مبادىء نفعية محضة أنتجت نتائج سيئة ملموسه ، هى التنازع العام كما هو حادث الآن فى أوربا وأمريكا بين الدول القوية والدول الضعيفة بدعوى هذا الحق المكذوب نفسه مما يحدث الحروب الداخلية أو الخارجية ، والثورات بين شعوب الأمم ، ثم الدمار والخراب إذا استعملت فى الحروب الطاقة الذرية من ايدوروجينية وغير ايدروجينية فضلا عما يكون هو حاصل بين الناس من البغض والحقد الخ . والأمور التى لا يصلحها سوى قيام المجتمع من جديد على أسس من القيم الروحية والخلقية كالحب والتعاون ، والانعطاف والسلام ، والأمن فى التعايش ، ورعاية صالح الفرد صيانة لصالح المجموع .

وبهذا وذلك يتضامن النوع الإنسانى فى مجموعه ، ويتحد نظامه ، كما تضامن النظام الشمسى فى مجموع سياراته لينتج خيرا وتماسكا مستمرا لبقية النظم المرتبطة به ، أو على الأقل يجب أن يكون نظام الانسان فى مجموعه مثل نظام بعض الكائنات الحيوانية البسيطة ، كالنحل والنمل فى نظامها مثلا .

ووفق الله أهل الانسانية جميعا لخيرها العام ، ودفع عنهم أسباب الهلاك والدمار وهداهم سبل السلام بفضله وكرمه .

نتيجة النتائج

وتكون نتيجة النتائج من بحثنا هذا : أن الفلسفة التى تؤله العقل وتجعل منه علة لنفسه ولسائر الأشياء ، إنما هى انحدار فلسفى محض وتهافت صارخ لأن العقل — عقلنا كأن محدود مهما اتسع مدى عرفانه وذو قصور ، وأقل ما يدل على ذلك القصور مداولته للشك واليقين مراراعدة فى النتيجة الواحدة ، وأنه كما يميل إلى الحكم للحق أحيانا فانه ينحاز إلى الجدل والسفسطة احياناً أخرى .

وكذلك القول بالمادة ، أى القول بأن المادة هى علة نفسها وعلة وجود كل شىء حتى العقل نفسه ، فذلك تناقض وخطأ أيضا يؤدى إلى الشك فيما يؤدى إليه كلا الرأيين من نتائج أو قل المذهبين العقلى المثالى ، والمادى الواقعى ، على أن تضارب المذهبين لم يفد مناهج هذه الفلسفة سوى الشك المطلق ، حيث تقول المثالية ومعها العقلية والتصورية ، ليس فى عالم الشىء سوى صور يتصورها العقل ، فإن لم توجد أفكار (فى الذات) فلا توجد أشياء للخارج ، وفى مقابل هذا تدعى المادية : أن ليس فى مستقر العقل من الانسان (عالم الذات) سوى أحاسيس الأشياء الخارجية (عالم الموضوع) ، فالمادة عندهم : هى المادة ، وهى العقل أيضا ، وهى العلة المطلقة وما العقل إلا أثر من آثارها ، وما تفكيره إلا ترديد لصور أحاسيسها .

وبهذا تكون الفلسفة المثالية قد طعنت فى حقائق الفلسفة المادية ، والفلسفة المادية بدورها تكون قد طعنت فى وجود حقائق المثاليـــة والتصورية ... الخ . فماذا عسى أن تكون النتيجة يا ترى ؟

تـكون الشك طبعا فى نتائج الفلسفتين .

وهاتان الفلسفتان هما محور جميع الفلسفات التى تتحق بالمادية ، وأيضا الفلسفات التى تلتحق بالمثالية ، حتى الاثنينية ما هى إلا تركيب مزجى من الفلسفتين (عقل وامتداد) كما عند ديكارت وأسبنيوزا حيث جعل اسبينوزا الوعى يحل فى الامتداد (المـادة) ثم جعل من هذا المزيج نفسه فلسفة الحلول أو ألوهية الـكون .

وما حققت تلك المذاهب فى مجموعها سوى (الشك المطلق) لطعن كل فلسفة منها فى نتائج الفلسفة الأخرى ، وأيضا بسبب شك العقل فى نفسه وفى الأشياء وحينا يؤمن بالصلة الوجودية الإلهية وحينا آخر يشك فى وجودها وهذا وذاك يشعر ضرورة بتردد العقل وتهافت الفلسفة عموما عن درك الحقيقة المطلقة لتهافت الفلسفة المـادية ومعها الواقعية وعدم تثبت الفلسفة العقلية ومثلهما البراجماتيزية والوجودية .

وكذلك المثالية والعقلية والتصورية ، وأيضا مذهب الذرات الروحية (ليبنتز) التطور الروحى الخالق (ابرجسون) وذلك اخفاق شامل فى تعليل الوجود وتعليل علته ، مما يدل على تهافت جميع هذه الفلسفات وعدم حصول هذه المذاهب جميعا على فقه العلة الوجودية الأولى .

وعندنا : أن الاستقراء لأحوال العقل وأحوال المـادة يعطينا ما يأتى كنتيجة محتومة .

أولا — إن المـادة لا وجود لها بالمعنى العلى ، وإنما حقيقة كتلتها أنها حالة من حالات السرعة والحركة ، التى تحدثها الطاقة النووية عن طريق تحول العناصر إلى بعضها ، وبالتالى يتحول إلى مادة تتـكون وتنحل بفعل

الطاقة نفسها إلى إشعاع ذرى [١] كل ذلك يجعلها كائنا حادثا ، ومعلولا وليست بموجود على قط لا لنفسه ولا لغيره ما دامت المـادة ناشئة عن حركة وسرعة الذرات النووية تركيبا وتحليلا تلك التى لاترى ، وتلك هى حقيقة المـادة فى ضوء العلم الحديث (أو الشىء فى ذاته ، على رأى كانت) ذلك الأمر المهم الذى كان مجهولا فى عصر كانت وأمثاله .

ثانياً — إن العقل (عقلنا الذى نفكر به لايظهر تأثيره إلا فى مقابل مادى هو الجسد ، ولا يفهم وجوده إلا بمقابل له هو المادة ، التى تقابله وتتضايف إلى العقل وتتكامل معه ، حتى يمكنه البحث فى نفسه (عالم الذات) أو فى مقابلة (عالم الموضوع) .

ثالثاً — الحياة : وهى الجامع الكلى للرابطة بين العقل والجسم فى كل حى ذى عقل كالإنسان ، أو ذى غريزة كالحيوان ، يكون ذا حياة بسيطة كالنبات ، حيث لاترى حياة إلا فى جسم حى ولا عقلا مدركا

---

(١) قد أثبت العلم الحديث أن المـادة ليست أبدية كما كان يعتقد علماء القرن الثامن عشر الذين يقولون بأبدية المـادة ولكن علم اليوم يرى انحلالها ثم فناءها وتحولها الى قوة وعناصر ذرية لا تراها العيون فان المـادة فى حقيقتها الا وليدة للطاقة والحركة والسرعة لا أكثر ولا أقل .

وقد حصلت تجارب علمية حديثة تثبت أن عمودا سائلا قطره سنتيمتران اذا سقط من أنبوب على علو ٥٠٠ متر بسرعة مخصوصة اكتسب السائل مقاومة شديدة لدرجة أن سيفا قاطعا يرتد عن سطح هذا العمود من السائل المتجمد كما يرتد اذا صادف حائطا صلبا فان كانت سرعة العمود أكثر من ذلك فلا تستطيع قذيفة مدفع أن تخترقه واذا جعلنا هذا المـاء فى شكل زوبعة سريعة كان لدينا صورة حقيقية عن الفعل الذرى المكون للمـادة .

ونفهم من هذا ضمنا أن الحركة والسرعة لو بطلتا لفنيت الكائنات العادية .

الا فى شخص طبيعى يعقل ويتصور أو يحس فيتأثر ثم يحكم ، فهناك تقابل محتوم بين العقل وبين المعقول ، ثم بين العقل وبين المادة والحياة .

ويكون الذى وضع مثل هذا النظام الباهر كائن أسمى وأرقى وأعظم ، وعيا من العقل ومن المادة ، وأكثر فاعلية من الحياة نفسها ، لأن العقل والمـــادة فى هذه الحالة مسيران محكومان بفعل فاعل وضع لهما الفاعل المؤثر نظما وقوانين خاصة بهما ووهبهما حرية للتصرف فى محيطهما فقط .

وكذلك الحياة والحى ، يسيرهما كائن غير الحياة وغير الحى بالضرورة هو عليهما ومنظم سيرهما إلى التطور من حيث لاتأتى الحياة إلا من حى (كما قرر العلم الحيوى) على يد لامارك وكوخ وباستير) لأنه هو الذى وضع نظام الحياة فى الكائن الحى ، ووجود الحياة فى الأرض شىء محدود وإن خلدت فى نفسها وفى حياة أخرى لأنها أثر حقيقى من آثار العلة الأولى ، لاستمرار الكائنات الحية وتطورها .

وعلى هذا تكون نتيجة النتائج من جهة البحث ، فى الله ، وفى الطبيعة ، وفى الإنسان مايأتى : أن العقل والشىء ومعهما الحياة كائنات عابرة فى سلم الوجود ، وهذه الكائنات متقابلة ومتضايفة ، ومتكاملة يكمل بعضها البعض .

لأنه إذا تقرر معنا أن الحياة لا تأتى إلا من حى سابق على ظهورها فى الأحياء الأرضية ، وتقرر أن العقل لابد له لظهور أفكاره من مقابل يفكر فيه ، وإذ تقرر أيضا أن المادة مجرد حالة من الحالات العديدة للطبيعة العامة ، لزم أن نستنتج من هذا الاستقراء العلمى والفلسفى النتيجة الآتية : —

أن العقل والشىء ومعهما الحياة ، حالات عابرة من حوادث الوجود العديدة ، وفى تقابل العقل للمادة ثم تضايف المـادة للعقل حتى يعقل ، ثم

تكاملهما بالحياة ، يصبح كل هذا – وجود الدليل القاطع المانع – وجودا ظاهرا على القصور بالتضايف والتكامل، عن بلوغ المادة أو العقل أو الحياة نفسها لرتبته العلية المطلقة ، التي يجب أن تكون كاملة في ذاتها وفي خصائصها ومستغنية بنفسها عن غيرها لا تتضايف إلى شيء ولا تتكامل بشيء ولا يقابلها في الوجود نظير آخر لها ، وهي (الله) سبب الأسباب ، وعلة العلل ، ومشيء الوجود ، ومبدع ما فيه من قوانين ونظم .

وسنستنطق بفضل الله العلم الحديث ، وبقايا الحقيقة في الفلسفة المحدثة ليقررا معنا ما نقرره الآن .

وكذلك الحياة فما الحياة إلا مجرد عامل الحي ، ونشاط من روح الله طارىء على الوجود الكوني كنشاط مطور ، وفاعل لا منفعل ، فليست الحياة أيضا بعلة لنفسها ولا للوجود .

وإذا كانت الحياة وهي علة العقل والمادة جميعا ليست بعلة للكائنات لاتهبط إلى الأحياء إلا بنفثة من غيرها ، وأولى عن العلية العقل لقيامه بالحياة وأولى منهما بالقصور وعدم العلية للمادة ، التي هي مجرد ظاهرة من ظاهرات الطاقة العامة .

وإذا يمكننا القول : بأن العلة الوجودية الحقيقية ، وبعبارة أخرى ، الحقيقة الآلهية المطلقة الموجود مازالت بكرا بعد لم يطمسها فكر ، ولم يلمسها حس ، ولا تعرف يقينا إلا بشعاع منها منكسر على لطيفه في الإنسان، اسمها القلب (موطن الذوق الفطري ومهد البصيرة) .

وأن كان هذا كذلك ، وهو الحق الذي يؤيده العلم وتخضع له الفلسفة الصحيحة ، فلابد للعقل والمادة وللحياة من علة أسمى من العقل ومن المادة ومن الروح أيضا ومن الحياة جميعا فتشملها في رحابها الواسع العلي الأصل وفي خصائصها التلقائية المتوحدة وتلك هي العلة المبدعة (الله) التي لا تتضايف ولا تتكامل ولا يناظرها مناظر .

فعلى الباحثين ممن يهمهم المعرفة — معرفة الحقيقة الكاملة — أن يجددوا البحث عن العلة من جديد وأن يضعوا فى علم المعرفة الفلسفى معايير أوسع مدى وكفايات زائدة على الكفايتين اللتين كانوا يبحثون بهما فى مجالى العلم والفلسفة (كفاية العقل وكفاية الحس)وذلك باضافة الهام البصيرة ونور القلب وذلك عامل مهم فى مجال المعرفة .

ولكى نبحث عن الحقيقة من جديد ، يجب أن نقول . إن الفروض فى العلم وفى الفلسفة لتعليل الكائنات (الطبيعة والعقل والحياة) لا تعدو أربعة فروض :

الفرض الأول : الصدفة :

الفرض الثانى : أزلية المادة ، وخلقها لنفسها ،واعتبار أن لا علة سواها

الفرض الثالث : أن العقل أوسع من المادة مدى وأرفع مكانا لأنه علتها .

الفرض الرابع : أن لا بد لكل حادثة من محدث ، والكون حادثة كبرى فى الوجود ، فلا بد له من محدث غيره أكبر منه سلطانا وأعظم حكمة ليكون موجده ومنظمه .

وهذا رأينا فى علم المعرفة بعد علم الطبيعة وماوراء الطبيعة .

وأما رأينا فى الإنسان ، وإن كان أفضل المخلوقات على وجه الأرض فانه : ذو قصور ذاتى من ناحيتين : من ناحية جسده المعلوم الخاضع لسائر فواعل الطبيعة وأحداثها ، ومن ناحية عقله أيضا ، لأن عقل الإنسان يعقل ولكنه لا يعقل كيف يعقل،أو لماذا يعقل أو ماهى الطريقة التى بها يعقل، وإنما هو يتناول ماتداعى على الذهن من معان ذاتيه أو موضوعية ، اخترع

لها علما (وسماه المنطق) يزن به الأفكار والآراء ، والمقدمات والنتائج ، ليفحص به مدركاته العقلية والحسية ويعلم إلى حد محدود صحيحها من فاسدها فالمنطق كما أنه الاستقراء والاستنتاج والحكم ، فإنه يحوى أيضا الجدل والسفسطة والشك إلى غير ذلك .

ومدار الامر كله على الالهام ، الذى يؤتاه العقل من الشعور الذاتى والذى هو كم مشترك فى سائر المخلوقات الحية أدناها وأعلاها ووراء ذلك كله العقل الباطن وهو اسم آخر للقلب المعنوى أو اللب ، فيستنير به العقل فى مسلكه وهنالك يكون للعقل قيمة عند الله والناس فى حدوده ، وللحس كذلك درجة ولكنها أدنى من العقل فالبصيرة أكبر القيم ، وأسمى الكفايات لاتصالها بالله مباشرة من حيث أنها سر الله فى الإنسان بعد الحياة .

وبهذا وذاك ، وباضافة أضواء البصيرة على كفايات المعرفة الإنسانية يستقيم مسلك الحس والعقل معا . ودليلنا على ذلك أنه منذ القدم ، وقبل كل كاتب وقارىء ،وقبل وجود كل كتاب وكل عالم أو متعلم ، وكل إدراك أو كل مدرك كان للفطرة وللبصيرة وجود ، وكان للعلم وللمعرفة مصدران لاثالث لهما هما مافى الكون من نظام ، ومافى عقلنا الباطن من إدراك عقلى وبصيرة والهام وعلى هذين القطبين أسست تدريجيا جميع علومنا ومعارفنا ، ومنها استمد العقل احكامه واستمد الحس قانونه ولذا يجب أن يدعم مسلك الانسان فى التفكير والمعرفة لا على معطيات العقل فقط ، تلك التى تعطى الخيرين من الناس وسائل للخير وللحكمه ،وتعطى أيضا للاشرار قوة منطقية من نفس الجعبة العقلية والمنطقية وسائل للشر والاجرام .

وكذلك يدعم المسلك الخلق على واحد من أساسين أيضا ، يفضى بعضهما إلى بعض : إما على أمر ونهج سماويين كتشريع ، وهو الافضل والاوفى،وإما على أساس من الوسط الخلق الذى يحرم التفريط والأفراط ، ويعتبر كليهما شططا خلقيا .

ومدار الأمر فى الأخلاق خيرا وشرا ، على السريرة التى تسمى فى اصطلاح الدين (النية) وفى علم النفس (الضمير) وتسمى فى علم الجمال (بالوجدان) والسريرة لاتعرف من اللغات سوى كلمة واحدة : نعم أولا هذا خير وهذا شرهذا مباح وذلك محذور ،فان تدخل العقل بمنطقه المصنوع كثرت أحكامه ، وتغايرت معاييره ، وتعددت لغاته ، إن لم تحسم ذلك كله الأرادة الخيرة المستنيرة .

والإرادة والعقل وإن تغايرا أحيانا،فانهما فى النفس معا توءمان أونهران ينبعان من عقلنا الباطن الواعى :خلافا لمن يسمى العقل الباطن باللاواعى، وهو الوعى كله ومصدر الشعور والتعقل ، فهو يتمركز فى بؤرة الذات الإنسانية ، ويوحى إلى العقل والارادة بما يفعلان، صوابا أوخطأ بطريقة شعورية وذلك بسبب الوراثة ، أو البيئة والمزاج الشخصى .

وإما القيم : كالخير والحق والجمال والجلال ،فتلك لمحات سماوية خالدة، وجدت لتنير للعقلين (الباطن والفاكر) ومعهما الإرادة سبيل الحياة المعنوية والروحية ، وتضع نصب عين الضمير قانونا خالدا غير مكتوب فى غير القلب هو القانون الخلقى العام .

وإما من جهة علم النفس : فدعامته أمر واحد ،وواحد فقط هوالمحافظة على سكينة النفس ، وتوازنها وانسجامها مع الأعصاب وظروف الحياة ، وأن المـال والصحة بغير سـكينة النفس يضمحلان أو يظلان بغير فائدة تذكر .

وأما رأينا فى السياسة : فهوأن جميع العالم عائلة واحدة : ليس لها سيد إلا الله وحسب ،ويتمايز الناس بعد ذلك بالحب ،والعلم والمعرفة ، وتقوى الله والسعى فى خير الانسانية وإسعادها .

وتأييداً لهذه الآراء : وضعنا هوامش من رأى العلم الصحيح فى سائر أطواره ، والفلسفة السليمة فى جميع عصورها ، ومن الدين فى آفاق ترقيه ، ونصوص من الكتب الالهيــــه ، ثم تحليل للطبيعة وتعليقات مفيدة . . . الخ وكلها دلائل توثق أقوالنا وتؤيدها ، وفوق كل ذى علم عليم على كل حال .

وإلى هنا ينتهى الصلب وهو الجزء الأول . ويليه الجزء الثانى (على هامش المعرفة لعظمى .)

على هامش المعرفة العظمى

حواشى وشروح مكملة ومبينة لما فى المعرفة العظمى

الجزء الثانى

بقلم

الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى

رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامى وعميد السادة الفيضيين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله أولا وآخرا ظاهرا وباطنا ، ثم نثنى بالتسليم والتكريم على رسوله المصطفى وعبده المجتبى وسائر المستأهلين لمودته من أصحاب الصفا والوفا .

وبعد : فقد تساءلنا عند أول كلامنا فى المعرفة العظمى (الجزء الأول) قائلين : هل لهذه الكائنات الماثلة لحواسنا والمتجاوبة مع عقولنا ومشاعرنا ، هل لها فى أقصى حقائقها من علة أولية أسمى من المادة ومن العقل ومن الحياة ؟؟ كانت هى السبب الأول وهى الغاية القصوى للكائنات ؟ وبعبارة أخرى تكون هى الكائن الأقدس والخالق المبدع (الإله) ؟ ؟

فان لم يكن الواقع هكذا ظاهرا وباطنا . أفتكون المادة هى العلة الكونية وهى المعلولات فى الوقت نفسه ؟ ؟ كما يقول الماديون والواقعيون وأضرابهم (وهذا تناقض وخلف) .

والعقل أيضا . . فهل العقل إذا أردنا الحق فى ذاته هو علة نفسه وعلة كل شيء ؟ كما يقول العقليون والمثاليون (وهو تناقض أيضا) .

وكذلك الحياة أيضا . . فهل الحياة حقيقة ويقينا وليدة المادة ؟ أم هى كائن أسمى من المادة فى جميع أطوارها من العقل فى سائر تصرفاته ؟ ؟ وهى التى تسخر المادة لغاياتها الخاصة بها وتمد العقل بفيض من حيويتها وكل ذلك ماسنبينه فى هذا الجزء الثانى (على هامش المعرفة العظمى) .

وإليك هنا (فى جزء ٢) شرحاً وتفصيلا لرأينا من نصوص العلم وأقوال أهله فى عصرنا الحاضر (القرن العشرين) .

المؤلف

تمهيد

أن الفكرة المادية التي كانت في القرن التاسع عشر رائد الفلسفة العقائدية للماديين وكانت أيضا تكأة العلم المادي في نفس القرن ، إنما يتصل تاريخها في الحقيقة إلى العصور الأولى التي كان الفكر البشري فيها ساذجا والعلم دارجا وذلك وقت طفولة العقل وحينما كان العلم ضيق الأفق. أعني في نفس الوقت الذي خلقت فيه (الميثولوجيا) الوثنية في الدين وكذلك عندما كان يصنع الإنسان معبوده بيده ثم يعبده، لأن عقله الناشيء لا يطيق أن يرى علة للوجود لا يحسها بحواسه أو يلمسها بيده — ومن هنا نشأت إقامة التماثيل للمعبود وتأليه قوى الطبيعة أيضا . وكذلك ما انبنى على هذا وذاك من قصور مصدره أمر واحد هو سذاجة العقل البشري في بدء تاريخه الفكري والفلسفي والعلمي جميعا واستمر ذلك إلى القرن الثامن ولما جاء القرن التاسع عشر أخذ تلك القضايا كمسلمات وذلك قبل ما يتمركز (علم الطبيعة الذرى النووى) ومن أراد أن يحقق ذلك فما عليه إلا أن يرجع إلى الفلسفة الإيونية (فلسفة طاليس) في أوائل التفلسف اليوناني وفيما قبل عصر سقراط. وقد تشعبت المادية بعد أن تأثلت على يد ديموقريطس ولوثيب عام ٤٢٠ ق وظلت تتشعب فروعها وأغصانها حتى وصلت إلى القرن التاسع عشر فكون أهله على غرارها مناهج فلسفية وعلمية وكذلك السفسطائية المادية على يد مليشوت وفختة وبوخنز وهوبز الإنجليزي وذلك فيما قبل القرن التاسع عشر أي حوالي سنة ١٦٧٩ ، وقد عرفوا الأرواح حينذاك بأنها أجسام طبيعية رقيقة لدرجة أن حواسنا لا تستطيع إدراكها ، وأن ليس هناك أرواح غير مجسدة . واختصارا كان هوبز من أشد متحمسي القرن السابع عشر لتلك العقيدة عقيدة المذهب المادي ، وكان

هوبز أول منظم لتلك السفسطة، وقد روجها عند عامة الناس إذ ذاك الآخذ بالرأى الحسى فقط (لأنه الرأى الأقرب إلى حواسهم) (حواس العامة والبسطاء).

وبعد أن قطع العلم الصحيح مراحل عظيمة من التقدم أضمحل ذلك المذهب ولاسيما فى القرن العشرين، وقد ذهبت المادية بمعناها الذى كان (من رءوس العلماء بلا رجعة) وقد أحل العلم الحديث الرأى الذرى الاشعاعى محل الرأى الآلى القائل بالجوهر الفرد المادى.

ومعلوم أن أول من قال بهذا الرأى المادى ديموقريطس الذى كان يقول إن المادة تتركب من جزئيات صغيرة لانهاية لها.وهى جواهر فرده لا تنقسم إلى أصغر منها وإنما تتجمع وتتفرق فيتكون منها جميع الأجسام وجزئيات الكائنات التى منحت الحركة من ذاتها المادية لأن الحركة — فى رأيه — كامنة فى طبيعة المادة.

وهذا كما ترى رأى ساذج، وإلا فكيف منحت تلك الجزئيات الحركة ومنحها إياها سوى الخالق الحكيم الذى خلقها وخلق معها حركتها بواسطة الطاقة الذرية.

وقد حول العلماء المحققون رأى ديموقريطس من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين حولوه إلى جوهر الفرد الذرى الكهربى الحقيقى، وهو الذرة المعروفة الآن بنواتها وكهربائها (الأتوم).

وإليك من ترهات المادية مثالا آخر فى شخص بخته الذى ذهب فى تعريفه للفكر إلى القول بأن المخ يفرز الفكر بنفس الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء وتفرز بها الكلى البول، وما النفس والفكر والوجدان كل هذه الخصائص المعنوية — فى رأيه — سوى ثمرة من ثمرات وجود المادة.

وهذا يقتضى طبعا بأن ذوقنا الفنى والفكرى ، ومعانى الحب والجمال ومعهما ضمائر الناس ومعتقداتهم، كل أولئك نتيجة لمثل هذه الافرازات المادية .

. ودع هذا كله وقل لى بربك ، أين المادة وكتلتها الآن وفى عصرنا الحاضر عصر الذرة والاشعاع والنور والكهرباء ؟ أليست كلها ظاهرات لطاقة وسرعة ترجعان إلى قوة خفية ؟ ؟ وما هى القوة .. هل عرف العلم تماما طبيعتها أو وقف على سرها .. ؟ ؟

وإذا فما قيمة هذه الأحكام الخاطئة عن الكون ومافيه من مادة وحركة وسرعة وطاقة وناهيك بسر الذات الإنسانية وسر الفكر والحياة .

والحقيقة أن العلاقة بين المخ والفكر ليست علاقة علة مادية بمعلول كما سنبين ذلك فى موضعه إن شاء الله .

وكما أن الكتلة المادية الآن لامعنى لها سوى أن — المادة — حالة من حالات الحركة والسرعة (وعلى الأقل تبعا لنظرية انشتين فى النسبية) التى حققها العلماء وأثبتها العلم ، وكذلك لا ترجع حرية الإنسان وإدراكه وشعوره شخصيته وحريته وإرادته إلى أصل مادى يصدر عن علة لا تشعر ولا تحس ولاتدرك بل ما كان لمثل هذه المادية المغرقة فى النتيجة من صدى سوى رد الفعل المثالى عند أمثال تلاميذ كانت الألمانى والتصورى (باركلى وتلاميذه) المذهب القائل بأن المادة لاوجود لها فى الخارج ، وإنما يخيل إلينا فقط فنتصور أنها موجودة ، ولا وجود حقيقى إلا للعقل الذى نتصور به وجود المادة ، ولا فرق مطلقا بين ماندعى وجوده فى الخارج وبين تصورنا للشىء (فى الذات) بل حينما يتصور العقل شيئا فى الخارج فان الشىء يوجد (يخلق) لأنه لا يوجد شىء خارج العقل إذا العقل

لم يتصوره، فالأشياء صور باطلة زائلة تقع عليها حواسنا فنتصور وجودها وهى غير موجودة بالفعل والشىء الذى لا ثبات له لا يمكن أن يكون موضوعا للعلم وهذا رأى التصوريين والمثاليين من الفلاسفة المحدثين ، وهو كما ترى رد فعل عارم لفلسفة (الماديين والواقعيين) ، كهوبز وبخنر وميليشوت وغيرهم ومن رد الفعل أيضاً أن قال شوبنهاور بافكار المادة والعقل معاً ، وذهب إلى أن الإرادة لا العقل هى حقيقة الأشياء بل الوجود بأسره وذلك فى مثل قوله (العالم إرادة وفعل) وقال برجسون أنها أصل الوجود . ثم ليبنتز الذى ذهب إلى أن حقيقة الوجود ذرات روحية لاعداد لها ، فكل جوهر وكل عرض فى الكائنات مركب من مجموعة من هذه الذرات الروحية (عكساً لفكرة الذرات المادية) .

وعليه تكون حقيقة الأشياء لا المادة وهى القوة الخفية الكامنة فى الذرات الروحية . وظل الرأى هكذا منقسما بين الذرات المادية والذرات الروحية أو الإرادة كما قال (شوبنهور) أو إرادة القوة كما عند (نيتشه) أو ماشابه ذلك من فلسفات مطلقة ومثالية نقدية كما عند (كانت) أما القائل بمادية مغرقة إلى أن كشف العالم عن حقيقة المادة وتحقق لنا فى القرن العشرين أنها مجرد شحنات من نور إشعاعى تحور المادة بطاقتها ما بين تكون وتلاش أو وجود وفناء . فإذا تقرر هذا فى عالم الموضوع أى فى البيئة الكونية الخارجية — وهو رأى العلم اليوم ورأى الفلسفة العلمية أيضاً — وإذا تقرر أيضاً التقدم فى عالم الذات وفى الإدراك من طريق ما كشف عنه علم النفس الحديث (فى البيئة الداخلية) ، وقد حقق الرأى الأول سبب وجود المادة وصيروتها وأنها من ضمن الحوادث الكونية التى توجد وتتلاشى بالسرعة النووية وحقق الرأى الثانى أن النفس كائن غير مادى ، وقد انقلبت المادة على أعين العلم والعلماء إلى مجرد نور ذرى وانقلب عالم الذات والتعقل إلى مجرد نور الوعى . وعلى هذا فيجب وصف الذات بالنور وليس النور فقط ، وإنما

بأرقى طبقات النور وأسماها وأعلاها وهو النور الروحى — وإن كان ذلك النور لا يلمس ولا يحس وإنما يدرك إدراكا فقط ، وقد لا يدرك بالعقل أيضاً لأن العقل من نتاجه (من نتاج الذات الإنسانية) التى لها أن تدرك ذاتها بذاتها عن طريق العقل أو طريق القلب (الوجدان والبصيرة)

فنحن الآن وفى القرن العشرين بين نورين ، نور إشعاعى ذرى طبيعى والآخر نور روحى آلهى فالأول نور كهربى مغناطيسى يكون بطاقته محس وملموس من النور المرئى ثم يحوله إلى نور غير مرئى ثانياً حتى تنضب الطاقة الكونية فتفنى الكائنات بفناء مافيها من طاقة وحرارة بسبب الدثور الذى يعترى الطاقة الإشعاعية العامة عن طريق تحول الأشعة البنفسجية ومايليها نازلا إلى ما تحت النور الأحمر فتفقد طاقتها ، القانون الثانى لدنياكس الحرارى هذا من جهة النور الأول (الطبيعى) وأما النور الثانى نور إلهى لا يعلم سر مبعثه فى الذات الإنسانية سوى الله عز وجل فيه وهذا رأى العلم فى الناحيتين (الناحية الذرية والناحية الروحية) .

وإلى هنا نكون قد استعرضنا بداية الرأى العلمى الغربى ونهايته منذ فلسفة وعلم اليونان حتى الآن — فلم نرفيه لمحا من نور الوحى الباطنى . وقد قسمنا النشاط الوجودى إلى نشاط البيئة الداخلية الباطنية الذاتية وهو نشاط الوعى الروحى بل قل الحيوى أو النفسى أو القلبى أو قل ماشئت مما سنوضحه إذا وصلنا إلى مكانه ومقامه ، وصدق الله العظيم حيث يقول فى القرآن «نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء» .

والذى نريد أن نقوله هنا : فقط ، إن الغرب وإن كان الآن بل وخلال ثلاثة قرون أو أكثر ذو فضل على معرفة الشرق العقلية والعلمية ، وذلك الفضل لا ينكر .

غير أن الغرب أولا : ظل فى فلسفته وفى علمه مع تقدمه على عتبة الوعى الباطنى الذاتى ولم يتغلغل فيه .

وثانياً : أنه لم يكشف بعد بعلمه المتقدم عن باطن الطبيعة وأسرارها ، تلك التى تقدم العلم فى المعرفة بظواهرها وتحليل وتركيب جزئياتها ، ولم يكشف العلم أيضا ولا علم النفس الحديث (السلوكى) أو (الذاتى) بعد عن باطن الإنسان وبيئته الداخلية أو بعبارة أخرى عن سر الحياة ، ولا سر المادة ولم يبلغ العلم أو بعبارة أخرى تخلف العلم باعترافه عن البلوغ إلى سر الذرة الكونية فضلا عن سر الحوافز النفسية .

على أن الشرق قديما قد سبق الغرب فى ذلك المنحى المعنوى أجيالا طويلة ومهما أصيب الشرق بعدوى المادية الأوربية ظل محتفظا ببعض قيمه الروحية التى أضاع الغرب أكثرها وقديما أنجب الشرق عظماء الروحيين والأولياء والرسل والأنبياء وهكذا مالا ينكره علماء الغرب .

ولندع هنا القول فى تأييد هذا الرأى لعالمين عظيمين شرقيين استقيا من علوم الغرب مع حفظهما لقيمهم الروحية الشرقية ،

وهما العالم الطبيعى المصرى المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة .
والمفكر والكاتب المصرى الدكتور محمد حسين هيكل .
ثم نعقب على أقوالهما بأقوال النابهين من علماء الغرب .

حيث يقول الأول وهو الدكتور مشرفة أستاذ الرياضة التطبيقية العلمية فى خطاب له تحت عنوان (العلم والخفائية) وقد سمى الخفائية ما نسميه نحن بعلم الباطن أو بالتصوف فقال : وأما عن العلم فإنى أقصد به الجزء من المعرفة البشرية المبنى على المشاهدة المباشرة كالعلوم الطبيعية والكيميائية وعلوم النبات والحيوان والجيولوجيا والبيولوجيا ... الخ . وهذه العلوم كانت نتائج التجارب التى يقوم بها (معاشر العلماء)

فى معاملنا ومراصدنا وحقولنا فى الشرق وتقع عليها خبرتنا العلمية ونحن جميعا نوفق بين هذه النتائج باستخدام تفكيرنا البشرى وبذلك يتكون لدينا مجموعة متماسكة من المعرفة العلمية يقبلها العقل البشرى وهى معلومات تأكد حقائقها الكونية إلى أن يفتح على العلوم بأرقى منها فتكون متفقة مع نتائج المشاهدة من ناحية ومع المنطق والتفكير الصحيح من ناحية أخرى ، وهنا يجب أن أذكر أن دائرة خبرتى العلمية تكاد تكون محصورة فى العلوم الطبيعية كعلم الطبيعة وعلم الفلك وعلم الميكانيكا ، فكلما ذكرت العلم كانت هذه العلوم مرتسمة فى ذهنى فى حالة أوضح من غيرها .

وعلى ذلك فسأطلب منكم أن تجاورنى فى الفهم من جهة العلوم الطبيعية على وجه الخصوص وأما عن الخفائية فإنى أقصد بهذه العبارة مذهبا فلسفيا باطنيا خاصا مؤداه أن حقيقة الكون خافية لا سبيل إلى معرفتها عن طريق الحواس ولا عن طريق التفكير العقلى (وإن كان تفكيرا صحيحا) فهى عندهم (العلماء) سر من الأسرار لا تدرك كنهه العقول ، إلا أن هناك سبلا خاصا للوصول إلى هذه المعرفة الذاتية وهى السبل الروحية الذاتية البحته وتلك تختلف اختلافا بينا عن منهجى المشاهدة الحسية والتفكير العقلى وأن كانت متصلة بهما فى أطرافها الدنيا .

ومذهب الصوفية مذهب يقول بتلك الحقيقة ويتبع أصحابه نظما خاصا من التعبد والتأمل الروحى ، والصوفى قد يصل بهذه الوسائل إلى حالة نفسية خاصة يسمونها حالة (الاشراف) أو الشهود عندما يشعر المتأمل بوحدة الكون وارتباط أجزائه بضرب من دروب الحكمة الروحية .

فكيف يا ترى نتمكن من وضع الصلة بين المنهجين ؟ ؟

فالعلم يطلب المعرفة عن طريق الحواس مع استخدام التفكير ،

والعلم لا يقنع إلا بما تثبته التجارب العلمية ، والعالم رجل لايصدق إلا بما يرى أو بما يستنتجه بمنطقه العلمى المعقول والخفائى وأما الصوفى المحقق فيرى أن كل ما نحسه ونلمسه وننظره إنما هذه كلها مظاهر أوظلال الحقيقة التى تكون وراءها ، وتلك الحقيقة الأبدية لا يصل إليها الحس ولايدركها العقل وإنما تدركها الذات الإنسانية تلقائيا بذوقها الفطرى مع التأمل والرياضة .

وهناك فى العلم أيضا حقائق لا يمكن للعقل فضلا عن الحس إدراك كنهها كالجاذبية مثلا وهى موجودة فى جميع أنحاء الفضاء وكالأثير الذى يمثل بحرا هائلا تسبح جزئيات علمنا المادى فيه ، وبعد أن كان الجوهر الفرد جزءا من المادة لا يتجزأ أصبح اليوم ذرة من النور تحوى نواة موجبة وكهارب سالبة ، فما هو هذا النور وما يحدث عنه من كهرباء أو مغناطيس ؟ أليس معنى هذا ولو من طريق العلم أن الحقيقة الأصلية لهذه الأمور شىء لا يقع عليه حسنا ولا تكاد تدركه عقولنا .

ثم جاء أنشتين بنظريته المعروفة بالنسبية ، وجاء ديبرولى فوصف المادة بأنها موجات من الطاقة فى بحر من الأثير والنور لا سبيل إلى وصفها إلا باستعمال الرموز والمعادلات الرياضية المعقدة ، ومعنى هذا فناء الأسس المادية التى كان العلم يبنى عليها صرحه وقد استعضنا عنها بمعادلات رياضية تكاد لا تكون مادية ، ولكى أعطيكم مثالا من ذلك أترجم لكم قطعة من قول الأستاذ السير ارادينجتون أكبر العلماء الفلكيين والطبيعيين فى هذا العصر وذلك فى كتابه كنه العالم الطبيعى ص ٣٢٧ حيث يقول : (فلما يعلم أن هناك أنحاء من النفس البشرية غير مقيدة بعالم الطبيعة ففى المعنى الخفى للخليقة التى يحيط بنا وفى التعبير الفنى وفى النزوع إلى ذواتنا أو ذات الله فى كل هذه الانحاء النفسية تطمح ذواتنا إلى العلا وتجد فى ذلك تحقيقا لشىء مودعا فى طبيعتها وتبريرا لطموحها

الداخلي فهي محاولة من جانب إدراكنا أو من نور داخلي فينا ناشيء عن قوة أعظم من قوتنا ، لإدراك شيء أعلى مما نفهم والعلم نفسه يكاد لا يقدم على الشك في تبرير هذا الطموح إذ الرغبة في العلم هي نفسها ناشئة عن وازع داخلي طامع لا نقوى على ردعه وسواء في ذلك الاستزادة الفكرية من العلم أو من سائر النزعات الروحية الخفية ففي هذا النهج نجد أمامنا نورا يجذبنا إليه ونشعر بالرغبة في السعي نحوه ، أو لا يكفي أن نقف عند هذا الحد إزاء حقيقة لازمة لتشجيعنا في مجهودنا وسعينا إلى تحقيقها .

ومن يدري فلعل أبناء آخر هذا الجيل أو الجيل القادم يرون علماء الطبيعة وعلماء الدين والفلسفة متصالحين متكاتفين على خدمة البشر في النواحي الثلاثة : الطبيعية والفكرية والروحية .

ونحن نقول لأبناء جنسنا الشرقيين ولا سيما العرب خذوا عن الشرق قيمه الروحية ولحه القلبي ، وعن الغرب علمه الطبيعي ومنطقه الكوني ، وامزجوهما معاً في بوتقة التقدم الإنساني ، ثم أصهروهما بنار المثابرة والصبر والإيمان تخرج لكم سبيكة الإنسان السوي « السوبرمان » الذي ينتظره القرن العشرين وما يليه من عصور ، وذلك يكون الإنسان المتكامل الذي لا يهدر قيمة الإيمان والخلق .

هذا ، وإليك أيضاً ما يقول الدكتور محمد حسين هيكل في سلسلة مقالات له في جريدة السياسة التي كانت تصدر برئاسته : « لاشك أن العالم مع تقدم العلوم وارتقاء الحضارة وازدياد استكمال الصلة بينه وبين الوجود الذي يؤمن به مع تقدم العلم ولا سبيل إلى زوال ذلك القلق النفسي إلا إذا سدت هذه الحاجة النفسية وقد ظن الناس فيما سلف أن العلم سيصل بهم إلى زمن ينكشف فيه سر الكون وماوراء الوجود وماهية الحياة وقد كشف العلم عن كثير مما يبرر هذا الطموح لكنه لا يزال إلى اليوم برغم اتساع

ميدانه يزداد طموحه أكثر مما كان فى الماضى ولم ينكشف بعد ذلك المستور عن الحقائق أو من السر مهما جهد الإنسان فى البحث عنه من طريق المعرفة العلمية من منذ وجوده إلى الآن وظل الإنسان كذلك إلى أن اتجهت طائفة من مفكرى الغرب بسبب الحيرة إلى الشرق وعقائده وفلسفته يأملون بذلك أن يجدوا فى معارف الشرق مفتاحا لهذا السر عن طريق هدى الحدس والإلهام الغريزى .

ومن الرجم بالغيب أن نفترض الآن أن ستكلل جهودهم بالنجاح ، افتراهم بعد ذلك يخرجون بصورة جديدة من أسرار الإيمان لتهتدى بها أفئدة البشر وتطمئن ؟ أم أنهم يعودون من مباحثهم ومن استيحائهم للماضى العلمى الذى فشل فيه البحث من هذه الجهة ولم يتقدموا قيد شعرة فى كشف ذلك الغيب المستور عن حكم العقل ماداموا مترددين فى حدود العلم الطبيعى يدورون فى حلقته المفرغة كما يدور العقل فى منطقه الفلسفى ، وعليه فإننا نرتاب فى نجاح جهود علماء الغرب ومفكريه إلا باستلهامهم من إيمان الشرق سندا معنويا جديدا يسد الفراغ الذى عجزت الحضارة المادية عن سده لأن الإيمان المطلوب يمكن أن يكون مجرد نتيجة لبحث علمى الشك أساسه وقد تغلبت الروح العلمية على الغرب حتى صـــار من العسير أن يعرف نور الإلهام طريقه إلى نفس غربية اللهم إلا بعض الأفراد من فحول العلماء .

ومادام الشرق يتلقى آثار الحضارة الغربيـة ويلتهمها التهاما فأكبر الظن أن تؤدى شرارة الإلهام من نفس شرقية اجتمعت فيها آثار حضارة الغرب والقيم الروحية للشرق كما تجتمع الألوان السبعة فى نقطة واحدة تنبثق من نور الشمس فينبعث منها نور الهدى فى مستقبل هذا العصر أفضل عصور العلم والبحث .

ثم قال : فاذا صح حدسنا فقد يطمع الشرق فى انبعاث هذه الرسالة

القدسية من خلاله وقد اجتمع له علم الغرب وحضارته . إلى أن قال : والبلد الشرقى الذى يسبق غيره من هذا سيكون له فخر هداية الإنسانية إلى سبيل السعادة الحقة .

ثم قال : ولن يكون ذلك عجبا وقد كان الشرق مهد الوحى ومبعث الهدى وفى مصر نزلت الديانات الأولى منذ العصور الميثولوجية ، ثم انتقلت منها إلى فينيقيا وإلى الإغريق وروما إلى آشور وأواسط آسيا ، ومن مصر خرج الكليم موسى داعيا إلى هدى الله ، وفى بيت المقدس قام برسالته ، وفى مكة هبط الوحى على محمد ، وهذه الأراضى المقدسة أراضى مصر وما حول مصر كانت منذ أول عهد الإنسانية بالوجود مبعث الحق الأقدس والقيم الإنسانية ، وكان هذا الحق ينبعث منها يضىء للعالم طريق الرشد كلما تشعبت آراء العقل وتعرجت طرق العلم ولعل مصر تثب وثبة أخرى فتضىء بارقة أو بوارق من الأمل تبدد عن الناس قلقهم النفسانى الذى أصبح فى المجتمع الإنسانى من أثبت الحقائق الواقعة ، ولعل مطلع هذا نور الساعة يكون من مصر صاحبة مدنية العالم الأولى ، ويومئذ ينفذ مرة أخرى بهديه إلى سبيل الحق » .

وها أنت ترى أن الأول وهو العالم الطبيعى المصرى « مشرفة » قد يأس من هدى الغرب لنور الروح فعاد بعلمه إلى هدى الشرق ، والثانى « هيكل » وهو دكتور تغذت ثقافته بلبان مدنية الغرب ، وبما أنه تخصص فى الأدب والسياسة وكان له إطلاع واسع فى عالم الفلسفة ، يأس أيضا بعد أن هضم طعام الغرب فلم يره غذاء صالحا للروح وسكينة النفس ، فعاد يتمنى لمصر سابقة أهل العالم أجمع فى العالم والمدنية والحضارة أن يخرج منها ذلك المبشر بالمعرفة العلمية الداعية لسكينة النفس ، وللغذاء الروحى المطمئن للقلب ، ولا بدع فى هذا لأنه وإن كان كل مثقفى الشرق يعترفون بنهوض الغرب علميا ومدنيا إلا أن مثقفى الغرب لاينكرون أيضا أن لأهل

الشرق عموما ولا سيما مصر ثم العرب قد كان لهم الفضل الأكبر فى بدء النهضة الأوربية منذ ما يسمونه بعصر النهضة .

ونحن نسأل الله أن ينزل رحمته الواسعة على مشرفة وهيكل، وأن يكون كتابنا « المعرفة العظمى » (من موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم فى آفاق المعرفة العامة) وكذلك يكون معه هامشه أول خطوة وأول شعاعة ضئيلة أو عظيمة تبشر بانبعاث هذا النور .

حرف "أ" تاريخ النظرة المادية

تطور الجوهر الفرد من الجزء الجوهري المادي إلى النور الإشعاعي الذري

لقد عني المفكرون والباحثون جميعا منذ أقدم عصور التاريخ من فلاسفتهم وعلمائهم إلى تلاميذهم ومتابعيهم عنوا بالبحث عن حقيقة هذا الوجود وأصل المادة التي تكونت منه كتلها ومن أشهر المذاهب الفلسفية في ذلك وأقدمها مذهب طاليس المالطي، ثم لوثيب وتلميذه ديمقريطس وهم من أقدم فلاسفة اليونان، وقد قالوا جميعا بقدم المادة، وانها متمتعة منذ الأزل بحركة ذاتية فيها، ومنها يتركب كل محس وملموس.

وقد زعم طاليس أول الفلاسفة اليونانيين : أن الماء هو المادة الأصلية للكون وافترض اناكسيمونس، أن هذه المادة هي الهواء.

أما الفيثاغوريون : فأرجعوا كل شيء إلى العدد العام.

وقرر أنا كساجوراس : تعدد المادة الأولى بتعدد الأنواع المختلفة للأشياء.

ورأى أنبيذوكليس، أن أصول الأشياء أربعة : النار والهواء والماء والتراب، واتحاد هذه العناصر أو تفرقها إنما يتعلق في قانون الجاذبية والتنافس أو الحب والتنافر كما يسميها (الدفع والجذب).

ثم استطاع لوثيب وبالأخص ديموقريطس أن يذكرا : أن أساس الكون هو (الجوهر الفرد القديم) أو الجزء الذي لا يتجزأ، وأن جميع الأجسام مركبة من مجموع ذرات الجواهر الفردة، واختلاف الأجسام إنما يكون من اختلاف أحجام الذرات المادية أو وضعها أو ترتيبها،

ووصلا إلى أبعد من ذلك فقررا : أن الذرات ليست ساكنة بل متحركة حركة أزلية ذاتية لا علة لها سوى المادة .

وبهذا فسرا الكون تفسيرا آليا قائما على المادة والحركة ، أى أن مذهبهما ميكانيكى آلى يخلو من القول بالتدبير الإلهى الذى كان يقول به سقراط ، ومن الغائية مثل مايقول به أرسطو .

وتطبيقا لمذهبهما هذا ذهبا إلى أن الإنسان نشأ من الطين كالديدان بغير خالق أو غاية .

والذى يهمنا هنا أن نذكر أن النظرية الذرية الجديدة قد بدىء بها من جديد وعلى أساس جديد وفى الأعصر الحديثة (جاسندى ١٥٩٢ —١٦٥٥) و (بويل ١٦٢٧ — ١٦٩١) وكذلك (نيوتن ١٦٤٢ — ١٧٢٧) وأن أضيفت إليها إضافة ميتا فيزيقية من أن الذرات قد خلقها الله ومنحها الحركة وبعض الخصائص الأخرى .

ثم عادت هذه النظرية من جـــديد يؤازرها العلم بعد أن تقدمت دراسات الرياضة والميكانيكا والفلك والبيولوجيا ، وإن كان ذلك التقدم تقدما بطيئا .

وفى القرن السابع عشر الذى أومأنا إليه سابقا نرى عالما فيلسوفا هو (هوبز ٥٨٨ — ١٦٧٩) يؤمن بما آمن به ديموقريطس من قبل ، فيذهب إلى ان المادة والحركة هما الحقيقتان المطلقتان فى الوجود وبهما يمكن تفسير كل شىء حتى المعرفة الإنسانية ، لأن كل معرفة (فى زعمه) تجىء عن طريق الإحساس بالحواس وكل الإحساسات تنشأ من ضغط المادة على حواسنا ويقول : بل الواقع أن الإحساسات جميعا بل الأفكار ليست إلا ضروبا من الحركة الإلهية ، والعقل أو النفس فى ذاتهما مادة ، وكل تلك المزاعم كونت فلسفته الهوبزية الواهية .

أما فى القرن التاسع عشر فقد شهدت تأكيدا للفلسفة المادية بعد أن ظهر أفذاذ علماء من أمثال (هلموهتز) الذى قرر نظرية بقاء الطاقة ، (وشوان) الذى أكد أن الخلية وحدة الكائنات الحيوانية والنباتية على السواء ، وهى مكونة من بضعة عناصر طينية لا أكثر ولا أقل وشليدن الذى نبذ الفكرة الحيوية بتاتا وذلك بأن اعتبر الحياة تتولد من تلقاء نفسها عن المادة فى ظروف معينة ومن جملة عناصر مادية مختلفة .

فكان من الطبيعى ان تتجاوب الفلسفة المادية ، وتتسع فظهر (بخنز ١٨٢٤ — ١٨٩٩) الذى رأى أن القوة والحركة شىء واحد واعتبر كل شىء نتيجة لشيئين فقط (المادة ، والحركة) وهو رأى ديموقريطس من قبل وأنهما متلازمان .

وكذلك الحياة ، فقالوا إن الحياة ناشئة عن المادة ، وكذلك النبات نشأ عن معادنها ثم تطاورت هذه العناصر والمعادن من نفسها وبنفسها فأنتجت الحيوان فالإنسان .

وقد زعموا أن الإنسان مع عقله وتفكيره مجرد فرع من جنس الحيوان لا أكثر ولا أقل وإن كان حيوانا مفكرا وأن الحياة النباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية تمايزت عن بعضها بمجرد فاعلية الحركة فقط ومرت فى درجات متعاقبة واتجاهها واحد متطور ، وأن الاختلاف بين النبات والحيوان والإنسان ليس اختلافا متميزا بذاته إنما هو اختلاف فى طبيعة التركيب الذى يقوم كله على المادة والحركة فقط ، وقد عرف الآن فى عصرنا ومنذ القرن التاسع عشر أن كوكبنا الأرضى والكواكب الأخرى متى تسير فى فلكه تدور بطريقة منظمة تكاد تكون ثابتة حول الشمس كما تجرى الألكترونات (المشحونة بشحنة موجبة) والنيوترونات (لا شحنة فيها) .

وعرف أيضا أن كوكبنا الأرضى كان فى بدء أمره ومستهل وجوده

سديما قد انفصل عن نجم من النجوم فوق البراقة ، وهذا السديم ماهو إلا مجموعة من الذرات النووية المتناثرة قد انجذب بعضها إلى بعض وتدافع بعضها عن بعض فتكون شيء أشبه بالقرص الذى أخذ يدور حول نفسه .

وهذا الدوران سواء من الكواكب حول الشمس أومن الالكترونات حول النواة ماهو إلا حركة ، أى أن أضخم الأشياء فى الكون وأضألها إنما مرده إلى الحركة ولكن فرقا كبيرا بين أن تكون الحركة مادية ذاتية وهو القول القديم وأن تكون الحركة ذرية نووية طافية أساسها الإشعاع والسرعة وهو رأى العلم اليوم .

وهكذا انتهينا إلى أن الفلاسفة الماديين سواء المعاصرون منهم أو الأقدمون القائلون بمجرد الحركة الذاتية قد فند العلم الحديث المتطور نظريتهم .

فإذا قلنا مع العلم بأن الوجود أساسه الحركة فليس معنى هذا أننا نذهب مع القائلين بالمادية الصرفة بأنها حركة للمادة فحسب ، ولكننا نقول أنها حركة تخضع لقوانين الطاقة والسرعة وليس المادة فحسب وفى الوقت ذاته فإن خصائصها التى كانت لها وموجودة فيها قد بعثتها قوة كبرى غير مادية .
وهذه القوة تؤمن بأنها أثر لقدرة الله الفعالة أو كما يقول ول ديورانت ، أيمكنك أن تفكر فى ذلك الكفاح الطويل الصاعد للحياة من الإميبا حتى انيشتين ، واديسون وأناتول فرانس دون أن ترى أن العالم كثوب نسجه الله بقدرته .

ومن خطأ الماديين قولهم : إن ما نسميه عناصر بسيطة كالأكسوجين والآزوت والذهب وغير ذلك فإنها جميعا أجسام مركبة وهذا القول ليس من رأى العلم الحديث فى شيء .

ثم جد بعد ذلك أن لما بين العلم ، أن النور حركة اهتزازية كما بينه العالم الطبيعى تندال بقوله أن الحرارة والضوء ليستا سوى اهتزازات حادثة فى ذرات المادة وبرهن العلماء بأن الحرارة تتحول إلى حركة والحركة إلى حرارة تبعا لظروف معينة ، ثم جاء « امبير » فبين وحدة الكهرباء والمغناطيس .

وبهذه الاكتشافات مال العلماء إلى القول بوحدة الطبيعة في تحول كائناتها .

وكان الرأى قبل ذلك : أن النور والحرارة والكهرباء والمغناطيس كلها سوائل مادية متغايرة وكانوا يعتبرون الجاذبية والألفة الكيميائية قوى ناشئة عن تحرك دقائق هذه الأجسام المادية ، وجد أيضا القول بمادية الأثير العام المالىء لجميع الوجود والنافذ فى كل الأجسام ، وكانوا يقولون . إن الحركة وهى وليدة المادة لا تتلاشى أبدا فوجود المادة يقتضى وجود الحركة ، كما ان وجود الحركة يقتضى وجود المادة .

ولما تقدم العلم وظهرت بوادر الذرة النووية الحقيقية وأنوارها المشعة قال زعيم الماديين بخنر فى كتابه كلمات عن الفلسفة الوضعية « لما كنا نجهل أصول الكائنات ومصائرها فلا يليق بنا أن ننكر وجود شىء سابق عليها أو لاحق لها . كما أن العلوم الفرعية التى هى منابع للمذهب الحسى يجب أن نحترس من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها .

ولو صح هذا القول الصادر من عمدة الفلسفة الحسية ، أن ليس من وظيفة الفلسفة ولا العلم الحسيين الحكم على أصول الأشياء وجود اوعدما لكان هذا مانعا للماديين من الحكم على مالا يعلمونه ومالم تحط به فلسفتهم . . ولكن مع هذه الأقوال أقوال شيوخ الماديين نرى بعض أهل الشذوذ من الماديين يتطرفون فى الحكم على أصل المادة ومصيرها وقد جعلوا منها كل شىء . . العلة والمعلول ، والصانع والمصنوع فى وقت واحد . وقد ظلوا إلى أوائل القرن التاسع عشر أتباعا للوثيب وديمقراطس فى مذهبهما الحسى .

وقال الأستاذ « وليم كروكس » الكيميائى الانكليزى بهذا الصدد فى المؤتمر العلمى المنعقد ببرلين سنة ١٩٠٣ قال « لقد ظهرت فى القرن التاسع عشر نظريتان هما الكهرباء والأثير وهذا مبلغ علمنا فى القرن التاسع عشر ،

وكانت تظهر لنا مرضية ، وقد تعلمنا فى أوائل القرن العشرين أن مباحثنا ذات صبغة وقتية وهذا قول رجل من أعظم العلماء ومكتشف عدة اكتشافات لا سيما فى تصرف الكهرباء .

فما بالك ببعض العلماء الأصاغر الذين ارتشفوا من العلم رشفات ضئيلة يتسرعون بل يسارعون إلى الإلحاد بسبب المادية ويجعلون ذلك حظهم من العلم ، والعلم منهم براء فى الحقيقة .

وفى هذا المعنى يقول العلامة الفرنسى (أوجست سباتييه) أن العلماء الحقيقيين أول المعترفين فى كل فرع من فروع العلم بأنهم لم يدركوا منه إلا جزءا محدودا وأن أكثرهم تواضعا أكثرهم علما ، على أنهم كلهم معترفون (العلماء الحقيقيون) بأن ماحصلوه للآن من الاكتشافات ومادرسوه من بعض أسرار الطبيعة ليس إلا عدما بالنسبة لما يجهلونه .

هذا ماكان فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وأما وقتنا الحاضر فقد تقدم العلم تقدما يكفى فيه القول بفناء المادة ، وأنها بكل خصائصها حالة عابرة من حالات الوجود وأنها أثر من آثار طاقة إشعاعية لا ترى ولا تحس .

هذا وقد عنى الناظرون والمفكرون جميعا من أقدم العصور بالبحث عن حقيقة الوجود وجوهر المادة ومن أشهر المذاهب الفلسفية فى ذلك مذهب « لوثيب المتقدم ذكره وتلميذه « ديموقريطس » وهما من فلاسفة اليونان ، فقد قالا بقدم المادة وإن أصلها الهيولى أو الجواهر الفردة ، وهى عبارة عن ذرات مادية غاية فى الدقة غير قابلة للانقسام متحركة منذ الأزل بحركة ذاتية ، والحركة خاصة من خواصها ومنها يتركب كل محسوس وملموس ومعقول وكذلك كل جامد وكل حى فى هذا الكون الواسع .

وقد ظل هذا الرأى مقبولا ومعتمدا عليه فى دوائر العلم والفلسفة حتى أوائل القرن التاسع عشر .

وهذا لأن العلماء استطاعوا أن يعللوا به ظواهر الاتحاد الكيمائى من حيث أن الأجسام المركبة تتركب من عناصر أولية معينة كالماء مثلا يتركب من اتحاد جزئين من الإيدروجين بجزء من الأكسوجين ، ولا تختل هذه النسبة مهما كانت الأحوال والظروف ولكنهم كانوا لا يعرفون ذلك قبل الفتوح العلمية الأخيرة وعلى هذا النحو والظروف عللوا جميع العناصر ، فان لبعضها إزاء بعض عند اتحادها نسبا محدودة فاستنتجوا من هذه الظواهر والمشاهدات : أن مذهب لوثيب وديمقريطس يجب أن يكون حقيقة واقعة وبذا تكون المادة أزلية وأبدية وأن القوة والحركة من خصائص المادة .

واكتفى العلماء حينذاك بهذا الرأى ، ولأنهم استطاعوا أن يعللوا به الظواهر المادية وجزموا بأن هذه الجواهر الفردة متماثلة فى الذات متخالفة فى الصفات ، ومن اتحاد ذراتها المؤتلفة ببعضها تتألف الأجسام ذات الخصائص المتباينة .

وقد ظهر فى عصرنا أن أبسط الذرات تركيبا ذرة الأيدروجين فهى تتركب من نواة مركزية مؤلفة من بروتون واحد ويتحرك من حولها ألكترون واحد .

وتأتى بعدها ذرة الهليوم وهى تتركب من نواة ويتحرك حولها الكترونان سياران فهى أشبه بمجموعة شمسية تتركب من شمس حولها كوكبان .

وتأتى بعدها ذرة الليثيوم وتتركب من نواة يتحرك حولها ثلاثة الكترونات سيارة ثم الثلاريوم ٤ والكربون ٦ كما أن الأوكسجين نواة واحدة وثمانية الكترونات حولها وهكذا إلى آخر (جدول مندليف الذرى) .

ويطلق العلماء على عدد الالكترونات السيارة التى تتحرك حول نواة

الذرة بالعدد الذرى للعنصر . والعدد الذرى من الصفات المميزة للعنصر فهو أهم كثيرا من وزن العنصر الذرى .

فالخواص الطبيعية والكيميائية للعناصر كالخطوط الطيفية والميل الكيميائى للألفة والتكافؤ وغيرها تعين بالأعداد الذرية وليست بالأوزان كما ظن قبلا .

وتترتب العناصر حسب الأعداد الذرية كالآتى : —

(الأيدروجين) (١) (الهليوم) (٢) الليثيوم (٣) الثلاريوم (٤) البوروم (٥) الكربون (٦) الأزوت (٧) الأكسجين (٨) الكلور (٩) النيون (١٠) — الصوديوم (١١) المغنسيوم (١٢) الألومنيوم (١٣) . وهكذا حتى تصل إلى اليورانيوم (١٤) وأما الآن فالعناصر فوق المائة بما اكتشفت وأضيف إليها. وكانت : أعداد العناصر التى لم تستكشف ٤٣، ٧١، ٧٥، ٨٥، ٨٧ وقد اكتشف بعضها الآن .

وتتراوح سرعة الالكترون حول النواة بين ٢٠٠٠ و ٩٣٠٠٠ ميل فى الثانية فحسب هذا الترتيب كان يوجد ٩٢ عنصرا عدا ما اكتشف أخيرا ولا يمكن لنا أن نتصور وجود عنصر فى الكون أخف من الأيدروجين إلا إذا أمكن انقسام الالكترون والبروتون إلى أجزاء أصغر منهما وهذا مالم يقم عليه دليل إلى الآن . ولكن ليس من الخطأ اعتقاد وجود عناصر فى الكون أثقل من اليورانيوم وإن كانت لم تكشف بعد وكثير من العلماء يبحثون عن عناصر مشعة من هذا النوع ويعتقدون بوجود غاز خامد عدده الذرى ١١٨ وربما نجحوا فى اكتشاف بعض هذه العناصر فى المستقبل .

وإذا عرفنا المادة بعبارات وبكلمات أيسر قلنا : أن المادة لغة وفلسفة

هى كل ما يحس ويلمس ويقبل التعدد والانضغاط والسيولة والتخلخل والجمودة وأن جزئيات المادة فأنها دقائق صغيرة جدا ستتحرك فى المحيط الأثيرى العام المالىء للفراغ الكونى بأسره ومن هذه الدقائق مايرى وما لايرى وهو الأكثر .

وتكون المادة متراكمة بشدة فى حالة الجوامد على اختلاف أنواعها ودرجات انضغاطها وتكون قليلة التراكم والانضغاط فى حالة السوائل أما فى الغازات فتكون متخلخلة واسعة المسافات بين كل جزئية وأخرى وذلك راجع لازدياد الدفع على الجذب ضرورة وهاتان صفتان للجاذبية العامة .

والأثير : هو سيال جوى لطيف أنق وألطف من المادة بحالاتها الثلاث ومن الهواء أيضا والأثير كما عرفوه كائن عالى لكل فراغ فى الفضاء ويساوى وزنه النوعى فى المتر المكعب من الفراغ جزء من ألف مليون جزء من الجرام وفى الوسط الأثيرى تتحرك ذبذبات الضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيس وبواسطته أيضا تنتقل الاهتزازات المنطلقة فى الفضاء مثل ذبذبات الصوت والتليفزيون والرادار والراديوم (أشعة هرتز) والأثير فى غاية المرونة بحيث يقوم من الكون مقام المادة البروتوبلازميـــة من من الدم بالنسبة للأحياء وفى بحر الأثير يكون هذا الوجود الكونى الطبيعى الشىء وجودا متحولا ذا نشاط جاذب ودافع وسلبى وإيجابى .

وبديهى أنه ليس من الشرائط فى شىء أن تكون علة هذا المعلول المنظور (وهو المادة) علة ظاهره إلا بجرد صور وأطياف لتحولات والاستحالات الطاقات الذرية .

ويكون من المنطق السليم جدا أن نقول (إن هذه المادة) تتحول وتتحرك (بقدرة قادر) ويؤيد ذلك لسان المقال (بالعلم ولسان الحال بالواقع) وكذلك يقول لك نعم ثم أجل ويؤيدنا فى هذا القول أولا العلم

الحديث الذى جعل من نتائج الطاقة الذرية وجودا احتماليا بحتا لاديناميكيا ولا اضطراريا ولا قانونيا قياسيا وإنما هو الاحتمال .. والاحتمال البحت فقط وذلك فى سائر تصرف الذرات ومصير عملياتها النهائية مما يدلك على ان المتصرف فى مصير الكائنات كلها وتحولها إنما هو إرادة عليا تفعل ما تشاء دون معقب وتكون تلك الحركات بين يدى الارادة الإلهية العليا المطلقة كالقلم فى يد الكاتب يسطر به من القديم ومن الجديد ما يشاء (معنى الاحتمالية) أن نتيجة تصرف الذرة يحتمل أن تكون كذا أو كذا وبحالة لا يمكن للعقل عقلنا الطبيعى الحكم عليها أو الجزم بها وبهذا يكون كل مصير فى الكون متعلق بإرادة عليا .

وهذا التفصيل والتأكيد ليس من عند أنفسنا وليس لنا فيه إلا نظم الألفاظ وإنما هو ما أظهر العلم وأقره مع تقدم العلوم الذرية الإشعاعية بعد أن كانت الحتمية الطبيعية قانونا مطلقا يسود الكائنات جميعا وقد تحطم هذا القانون بقانون الاحتمال السائد فى الطبيعة الذرية .

وهذا ما يدل على أن وجود الطبيعة بأسرها وجود احتمالى امكانى محض . وأسأل ألت (انشتين) وأدنجتون على ذلك الأول صاحب نظرية النسبية والثانى أبرع عالم بعلم الطبيعة الذرية فى وقتنا الحاضر ومعه العلماء الذريون المحدثون أيضا .

ويؤيد نتائج هذا العلم المحدثة العقل لأن العقل السوى السليم يقول بكل أوجه منطقه بوجود علة كلية وسبب أولى غيبى للأشياء المرئية وما عدا وجود تلك العلة فوجود احتمالى امكانى محض كالمادة المنظورة وغير المنظورة أيضا مثل القوة وطاقتها ومن أعضل معضلات الفلسفة والعلم بل مسالة المسائل فيها هذا السؤال المحدد (من أين وجدت الأشياء ومن أين جاء هذا الكون جميعا .. ؟) فإن لم يجد العقل غير الناضج جوابا شافيا ينتهى أمره إما إلى الدور والتسلسل وإما إلى الشك مطلقا

حتى يجاب بالحقيقة وذلك لنزوع العقل دائما إلى المعرفة الصحيحة .

والواقع أن المادة التى كثيرا ما تخدع بأطيافها حواسنا بل وعقولنا أحيانا تبدو لنا على غير حقيقتها برغم مظاهرها التى تظهر لحواسنا ماثلة جامدة وسائلة وغازية فإنها ترى على غير حقيقتها وإذا أردنا أن نعرف شيئا عن حقيقة المادة وجب أن نحللها إلى عناصرها الأساسية لأن العناصر هى (العالم البرزخى) بين المادة وحقيقتها وهى القوة فاذا تخطينا عالم الكتلة المادية وأيضا عالم العناصر ولجأنا مباشرة إلى عالم الجوهر الذرى نجد أن المادة التى كنا نحسها ونلمسها ونرى شيئيتها ماثلة لاحساسنا قد صيرت أمام نظرنا العلمى كما متحركا من الطاقة الذرية بسرعة تزيد لدرجة سرعة النور الغير مرئى وتنقص لدرجة الأطياف المرئية ثم يكون التكتل المادى فاذا أرجعنا العناصر إلى أصلها رجعت هى الأخرى إلى أولها ومؤسسها وهو مولد الماء (الايدروجين) وهناك نرى أن نواة الكون الجوهرية ، وبعبارة أخرى (أس النوايات) الذرية الموجبة وكهاربها السالبة تلك التى قام على طاقتها وسرعة حركاتها كل كائن متكتل متشيء وهى ذات واقعية محسة فى سائر عالم الطبيعة سمائها وأرضها نراها فى أصلها جميعا أثرا لفاعلية طاقة خفية من قوة وسرعة « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » (يونس ٦٠) .

وهنا نتساءل ماذا وراء النظام الذرى ياترى ؟ ؟

صوب إلى نواة الذرة قذيفة كهربائية ذات شحنة ايجابية قوية وأطلقها عليها فتتحطم النواة وتصير اشعاعا ونورا غير مرئيين (أو قل قوة خفية) هذا ولا تظن أنه يوجد فرق بين النور والقوة والطاقة إلا فى الألفاظ والرتب لأن القوة هى الأصل والطاقة يستوى فيها أن تكون إشعاعا أو حركة أو حرارة أو نورا أو مغناطيسيا أو كهرباء أو غير ذلك ولا فرق

أيضا بين الحرارة والنور المنظور والنور الغير منظور إلا فى طول الموجات أو قصرها فإذا قصرت الموجة وزادت السرعة أصبح النور المنظور غير منظور . وها قد علمت الطريقة التى بها يمكنك أن تحول الكائنات المتشيئة والمحسة المنظورة إلى طاقة غير منظورة وبالعكس .. وعلى هذا يمكنك نفس الفعل فى كل جرم مادى جامد أو سائل أو غازى .

هذا من جهة المادة فى نفسها وفى ماديتها وأما من جهة الفعل المدرك فلنبحث فى الكيفية التى يدركها بها ادراكنا الفعلى عن طريق ادراكنا الحسى الذى يعتمد على الحواس الخمس البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهى خمس وفى مقابلها الطيف الشمسى الذى يتركب من سبعة ألوان هى البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر وذلك ما سنبينه فيما يأتى من مقام آخر إن شاء الله .

وآخر ما توصل إليه العلم بشأن المادة هو أن المادة فى حقيقتها العينية ليست إلا ذرات كهربائية ومغنطيسية ونورية لا يرى أصلها ولا تحس جواهرها الذرية ، وحتى أغلب العناصر التى تتكون منها المادة بفعل الطاقة النووية والحركة والسرعة وكل خصائص المادة ترجع إلى خصائص كهربائية ،وهنا طبعا خلاف للرأى القديم فى أصل المادة والسيال الكهربائى عبارة عن دقائق بعضها إيجابى وبعضها سلبى ، ومتى اتصل الايجابى منها بالسلبى فنى كل منهما فى الآخر وليس المراد باتصالها أن يلصق أحدهما بالآخر ، وإنما يدنو منه فتقترب دقائق الكهربائية السلبية (الكترونات) من الدقائق الكهربائية الإيجابية (بريتونات) وتدور حولها فيكون من ذلك ما نسميه الحركة والسرعة والضوء وأخيرا المادة

فالماده فى علتها وأصلها دقائق من الكهربائية الإيجابية يدور حولها دقائق من الكهربائية السلبية وقد اطلق العلماء على الدقيقة الأولى اسم (البريتون) وعلى الدقيقة الثانية اسم (الألكترون) .

لجميع المواد الجمادية والكائنات الحيوانية والنباتية الدقيقة منها والعظيمة متولدة جميعها من الكهربائية الإيجابية والسلبية ، ومنها تتكون كل العناصر البسيطة مثـــل الاكسوجين والايدروجين والنيتروجين والكلور والكربون والذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق والنيكل . . . الخ .

ومن هذه العناصر البسيطة البالغ عددها أكثر من مائة عنصر يتركب جميع أنواع الجماد والنبات والحيوان ، وذلك بواسطة الطاقة المولدة للحركة والسرعة .

فكل ذرة أو هباءة عنصرية تحوى فى نطاقها عالما كهربائيا يشبه النظام الشمسى بسيارته وأقماره ، تدفعه الحركة إلى الدوران أو الاهتزاز ، وبقدر هذه الاهتزازات بطئا وسرعة تتنوع القوى العاملة كالحرارة والنور والمغناطيس والصوت . وتتعين مقادير المركبات المحسوسة من العناصر سواء كانت جامدة أو سائلة أو غازية وبهذا تنمو الموجودات وتتوالد مواليدها .

حرف "ب" : تحول المادة راجعة إلى أمها القوة

لقد أحدث اكتشاف عنصر الراديوم انقلابا هائلا فى العلم ، ومن غريب أمر الراديوم أنه ينشع منه على الدوام ضوء وحرارة وكهرباء ، وأن مادته تنقص بالتدريج كأنها تنعدم .

وقد كان أول ما خطر على أذهان العلماء أن هذا النقصان هو نتيجة تبخر أو تحلل فاتخذوا جميع الاحتياطات الدقيقة جدا للتحقق من ذلك ، ولكن الذى اتضح لهم بعد ذلك أن لا تبخر ولا شىء من هذا القبيل ، فوقفوا حائرين مبهوتين أمام هذه الظاهرة الغريبة التى كانت تلوح لهم فى بادىء الأمر كأنها معجزة خارقة للقوانين الطبيعية ، فمن أين أتت هذه القوة التى تنبعث من الراديوم باستمرار فى شكل حرارة ونور ، ولا يمكن أن تكون قد وجدت من العدم ، ولابد لها من مصدر . وإلى أين تذهب مادة الراديوم التى تنقص ؟ لا يمكن أن تكون قد انعدمت أيضا ولا بد من أن تكون قد تحولت إلى شىء آخر غير المادة المنظورة .

وبعد أبحاث طويلة دقيقة اتضح لهم أن مادة الراديوم تتحول إلى قوة أى إلى ذلك الضوء وإلى تلك الحرارة والكهرباء التى تنشع منها .

واتضح لهم أن المادة تستحيل دائما إلى قوة بواسطة التفاعل الناشىء عن الحركة ، والحركة وليدة القوة ضرورة وأغرب مما سبق أنه اتضح أن تلك الأشعة المنبعثة من الراديوم أى تلك القوة تتحول من جهتها مرة أخرى إلى مادة بواسطة عناصر بسيطة أخرى غير الراديوم بعضها كان معروفا والبعض الآخر جديد لم يكشف بعد ، وكل العناصر والمواد تتحلل انحلاله الراديوم بسرعة أو بطء وباختلاف خواص جواهرها الذرية ،

وهذا الانحلال بطىء جداً وتزيد سرعته إذا تعرضت المادة إلى إحدى القوى الطبيعية كالحرارة والنور أو الكهرباء .

ولقد أوصل اكتشاف الراديوم العلم إلى هاتين النتيجتين المهمتين وهما : الأولى : إن المادة والقوة ليستا مستقلتين كل الاستقلال عن بعضها ، كما كان يعتقد بعض العلماء إلى ذلك الحين ، بل إن المادة تتحول إلى قوة والقوة أحياناً تتحول إلى مادة بدور آخر فهما من طبيعة واحدة وإذا سئلنا أيهما كانت الأصل للأخرى : لقلنا القوة طبعا لأن عن نشاطها يسبب تكون الكتلة المادية او قل أنها شيء واحد هو القوة وحسب .

الثانية : إن العناصر البسيطة مثل الراديوم تتحول إلى عناصر بسيطة أخرى مثل التي الأورانيوم والرصاص وغيرهما .

وقد وضع العلماء في ذلك نظريات جديدة ، تؤيدها كل التأييد الاكتشافات والمباحث الدقيقة قد حلت محل النظريات القديمة .

وخلاصة هذه النظريات أن الانوم الذرى أو الجواهر الذرية تتحول خلافا للرأى القديم ومن تحولاتها تتألف سائر المواد .

فكل مادة مهما يكون شكلها أو حالها مؤلفة من جواهر متشابهة ، وكل جوهر من هذه الجواهر يتألف من ذرات العناصر ، وكل ذرة من ذرات العناصر مؤلفة من عـــدد معين من الالكترونات السلبية والبريتونات الايجابية ، ويدور الكل حول نواة مركزية ، والكترون ما هو إلا جوهر الكهرباء ، السالبة والبريتون إن هو إلا جوهر الكهرباء الموجبة وإذن فمن جوهر الكهرباء السلبية ويساوى الواحد الالكترونات السلبية نحو جزء من عشرة ملايين مليون جزء من السنتيمتر ، أى إننا إذ وضعنا عشرة ملايين مليون من هذه الالكترونات جنبا إلى جنب، فإن طول — الصف يكون سنتيمترا واحدا .

أما وزن هذا الجوهر — الالكترون — فجزء من ألف مليون جزء من الجرام وقطر البريتون الموجب قد يكون أصغر من قطر الالكترون كثيرا ، أما وزنه فيعادل نحو ألف مرة وزن الالكترون .

وأبسط ذرات العناصر هى ذرة الهيدروجين ، وهى تتألف من بريتون واحد وألكترون واحد ، يدور الالكترون حول البريتون أى حول النواة كما يدور القمر حول الأرض وكما تدور الأرض والقمر حول الشمس والبعد بين الجوهرين نحو جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر وتتم الالكترونات دورتها فى جزء من ألف مليون جزء من الثانية .

أما باقى جواهر العناصر الأخرى فأعقد تركيبا من جوهر الإيدروجين ، ولكن يمكن تشبيه كل منها بمجموعة شمسية .

وأهم ما فى هذه النظرية إن أصل جميع الالكترونات والبريتونات على اختلافها واحد وإنما تختلف المواد والأجسام باختلاف عدد الالكترونات فى الاتوم الواحد أو قل نواتها الذرية فاتوم الحديد مثلا مكون من الالكترونات المركبة منها اتومات النحاس والذهب والفسفور والاكسوجين والراديوم والهليوم وغيرها من العناصر البسيطة ، إلا أن عددها يختلف باختلاف كل عنصر ، وما يشع الراديوم والعناصر المماثلة له إلا لانفجار أتوماتها أوجواهرها الفردة فتتطاير منها الالترونات فتحدث الضوء والحرارة والكهرباء عن ذلك .

وقد تجتمع هذه الالكترونات المتطايرة إذا سلطت عليها عناصر أخرى قد تتحد معها أو تتنافر فى ظروف خاصة فيزيد عددها أو ينقص فتحول هذه العناصر إلى عناصر مغايرة . فالعناصر كلها ترجع إلى أصل واحد وسبب اختلافها هو اخلاف عدد الكهارب التى يتألف منها كل جوهر ذرى . وقد ثبت علميا أن فى هذه الكهارب قوة اندفاع هائلة وأن القوة هى التى تدفعها إلى الدوران بجعلها كأفلاك حول نواة معينة وفى أثناء دورانها تنتقل من فلك

إلى فلك فينشأ من تنقلها هذا جواهر فردة جديدة وبالتالى عناصر جديدة والحرارة الهائلة هي التى تمكن الكهارب من حركة التنقل وإذا تذكرنا هول الحرارة التى فى جوف النجوم علمنا أن من السهل تغيير العناصر التى فيها من نوع إلى نوع فان تلك الحرارة الهائلة هى التى لايستطيع العقل أن يتصورها هي التى تفتت الجواهر الفردة وتطلق الكهارب التى فى تلك الجواهر لتثب من فلك إلى فلك آخر .

وأخيرا يحق للقرن العشرين أن يزهو مفتخرا بأهم كشوفه الطبيعية إلى الآن وذلك الاكتشاف هو بلوغ العلم لدرجة عرفان أن أصل المادة إهتزازات كهربائية . وخلاصة ذلك :

١ — أن جواهر المادة مؤلفة من الكترونات سلبية تدور حول بريتون إيجابي أوقل حول نواة مركزية .

٢ — أن الجواهر مرتبطة بعضها ببعض لتأليف الدقائق بالألفة الكيماوية التى هى جاذبية كهربائية تفعل على أبعاد صغيرة جدا .

٣ — إن الدقائق مرتبطة بعضها ببعض بجاذبية الالتصاق التى هى ما يبقى من فعل الالفة الكيماوية بعد ما ينقص منها لسبب بعد بعض الدقائق .

٤ — أن المغناطيسية ناتجة من حركة الالكترونات ولا مغناطيسية من غير مجرى كهربائى ولامجرى كهربائى من غير الكترون متحرك .

٥ — ويحدث الاشعاع من ألكترون متحرك بسرعة متزايدة على نسبة مربع حركته .

وإذن فكل دقائق (المادة) بمقتضى ذلك إنما هى دقائق كهربائية لاترى ونحن لانشعر بحركتها لاننا نحن وآلاتنا وأدواتنا متحركين معا بسرعة واحدة فإن الشعور بالحركة يقتضى وجود الاختلاف بين حركتى جسمين فإذا كان الجسمان متحركين بسرعة واحدة فى الأثير وفى جهة واحدة لم يشعر أحدهما بحركة الآخر كقطارين يسيران بسرعة واحدة فلا يشعر راكب أحدهما بالفرق بين سرعتهما وقد يخال له أنهما لايسيران .

حرف "هـ" بيان معنى الإشعاع الذرى النووى

يراد بالاشعاع انبعاث مجات من القوة وينبعث من مركز انتشارها فى الفضاء دوائر تكون صغيرة قرب مركز الاشعاع ، ثم تتسع رويدا رويدا كما يحدث فى بركة من الماء إذا ألقى فيها حجر .

والأشعة نوعان — النوع الأول ما كان أمواجاً فى الأثير كأمواج النور .

والثانى : ما كان ذرات صغيرة جدا كالتى تنبعث من عنصر الراديوم أو غيره من العناصر المشعة وتنطلق فى الفضاء بسرعة فائقة .

الاشعاع ذو الأمواج ، وينطوى تحت هذا النوع من الاشعاع .

١ — أشعة اللاسلكى التى لا نستطيع الشعور بها بواسطة حواسنا .

٢ — ويليها الأشعة التى تحت اللون الأحمر فى الطيف الشمسى ، ولا ترى أيضا بل نشعر بحرارتها لأنها أشعة حرارية .

٣ — ثم أشعة النور التى نراها ، والنور أشهر مظاهر الاشعاع .

٤ — وبعدها الأشعة التى فوق البنفسجى فى الطيف الشمسى ، ولا ترى وإنما لها فعل كيماوى فى الألواح الفوتوغرافية وغيرها .

٥ — ثم أشعة اكس وأشعة رنتجن ، وهذه الأشعة يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا فى خواصها وصفاتها ، ولكنها تتفق فى أنها أمواج فى الأثير تسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية وهى سرعة النور المعلومة .

وأشهر ما تختلف به كل فئة من الأشعـــة عن الفئة الأخرى طول أمواجها أو قصرها فأمواج أشعة جما وهى من أقصر أشعة الراديوم وأقدرها على اختراق الأجسام وهى أقصر الأمواج المعروفة .

فإذا قسنا تختلف هذه الأشعة بالمليمتر جاء طولها كما يلى : —

أشعة جما يترلوح طول امواجها بين $\frac{٥}{١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$

$\frac{٨}{١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$ من المليمتر .

أشعة اكس يتراوح طول أمواجها بين $\frac{٢}{١ر٠٠٠ر٠٠٠}$ $\frac{٦}{١٠٠ر٠٠٠}$

من المليمتر .

الأشعة التى فوق البنفسجى و يتراوح طول أمواجها بين $\frac{٢}{١ر٠٠٠و٠٠٠}$

$\frac{٦}{١٠٠ر٠٠٠}$ من المليمتر :

وكل هذه الاشعاعات لا ترى .

وتتلوها طولا أمواج النور التى يتراوح طولها بين $\frac{١}{٥}$ جزء من ألف جزء من المليمتر لأمواج الأشعة البنفسجية و $\frac{٤}{٥}$ جزء من المليمتر لأمواج الأشعة الحمراء ، وتحت الأشعة الحمراء أشعة لا ترى تسمى أشعة الحرارة كا قدمنا .

ثم نجد فاصلا بين أطوال الأمواج فى أشعة الحرارة وبين أقصر الأمواج اللاسلكية فاقصر الأمواج اللاسلكية المعروفة طولها مليمتر ، وقد تطول فتقاس بألوف الأمتار .

ولكى نقرب فهم نسبة هذه الأمواج بعضها إلى بعض فنقول ، إنا إذا جعلنا طول الموجة من أشعة جما سنتيمترا واحدا فطول الموجه من أشعة اكس يختلف من سنتيمترين ونصف إلى ٣٦٠ سنتيمترا .

وأمواج الأشعة التى فوق البنفسجى يتراوح طولها بين ٣٦٠سم و٢٦٠مترا.

وأمواج أشعة الحرارة يختلف طول أمواجها من ٧٢٠ مترا الى نحو ٦٤٤ كيلومترا على هذه النسبة .

وأمواج الأشعة اللاسلكية من نحو ٤٨٢٧ كيلومترا إلى ملايين من الكيلومترات .

والنوع الثانى من الاشعاع « اشعاع الذرات » هو انبعاث ذرات صغيرة من مصدر الاشعاع تحمل شحنات كهربائية ولهذا النوع من الاشعاع فائدة عملية قليلة لأن نور هذه الأشعة لا يستطيع النفوذ من الأجسام ، ويستطاع تولد هذه الأشعة بامرار مجرى كهربائى فى أنبوب زجاجى مفرغ من الهواء كما فى أنابيب كروكس ، وتتولد من ذاتها فى أجسام مشعة كالراديوم ولكن يصعب جدا نقل هذه الأشعة واستخدامها لأن كل أنواع المادة تمتصها بسهولة .

وأهم الذرات التى يضع من الراديوم ثلاث هى : ذرات ألفا ، ذرات بيتا ، وذرات جما . أما ذرة ألفا : فجوهر فرد من الهليـــوم مشحون بالكهرباء تسير بسرعة ١٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية ولكنها لا تسير طويلا بل تقف بعد مضى جزء قليل جدا من الثانية لأنها لا تستطيع أن تخترق أكثر من ثلاث بوصات من الهـواء ، وإذا وضعت أمامها ورقة رقيقة أوقفتها لأنها لا تستطيع اختراقها — وفى كل ذرة من ذرات ألفا قوة عظيمة بالنسبة إلى حجمها وإذا وضع أمامها ستار مدهون بكبريتيد الزنك أمكن رؤيتها حين ترتطم بالستار لأنها تولد حينئذ نورا ، أو قد تصطدم بحاجز رقيق فى آلة تكبير الصوت فيكبر صوت التصاقها حتى يصير مسموعا وهذا ما يحدث فى جهاز تكبير الصوت (الميكروفون) .

وقد جرب السير أرنست زرفورد العالم الانجليزى الشهير هذه الذرات فى تمزيق بعض العناصر كعنصر الألومنيوم ، فأفلح فى تحويل العناصر

بعضها إلى بعض ولـكن هذا لم يقع إلا على عناصر قليلة وإلى درجة محدودة.

إما ذرات بيتا . فجات من الـكهارب تسير بسرعة تتراوح بين ٥٠ الف ميل ومائة وخمسين ألف ميل فى الثانية ، ومقدرتها على النفوذ ضعيفة جدا، وليس لها فائدة طبية، أما فائدتها العملية فى الانبوب المفرغ فى آلة اللاسلـكى المستقبله وفى آلات اخرى تماثلها .

والنوع الثالث من الذرات التى تنفصل من الراديوم وتنطلق فى الفضاء هى : —

ذرات جما، وأمواجها أقصر الامواج المعروفة ، وتنفذ من جميع الأجسام ومقدار نفوذها متوقف على كثافة الجسم الذى تنفذ منه فـكثافة الألمونيوم كـكثافة الزجاج وكثافة الرصاص أربعة أضعاف كثافة الالمونيرم . لذلك نجد أن قطعة من الالمونيوم أو الزجاج سمكها أربع بوصات تمنع نفاد هذه الأشعة كما تمنع قطعة من الرصاص سمكها بوصة واحدة وأشعة جما تماثل أشعة إكس لأنها مثلها تماما فى صفاتها وخواصها .

وقبل أن تدرس هذه الاشعة منفردة فى علم الطبيعة الحديث بدقة مشاهداته وعظمة نتائجه ، فعلماء الطبيعة يعتقدون أن هذه الأشعة تنقل اليهم رسالة خطيرة وتحمل فى طياتها أنباء عن نشوء العالم أو أسرار بناء المادة من نواة الذرة ، فهم لذلك معنيون الآن بحل الرموز التى كتبت بها تلك الرسالة الخطيرة .

وقد اتجهت أنظار العلماء والعامة إلى خطورة البحث فى هذه الأشعة بما اقترح الاستاذ «ملـكن» فى نظريته الخاصة بتعليل أصلها فقد بنى الأستاذ ملـكن رأيه على أن الأشعة الـكونية تنشأ وتتوالد فى رحاب الفضاء بين النجوم،اذ تتكون ذرات العناصر الثقيلة من ذرات العناصر الخفيفة ،وهناك الأدلة العلمية التى تشير إلى أن هذا التوالد والنشوء انما هو مرحلة واحدة

من مراحل التكون والفناء فى رحاب الكون تسير فى حالات متتابعة كأنها فى حلقة مفرغة ، وذلك هو الوصف الأخير للاشعة الكونية .

وإما نحن (المؤلف) اننا قد تنبأنا فى سنة ١٩٤٧ وفى كتابنا « كتاب الوجود » المطبوع بمصر فى تلك السنة أن وراء الأشعة الكونية أشعة مطلقة لم يكتشفها العلم بعد وهى الاثر المباشر لفاعلية القدرة الإلهية البازغة فى شكل قوة مطلقة لأن ارادة الايجاد تتضمن فى محيطها ضمنا فكرة السبب والغاية ثم الابداع والنظام .

وليس هناك فى مطاق الوجود بجميع كائناته العلوية والسفلية من قوة مبدعة أو منظمة سوى تلك القوة الالهية المنبثقة عن ارادة تحدوها القدرة لاجل ابداع أول نور ظهر فى الوجود ليتكون منه هذا العالم العجيب الذى نعيش فيه ولا نعلم كل أسراره وإلى هنا يقال ما يقوله الله سبحانه وتعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

الله أكبر . أرأيت ياصاحبى أن صنم الكتلة المادية الذى كان يعبده الماديون والملحدون عصورا طويلة ويرون فيه كائنا قديما أزليا بل إلها لايفنى ولا يتحول قد تحول الآن وحطمه (تطبيق العلم الذرى الحديث) ثم حول كتلته المادية بأسرها وبخصائصها الثلاث (الجمودة والسيولة والغازية) إلى نور اشعاعى محض ينبعث عن قوة لايعلم كنهها الأعلى ولا يدرك سرها ولاسيما فيما وراء الاشعة الكونية (وهو الاشعة العامه) بالنسبة لغيرها من الاشعاعات لأنها أصل القوة الطبيعية والإشعاع والسرعة والحركة ، تلك الكائنات الخفية التى يحار العلم فى أمرها ولا يسعه أن ينعتها بما وراء المادية أو ما فوق المادية .

وهذا كله قد حدث بعد ما كان يقال فى القرن التاسع عشر وما قبله من الأفكار الخاطئة التى كانت ترى طاقتها إن هى إلا وليدة المادة وظاهرة من ظاهراتها .

وقد أصبح الآن فى القرن العشرين يقال بلسان العلم العكس تماما) إن المادة باسرها مع تعدد أوضاعها وحركتها وسرعتها إن هى إلا مجرد ظاهرة (حادثة) من ظاهرات القوة فتكونها وتلاشيها القوة عن طريق الطاقة الذرية فهذه الطاقة التى ترجع إلى النور الاشعاعى تتكون المادة وتتلاشى أيضا لأنها تنحل بواسطة قويات الذرة (نواتها وكهربها).

وعلى أثر هذا الانقلاب العظيم فى الطبيعة حدث انقلاب مماثل لمعتقد العلماء ولتفكيرهم فانقلبوا (كما سنثبت ذلك من أقوالهم) يوحدون قوانين الطبيعة ويرون أنها جميعا تصدر عن إرادة عليا بعد أن كان أكثرهم من كبار الماديين وقد أصبحوا كما سنورد لك من نصوص لأقوالهم يعترفون بأخطائهم القديمة فى تكوين المادة تلك الآراء التى كانت تصرفهم عن رؤية الحق — هذا وإن ظل انصاف العلماء منهم وهواة المادية يقولون أين الله وأين مكانه ؟وماحجمه ؟ وماشكله وماطوله وماعرضه . الخ ؟ فترد عليهم الحقيقة بلسان الحال قائلة : —

يقولون اين الله اين عجائبه	وذا الكون سفر واضح هو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم	ويبدون ماتلك القلوب تكذبه
فان امرؤ فى الافق يرسل طرفه	إذا مابدت أقطاره وكواكبه
وليس يرى الله فى عرض مجده	وهاذى حواشيه وتلك مواكبه
وأى امرىء ماسبح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الانام كثيرة	ولكن غرور المرء لاشك غالبه

حرف «د» أقوال العلماء الطبيعيين الحديثين العدول في حقيقة الكون

وسنبدأ هذه الأقوال تعقيبا على ما تقدم بما يقوله أكبر علماء الطبيعة الذرية فى عصرنا الحاضر وهو إمام (الطبيعة الذرية) الاستاذ أدنجتن وفيه يقرر كيف أن علمه الذرى أرغمه على رؤية سلطان الالوهية فى تصرفات الطاقه الذرية وبالتالى فى تصريف شئون هذه الكائنات من أقل ذريرة مادية أو نورية إلى أكبر مجرة أوسدية كونية . والأستاذ ادنجتن هو أخبر العلماء بالنور الذرى واستاذ علم الفلك بجامعة كامبردج وهو يعد ثقة فى العلم الذرى ويعتبر أيضا ثقة فى علم الفلك والرياضيات والطبيعيات الأخرى وخصوصا العلم الطبيعى الذرى ، فاصغ إليه فيما يقول :

« من المعلوم أن المادة فى أقصى تركيبها ليست سوى شحنات كهربائية خالصة يطلق عليها اسما البريتون والالكترون — النواة الذرية وكهاربها ومنها ماهو سالب وماهو موجب .

ومعلوم أيضا أن أى عنصر من العناصر يستطيع أن يشع نورا اشعاعيا بشرط أن يكون العنصر فى حالة خصوصية من حيث الحركة والبيئة الطبيعية التى تتفاعل معه وعملية الاشعاع تتم بعلامة خاصة بحيث إذا أجرينا انشعاعا استطعنا أن نتأكد من هذه العلامة فاذا حدثت فهناك يحصل تبادل بينها وبين الإشعاع .

وتلك العلامة هى أن يسقط الالكترون (الكهرب) من أحد أفلاكه حول النواة إلى فلك أصغر فيقترب بذلك منها ، ويستطيع كذلك أن يسقط إلى فلك أقرب فأقرب من النواة حتى يلتصق بها أخيرا فى كل هذه السقطات والوثبات ينبعث من الجوهر الذرى إشعاعا معينا تتوقف موجته على مقدار

الوثبة ومركزها ، وعندما يندمج الالكترون فى الوثبة الأخيرة بالنواة يكون العنصر قد استنفد جميع طاقته وتكون قد استحالت هذه الطاقة المخزونة إلى حالة اشعاعية خالصة ، وبهذا الفعل التدريجى تزول المادة وتستحيل إلى اشعاع وهو النبع الذى تولدت عنه أيضا .

ولكن متى يثب الالكترون وإلى أى مدى يثب ؟ إلى هنا لم يحظ العلم إلى الآن بجواب فلاهو يعرف متى يشرع الالكترون فى السقوط والوثبات ولا إلى أى مدى يصل فى تصرفه .

ولكن العلم يعرف تماما أنه حينما يشرع الالكترون فى السقوط نحو النواة توجد عدة احتمالات ومع عدم امكاننا القطع بوجوب وقوع هذه الحالات وحتمية نتائجها لايمكننا كذلك أن نعين النتائج الطبيعية المترتبة على تلك الوثبات والسقطات تعيينا علميا مضبوطا .

ونلاحظ من هذا أن العلم له حدود إزاء تصرف الأتوم لايستطيع تخطيها ولامعرفة ماوراء ذلك من أسرار منبثة فى خفايا الكون . ومتى أدركنا ذلك رأينا أن حدود العلم قد تعوقه عن ادراك سائر ماوراء سلوبه الطبيعى من حقائق .

والإشعاع هو الوسيلة الوحيدة التى نعرف بوسطتها ما يجرى داخل الذرة النواوية ولكننا لانحكم بصفة قاطعة على مدى تصرفه ، وإذن فمع عدم استطاعة العلم الاحاطة بسر هذا المفتاح الوحيد الذى يمكن أن يؤدى إلى فهم اسرار هذا الكون العظيم يظل بيدنا ومعنا حقيقة واحدة ناصعة عن تصرف الكون فى النهاية وذلك الأمر الذى أعجز العلم والعلماء عن فهم مكنونات الكون وليس هذا فقط ولكن الأمر تعدى هذا النقص السلبى فى المعرفة إلى اليقين بأن الكون فى أقصى حقائقه متمتع بالابداع والحرية والابداع والحرية من أخص خصائص الإرادة الإلهية أرادة ذلك المتصرف الأعظم

فى شئون هذا الكون بأسره وفيه و (فى الكون) تستقر مسحة خالصة من الحرية والابداع الالهيين وهاتان الصفتان من النعوت الحقيقية لله ولادخل للنعوت الآلية العلمية فيها ، وفى هذه الصفات التى يتمتع بها المتصرف النهائى للكون توجد خاصة من أهم خصائص الله وهى الخلق والحرية والابداع وتلك الخصائص اقترنت بمعنى الالوهية منذ بدء الكائنات وحتى تنتهى إليه ، والأجدر بالعلم النزيه أن يقرر ما يوجبه الحق وإن سماه البعض منهجا دينيا إلا أنه بالفعل أمر علمى شائع فى أعلى الأسباب لحوادث الكائنات ، وعلى العلم الصحيح إدراك المعانى الإلهية التى يشاهد آثارها ويقدرها

والاعتقاد بوجود الله هو النبع الإسمى لكل فكرة انسانية والعلم إن حاد عن الفكرة الإنسانية فقد حاد عن الحق وعن الله وحاد عن واجبه أيضا وهذا القول بنصه صـــدر عن أكبر العلماء الطبيعية الذرية كما قدمنا

ويقول الأستاذ بيو فى كتابه شذرات علمية (على قدر ماتدبر فى نظام هذا الكون العجيب وسعته وتأمل فى عجائبه الكثيرة تعجب من تكوين هذا الوجود وأرى أن تلك التفسيرات الناقصة والتعليلات الكاذبة المبهمة التى يريد أن يقنعنا بعض الكتاب الماديين وأصاغر أهل العلم بوصف أنها مدركات سامية انها لاتظهر لدى العلم الصحيح إلا تافهة ومجحفة وخصوصا إذا قورنت بالطبيعة نفسها ومافيها من عظمة واتساق وجمال ونظام ولو أنهم تشرفوا بمعرفة بعض جمال الطبيعة أو كمال النظام الموجود فيها أحسوا بعظمة هذا الكون ومافيه من أسرار وماوراء تلك الظواهر الطبيعية من حقائق لو نظروا هكذا لوجدوا أنفسهم مرغمين على أن يعتبروا الأشخاص الذين يريدون أن يشوهوا هذا الجمال وتلك العظمة بتدليسهم العلمى القبيح كفارا وملاحدة لأن من يرى نظام الكواكب والنجوم والمجرات والسيارات فى القبة الزرقاء بل ونظام أدق الذرات الكونية وكذلك من يرى من أفاعيل

الحياة فى الكائنات النباتية والحيوانية يراها كلها متمتعة بوسائل حياتها الذاتية المتنوعة على اختلاف أجهزتها ووظائفها ، أو من يتأمل فى الإنسان وتركيبه ووظائف أعضائه وفى مواهبه العقلية والنفسية المدهشة يدله كل ذلك الصنع البديع من الطريق المباشر القريب على عظمة الخالق القدير .

والواقع الذى لا شك فيه أن كل مانشاهده بحواسنا على الأسلوب العلمى الضيق إن هو إلا الظواهر مما تظهر به الطبيعة الخارجية لحواسنا فإن شغلنا هذا عن الحقائق حجب عنا بذلك من الأسرار المنبثة خلف تلك المظاهر ماهو أعجب وأوكد وإلا فمن من العلماء جميعا ياترى يؤكد لنا أنه عرف سر الذرة النووية وما وراء الذرة من الإشعاع المختلف المتنوع بل ومن أشعة كونية عامة من العلماء ومن ياترى منهم عرف سر الكهرباء فى اطلاقها وحقيقتها ؟ ؟ من منهم عرف سر الجاذبية وما وراء قانونها ؟ ؟ فضلا عن الأسرار الخاصة بالكائنات الحية وأسباب حركاتها ودوافعها الإرادية ؟ ؟ فإن فهمنا كل هـــذا ولم تدرك ما وراءه من حكمة وعظمة وجمال وجلال نكون قد ظلمنا وعينا وناقضنا سرائرنا . وحاصل أمر العلم فى ذلك كله ما يقرره الأستاذ استوارت مل حيث يقول (تبدو لنا الحياة الإنسانية محاطة بغوامض الأسرار وإن دائرة تجاربنا التطبيقية الطبيعية كأنها جزيرة صغيرة فى بحر لا نهاية له من الأسباب والمسببات والعلل بل من الحقائق الخفية) .

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية مجلد ٢٧ صفحة ٨٤٦ : (أن الوجود الذى أوجده الله ليس بآلة ساذجة كما تحاول المادية أن تقنع به الناس بمثل تلك المحاولات الطائشة الشبيهة بالعلم التى تبديها .) .

ويقول العلامة الفلكى الشهير هيرشل (كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية لحكمته

فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا جميعا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده) .

وكذلك يقول الأستاذ الفيلسوف الفرنسى كميل فلامريون يخاطب الماديين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين قائلا : «إنكم أيها الماديين تحملون العلم هذا العبء الثقيل من صلفكم العلمى ولو سمعكم العلم الذى تدعون أنكم من أبنائه لضحك استهزاء من غروركم — إنكم تقولون أن العلم يثبت والعلم ينفى فى أمور هى فوق طاقة العلم والعلم أيها المغرورون فى مثل هذه المسائل لاينفى ولا يثبت ، وبمثل ذلك تضعون على شفتى العلم المسكين كلاما لا يقره . ان العلم أيها المغرورون لايثبت عللا فيما وراء الطبيعة ولا ينفيها ولكنه يبحث فيما بين يديه فقط ، إن تعبيراتكم الجوفاء قد تغرر بالذين لم يطلعوا على حقيقة العلم ويجب أن تفكروا قليلا أو كثيرا فى أن كل من يقسم بسمة العلم يجب أن يكون أمينا له ومخلصا ولا يفترى عليه قط مالم يقله) .

ويؤيد ذلك أيضا قول العلامة هربرت سبنسر : (إننا نرى بين كل هذه الأسرار الكونية التى تزداد غموضا كلما زاد بحثنا فيها متطلعين إلى ماوراءها من حقائق تدل جميعها فى النهاية على حقيقة واحدة واضحة ولا بد من إقرار العلم لها ، وهى انه يوجد فوق الإنسان والأشياء والقوانين قوة أزلية أبدية ينشأ عن وجودها وجود هذا العلم والعوالم الأخرى التى غالبا ما نجهلها) .

فانظر معى يارعاك الله ماقدمنا وما سنزيدك منه من أقوال أئمة العلماء وأساطينهم تلك الأقوال التى يتبين لك منها أن الالحاد ليس نتيجة حقيقية من نتائج العلم الصحيح ولا يمكن أن يكون العلم كذلك لاسيما فى عصرنا

الحاضر الذى اتسع فيه نطاق العلم ، وكلما اتسع أمامه ذلك النطاق فاجأه من أسرار هذه الكائنات ما لم يكن منتظرا ، بل إن الأمر أصبح بالعكس وأصبح العلم الحاضر لمن أوغل فيه يؤدى إلى الإيمان اليقينى ، ولسنا مبالغين أن أكابر العلماء أصبحوا فى حالة نفسية وذهنية تقرب العلماء من معانى التصوف ، وحسبك على ذلك دليلا نتائج العلوم الرياضية والذرية والفلكية والنفسية والروحية التى يعتنقها كبار العلماء والتى تزيل ما بين الطبيعة وما بعد الطبيعة من حجب كانت مخيمة على عقول العلماء فى أوائل القرن التاسع عشر وما قبله ، ويؤيد ذلك قول العلامة الطائر الصيت الأستاذ لينيه وهو من أئمة علماء الطبيعة «إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شىء قد تجلى لى ببدائع صنعه حتى صرت مندهشا مبهوتا فأى قدرة وأى حكمة وأى أبداع قد أبدع به مصنوعات يده سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها وأن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظمة رحمة الله الذى سخرها لنا كما أن فى جمالها وتناسقها ما ينبىء بواسع حكمـــته وفى حفظها من التلاشى وتجددها ما يجعلنا أن نخر ساجدين لجلال عظمته .

أرأيت كيف أن العلم الصحيح يشهد بوحدة الخالق وكمال سلطانه ويقر بعظمته ولتعلمن أن علومنا الطبيعية فى نفسها وفى محيطها محدودة المدى وهى ذات قصور يوجب محدودية معلوماتنا عن أعمال الطبيعة فضلا عما وراءها ، ثم إننا مضطرون لتجاوز حدود تلك الظواهر ويجب أن نؤمن بوجود قوى وحقائق وراء ما نراه بحواسنا وحتى وراء ماقد ندركه بعقولنا المحدودة ،ويتبين لنا ذلك جليا حينما ندرس ماضى الخليقة ومبادىء الأشياء وما وراء القوانين والنظم وما هو كامن خلف ذلك الستار المادى مما يضطرنا إلى الاعتراف بوجود حياة وارادة المهيتين تسودان قوانين العالم الطبيعى بأسره وكل نظامه المنظورة وغير المنظورة وبالتالى وجود إله فوق الطبيعة وفوق الأنسان ومداركه الساذجة ذات القصور أيضا .

ويقول الدكتور روبن خلودالعالم الجيولوجى وعضوالجمعيةالجيولوجية الأمريكية : (لقد رفض الكثير من المشتغلين بالعلوم الطبيعية فكرة ماوراء الطبيعة أو مافوقها ومع ذلك فإن كثيرين ممن رفضوا هذه الفكرة يتحدثون فى الوقت ذاته عن الحقائق الطبيعية التى لايعلمون عن كنهها شيئا كما يتكلمون عن إله (يؤلهون الطبيعة) ، ويتكلمون عن الظواهر الطبيعية كأنها حقائق متكررة ، ولكن كل ذلك لايعتبر شرحا أوبيانا لحقائقها وعلى ذلك فإن تسليم الإنسان فى وقت من الأوقات بإمكان حدوث ظواهر غير معلومة السبب ويحار فى كنهها العقل والقلم سواء كانت طبيعية أو من وراء الطبيعة فإن ذلك على كل حال يعتبر نوعا من التسليم والإيمان بهما وبوجود فوق وجود الطبيعة ، وقد نستطيع فى ضوء خبرتنا العلمية أن نتقدم بالسؤال التالى: هل تم اختراع جهاز الرادار نتيجة لمصادفة عن طريق التصميم والاختراع ، أم تم كنتيجة مشابهة لجهاز الرادار الموجود بجسم الوطواط مثلا ولايحتاج ذلك الحيوان قط لاصلاحه كما نفعل نحن بل ويستطيع أن يورثه لذريته عبر الأجيال) .

أن الخبرة العلمية للإنسان قد تقوم على التصميم أوعلى إدراك الأسباب أو عن طريق التطبيق والمشابهة لمثل قائمة فى الطبيعة من صنع الله نفسه وذلك كثير مما يوجب على المشتغل بالعلوم أن يكون أول من يجب عليه التسليم تسليما منطقيا بوجود عقل آلهى مبدع لا حدود لقدرته وعلمه ، وبأن عنايته موجودة فى كل مكان وأنه يحوط مخلوقاته بتلك العناية وسواء فى ذلك الكون المتسع أو كل ذرة وكل ذرة وكل جزئى يتألف منه هذا الكون ، وتلك هى الحقيقة اللانهائية التى يحـــار الإنسان فى شرح تفاصيلها الدقيقة) .

وكذلك يقول الدكتور روبرت هرتون أستاذ الرياضيات بجامعة

ما نسوتا : (أن السبيل إلى اتفاق ما وصلت إليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء فى الكتب السماوية هو أخذ العلم عن طريق البصر والبصيرة معا ، أما البصر فمنه ما نتعلمه فى حياتنا وما نشهده عن طريق حواسنا من خبرة بأمور الحياة وبظواهر العلم ، وأما البصيرة فهى ذلك النور الذى يقذفه الله فى قلوبنا فيكشف لنا به عما لا نعلم ، وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله إذ لابد أن يقوم أولا على البصر وملاحظة أبداع فى ملكه ثم نلجأ إلى قلوبنا ضارعين إلى الله أن يكمل لنا إيماننا مع علمنا وإن يدعمهما بمعرفته) .

وهكذا يقول العلامة الطبيعى إند روكلير رئيس قسم العلوم الآكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو يقول متسائلا (هل هنالك اله ؟؟) ثم يقول نعم إنى أؤمن بوجوده كما لو كان ذلك شيئا ألمسه وكما أؤمن بوجود نفسى ، وأين كانت نفسى قبل خلقها وحين كنت كتلة من العظم واللحم وتكون جهازى عن المادة أو عن الطاقة التى نؤمن بوجودهما معا وماهما فى الحقيقة سوى مظهرين من مظاهر وجود الله) .

وأيضا يقول العلامة أندريه كريسون بجامعة ليون تحت عنوان (الحياة والعلم) « لنتأمل فى كائن حى سواء كان نباتا أو حيوانا يكون تركيبه على شىء من الدقة فهل يدل مظهره وباطنه على أنه من عمل طبيعة إلهيه عمياء غير مدركة ؟ أو أن تركيبه يدل على غير هذا لأنه يدل على إبداع صانع حكيم فكر فيه وأوجده . كذلك كل ظواهر الحياة تلوح لرائيها من أول وهلة أنها ظواهر قصد منها غايات معينة . فتأمل فى الأعضاء المختلفة التى تعمل فى هضم الأغذية لدى الحيوانات الثديية من الرتب العالية تراها قد ركبت بتناسب دقيق وحساب عميق محكم بحيث تتكافل كلها فى عملها الخاص بها » .

وإذا نظرنا إلى أسنان الحيوانات المجترة يظهر لنا جليا أنها وضعت ملائمة لهرس الأعشاب وقد جعلت لها ألسنة صالحة لالتقاطها ، وإذا استجلينا معداتها وجدنا أنها قد جهزت بالأجهزة الضرورية التى يستطيع الحيوان أن يملأها بالأغذية التى تكفيه وإن يجترها منها ثانية ليعيد مضغها فى وقت فراغه ، وقد صيغت لها الأمعاء طويلة لتتمكن من امتصاص المستخلصات الغذائية المستخلصة من المواد النباتية وذلك بعكس أكلة اللحوم فإن فى أجهزة أحشائها نظاما آخر يناسبها وعلى هذا النحو من التناسب والتلاءم تقوم جميع أجزاء هذا الحيوان بحيث إذا أتينا بضرس من أضراسها أمكننا وصف سائر ما يتبعه من الأعضاء الهضمية .

فهل هذا التدبير مما يتعقل أن يكون إذا لم تكن قد دعت إليه الغاية الإلهية التى وجدت هذه الأعضاء لأدائها ؟ .

وهذا القصد الظاهر المدرك فى تكوين الكائنات يمتد إلى أبعد مما ذكرنا فان أعضاء أى كائن لم يخلق بعضها مناسبا للبعض الآخر فحسب ولكن قصد منها أيضا إن تحقق حفظ الأفراد وأنواعها فى بيئة معينة وأريد أن تكون على حالة مقصودة لأله حكيم) .

هذا وهل يتصور عاقل أو يفكر بعكس ذلك فيعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ ثم إنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ؟ ؟ ثم فرضته على نفسها بنفسها مع جمودها وعدم إدراكها ؟ ؟ .

فلاشك أن الجواب سوف يكون سلبيا وإن لهذه المخلوقات فى مجموعها خالقا حكيما بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة تبعث عن وعى وإدراك وراءها .

وإن المادة الناتجة عن القوة العامة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة التى وجدت قبلها .

ويدلنا البحث فى الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة بطيئة ، وهذا وذاك يدل على كل حال أن المادة ليست أبدية ، ويدل أيضا على أن المادة لم تكن أزلية كما تقدم إذ أن لها بداية ولها نهاية .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية لأنها وليدة حركة وسرعة عظيمتين وتستطيع العلوم أيضا أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد .

بل إن التقدم الذى أحرزه العلم فى عصرنا الحاضر يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل إننا إذا فكرنا تفكيرا عميقا مليا بحقائق الأشياء فان العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله .

ويقول العالم إدوارد لوثر أستاذ علم الأحياء ورئيس هذا القسم بجامعة سان فرانسيسكو (أن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ الرأى القائل بأزلية هذا الكون فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون ازليا ، فهنالك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينصب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيمائية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون ، ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ولاتزال

العمليات الكيمائية والطبيعية تسير فى طريقها دل ذلك على وجود الفناء والتجدد إلى ان تتلاشى الطاقة العامة فتتلاشى الكائنات) .

ويستنتج من ذلك كله أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا أو أبديا وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وله أيضا نهاية وذلك يثبت وجود الإله الذى لا بداية له ولا نهاية وبيان ذلك أن كل ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد من مبدأ أول ومحرك وراع أى لابد له من اله خالق كما لا بد له أيضا من نهاية .

ويقول العالم كلود.م هاناواى مصمم العقل الألكترونى لدراسة الملاحة الجوية . (إننى أسلم بوجود اللاماديات لأنى بوصفى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب إلهى غير مادى وهو بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم الطبيعية المحدودة المنهج المرتبطه دائما بالحواس والخبرة الموضوعية التى تعجزها عن الوصول إليه،وفوق ذلك فان الفيزياء الحديثة قد علمتنى أن الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها بنفسها أو أن تسيطر على نفسها بقوانين تضعها وقد أدرك قديما السير اسحق نيوتن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ووصل من ذلك إلى أنه لابد من أن يكمن لهذا الكون بداية كما لا بد أنه قد وضع تبعا لتصميم معين ونظام مرسوم له نهاية وأيدت دراسة القانون الثانى للديناميكا الحرارية هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة .

ويقول الدكتور دنيكان بيتر : (إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتها والحياة فى شتى صورها وأخيرا الإنسان بكل قدراته العليا كل هذا أشد تعقيدا من أن يتصور الانسان أنه حدث هكذا وحده بمحض الصدفة أو بفصل المادة الميتة أو طبيعة عمياء ولامناص أمام ذلك من وجود عقل

مسيطر ومن إله خالق وراء كل كائن ، ولما كان الإنسان أسمى عن كل يحوطه من الكائنات المختلفة فلابدأن يكون قد حظى باهتمام خالقه المبدع الذى لابد أن يكون له وجود ذاتى) .

ويقول العلامة ولتراوسكار أستاذ الفيزياء بجامعة مانسوتا : (الواقع أن إنكار وجود الله غالبا ما يكون بسبب ما تتبعه وتذيعه بعض الجماعات أو المنظمات الالحادية أو الدوليه من شك والحاد تلك التى لها سياسة معينة ترمى إلى شيوع الالحاد ومعادية الإيمان بالله بسبب تعارض هذه العقيدة مع صالح تلك الجماعات أو مبادئها) .

ويقول العالم دونالد أسكار أستاذ الكيمياء الجيولوجية بجامعة كالومبيا : (أنه قد يتجلى التوافق بين العلوم والدين فى ذلك النشيد الذى دائما استمع إليه يتغنى به الملايين فى أمريكا ذلك النشيد الذى ربما كان تأليفه من وحى الكشوف العلمية الحديثة التى تمت فى السنوات الأخيرة وهذا النشيد يقول : ياإلهى العظيم عند ما أنظر بعجب ورهبة إلى العوالم التى صنعتها يداك) وأبصر النوم وأسمع هدير الرعد فى زمجرته عندئذ تتجلى لى قوتك فى كل أرجاء الكون وعندئذ تغنى روحى وتناجى الهى العظيم ما أعظم ابداعك) .

ويقول العلامة رسل لو ين أستاذ علم الحيوان بكلية هويتن إن الحقيقة التى لاشك فيها والتى تكون دائما نتيجة لكل بحث راق ولا تستطيع النظريات المادية أن تنتقص منها هى : أن الإله الذى يصل إليه الإنسان بوعيه ودراسته العلمية المنظمة هـــو نفس الإله الذى تتحدث عنه الكتب السماوية » .

ويقول الاستاذ وليم كروكس : « منذ سنوات عديدة كنت أجلس إلى مائدة الطعام مع جماعة من رجال الأعمال وكان معنا أحد مشهورى

رجال العلوم ، وفى أثناء الحديث الذى دار بيننا قال أحد رجال الأعمال :
« سمعت أن معظم المشتغلين بالعلوم ملحدون فهل هذا القول صحيح ؟
ثم نظر رجل الأعمال إلى . . فأجبته قائلا : « إننى لا أعتقد أن هذا القول
صحيح . بل إننى — على نقيض ذلك — وقد وجدت فى قراءاتى ومناقشاتى
أن معظم من اشتغلوا فى ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين ،
ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم أو أساءوا فهمهم أو يكونوا هم أنفسهم
من ناقصى العلم . ثم استطرد قائلا :

« إن الالحاد والمذهب المادى يتعارضان مع الطريقة التى يتبعها رجل
العلوم الحقيقى فى تفكيره وعمله وحياته ، فهو يتسع المبدأ الذى يقول بأنه
لا يمكن أن توجد آلة دون وجود صانع صنعها وهو يستخدم العقل على
أساس الحقائق المعروفة ، ويدخل إلى معمله فى حدود علمه ويمتلىء قلبه
بالإيمان حين يرى عجائب الكون التى تدل على صانعه ومعظم رجال العلوم
يقومون بأعمالهم حبا فى المعرفة ومنفعة الناس ، حقيقة أن رجل العلوم
يستخدم الفكرة الآلية بوصفها إحدى وسائله أو أدواته فهو يتكلم مثلا
عن آلية الجسم ولكنه يجرى بحوثه على أساس ومبدأ السببية ومبدأ السبب
والنتيجة ، وعلى أساس وحدة الكون وما يسوده من النظام والقوانين ،
وهو كأى أنسان آخر يتخذ كل قرار ويفكر فى كل أمر على أساس
الإيمان بمبدأ العلية وإن الإعتقاد فى وجود الله ضرورى لإكمال معنى
الحياة ومعنى العلم الكون،هذا ولاشك أن العلماء العقلاء من الناس سوف
يبحثون دائما عن هذا المعنى .

وهذا هو الواقع والحق الذى لامناص للعلم والفلسفة أن يقرراه ولا محدى
للعلماء المخلصين عنه .

حرف "هـ" اختلاف آراء العلماء في علة وجود الكائنات

ليس الخلاف في وجود سبب أولى لهذه الكائنات ، وأنما اختلفوا في ماهية هذا السبب هل هو الله أو المادة أو الطبيعة أو غير ذلك .

نعم لا ينكر كل أولئك وجود علة أولية للوجود سوى القائلين بالصدفة والقول بالصدفة أو القول بخلق الوجود من العدم المحض سواء ، وكلاهما باطل .

وقوانين الطبيعة لم تخلقها الطبيعة نفسها وإنما خلقها العلماء كفروض وصلوا اليها نتيجة لمشاهداتهم الحسية وتجاربهم العلمية على الأشياء الطبيعية اذ كانت مطابقة للواقع ، وتلك التجارب تصف كيفية وقوع الحوادث لا ماهياتها ولا أسبابها الكامنة وراء القوانين ،وعلى التطبيقات الموافقة للفروض التى أسست عليها تلك النظريات وشهود النظام في الوجود حكموا بأن هناك قوانين على أن لا أحد من الخليقة يستطيع أن يقول بوجود قوانين دون مقنن .

حرف „ و „ الحقيقة

ونتيجة هذا القول أن القانون نفسه يظل بعيداً جداً عن تعليل الحادثة والعوامل السببية التى تظل مختفية وراءها (بما أنه يصف الحوادث ولا يعللها وإن من الخطا الصارخ لصغار العلماء أن يدخل أحدهم العلم فيما ليس من شأنه وما هو خارج عن حدود أسلوبه التجريبي وطبيعته الحسية .

وذلك بأن يفرض أحدهم فروضاً محدودة المدى وضئيلة العدد ويريد أن توافق تلك الفروض الاحتمالية الحقائق الماثلة له وراء وحدات الطبيعة وأيضا الحقائق الغيبية لعلوها فى طبيعتها عن مستوى الأسلوب العلمى المحدود المحدود والمقيد بحدود الحس والمحسات فاذا جاءت النتائج على عكس الفروض التى اقترحها أرغم الحقائق من طريق الغلط أو من طريق المغالطة على أن تكون مطابقة لفروضه السابقة فيحصل من ذلك بالضرورة التبلبل والتردد الذى تراه فى الميدان العادى للعلم وهذا يقضى بدوره إما أن يتهم العالم فروضه ومنهجه العلمى وينظر الى ابعد من تلك الفروض وأما أن يتهم القائلين برأى غير رأيه وينظر خلاف نظره بالجمود والتأخر .

واذن ألا فليعلم أولئك النفر من صغار أهل العلم أن الشهود الواقعى يثبت أن فى العالم نظاما محكما يدل على منظم أعلى تكمن فاعليته وراء القوانين والنظم البادية للعلم وللعلماء فان أرادوها فوضى لتتفق مع أهوائهم وأخطائهم كان فى هذا سقوط لقيمة العلم وفية أيضا انحراف عن المنطق الصحيح للعقل .

ويظل الوجود برغم هذا وذالك تبزغ فيه نظم ادراكيه بل ويلمح خلاله ادراك مطلق يسيطر على جميع أسبابه وقوانينه ونتائجها .

ويا ليت شعرى إذا لم يكن لهذا الكون إله متجل بصفاته وأفعاله يدبر شئونه

وطبعا صفاته غير أفعاله وغير ذاته — التى لاتتحيز ولا تتكيف .

فأين يا ترى تتجلى تلك الصفات وهاتيك الأفعال الا فى مثل هذا الوجود الكونى والمحيط الذى أبدعه الله بسمائه وأرضه كأثر لصفاته وأفعاله اللازمة عن وجود ذاته .

ألا فليعلم الناس أن الارادة الالهية فعلا بارزا عن خصائصها وللقدرة الالهية قوة وللحياة الالهية مركز عد ومحرك يلزم عنه طاقة وحركة وسرعة ولله كذلك علم يلزم عنه الاحاطة بما يفعل قبل وبعد الفصل وقبل الغاية التى لأجلها يفعل بالحالة التى تمثل لنا دائرة محيطها المادة وأقطارها القوه ومركزها الصفات الالهية ومرجع تلك الصفات لذات الله التى يصدر عنها الصفات الإلهية والافعال الكونية واليه تعود نتائجها .

ومعلوم أن لكل ذات موجودة صفات وكل صفة لها معنى ولكل فعل حقيقة كامنة فاذا ظهر الفعل إلى الخارج كان له اثر لازم عنه ولكل أثر ظاهرة بالطبع وفى الغالب تكون الظاهرة محسة تطلقها الفاعلية العظمى وكان لزاما علينا إذ تكلمنا فى حرف الألف من« على هامش المعرفة العظمى» عن المادة وعلتها الأصلية وهى الطاقة الذرية كان لزاما علينا أن نتكلم عن العقل وأنه كالمادة مجرد حادثة من حوادث الوجود ولكن لما كان العقل فرعا عن الحياة وكفاية من كفايات عالم الذات الانسانية أثرنا الكلام عن العقل وقيمته بعد الكلام عن الحياة .

فهناك وراء مشاهد ذلك الوجود الطبيعى التى يقع عليها حسنا وإدراكنا يكمن ذلك العالم الروحى الخفى عالم الذات وما لها من الحوافز والاستجابات ونزعات ونزوات وكذلك سائر مثيرات التفكير والإحساس وذلك العالم هو عالم الحياة التى يعبر عنها ويعلن وجودها وجود الفكر والوجدان والإلهام . ففى عصرنا الحديث بواسطة العلوم الحيوية والنفسية وتكشفت

لدى علماء العصر حقائق عديدة فإنهم كشفوا عن عالم الأحياء الدقيقة الكثير والمكروب ومنها إلى الأحياء الأرقى كالنبات والحيوان والإنسان ولكنهم للأسف لم يحفلوا بشأن الحياة ولم يبلغوا فيه كاحتفالهم بشأن الطبيعة الذرية وما بلغوا فيها على أنهم لم يبلغوا أرقى آفاق تصرفها وإن كانوا وصلوا إلى تحليل طاقتها وقياس سرعة حركتها .

ويعبر عما نريد أن نقوله بهذا الصدد قول الاستاذ العلامة بلفور واستورت « لقد اتضح الآن وضوحا تاما وجود الروح وخلودها باعتراف العلم لاسيما وإن علم النفس العصرى يؤيد المباحث الروحية وقد أصبح جل الطبيعيين اليوم لا يعتقدون بوجود الجوهر الفرد المادى الذى افترضها قديما لوكريس . وقد بنى الماديون قديما على هذا الرأى الخاطىء قيام العالم وتكونه بمحض القوانين الآلية الميكانيكية ، وقد اندحرت النظرية المادية اليوم على ضوء انحلال المادة وتحولها . » .

وفى هذا المعنى نفسه يقول الفيلسوف الإنكليزى هيربرت سبنسر : « أن الافتراض الذى كان شائعا بأن الوجود المادى والكائنات الحية التى تحيط بنا يمكن أن نلم بها جميعا الماما مباشرا دون الاستعانة بعلمنا الطبيعى لا بعلم وراء الطبيعة وفى هذا الرأى فشل العلم المادى المجرد فشلا ذريعا وذلك باثبات فناء المادة وتجلى الروح أو الحياة بالافعال الغيبية الأصل والعجيبة المظهر » .

ويقول الدكتور راسل تشالز أرنست العالم البيولوجى الكبير وهو أستاذ فى جامعة فرانكفورت بالمانيا : « نحن نعلم أنه عندما نشطر خلية حية صغيرة بطريقة التشريح الدقيق بحيث تكون النواة فى أحد القسمين دون الآخر فإن القسم الخالى من النواة يموت بعد قليل وقد أخفقت جميع الجهود التى بذلت للاحتفاظ به حية والقسم الآخر الذى فيه النواة ينقسم

ويتوالد وعلى ذلك فإن النواة هى التى تنظم العمليات الحيوية فى الخلية وتسيطر عليها فاذا زال هذا الاشراف توقفت الحياة وهكذا نرى أن خالق الكون ومنظه يعتبر ضروريا لخلق الخلية وبقية الأحياء إلى الإنسان بل وكذلك خلق العقول المفكرة التى تبحث عن الحقيقة وعن السبب الأول » .

وهذا وذاك يدل على أن من ينكر وجود الله من الماديين لايستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة بالصورة التى نشاهدها فى الخلايا الحية لأنه يكون ذلك منه تشبثا بالمستحيل .

حرف "ث" ضروب القوة المطلقة

وضروب القوة المطلقة لاتعدو ثلاث درجات قوة من الدرجة الأولى وهى تختص بالذات الإنسانى وهى تشمل الإدراك والحياة والقدرة والارادة وقوة من الدرجة الثانية وهى أثر إدراكى للأولى وتشمل المعنى والفعل والغاية وقوة من الدرجة الثالثة وهى تشمل الحركة والطاقة وآثارها .

فالكائن فى الدرجة الأولى حى ومدرك والحى المدرك ذو قدرة وإرادة بهما يفعل ويدرك وبذا يكون حيا مدركا وبالتالى قادرا ومريدا وعن قدرته وإرادته نشأ فعله وتنظيمه وهذه الخصائص فى أعلاها هى خصائص واجب الوجود الذى تفضل بها على الإنسان لأنه عن حياة الله وإدراكه الأعلى نشأت الحياة ونشأ العقل فى الإنسان ولذا فما التطور والترقى فى الوجود إلا بنشاط الحياة وما المعرفة إلا بنشاط من العقل والقلب وذلك مما يدل على أن الله الخالق أو السبب الأول للكائنات كائن متصف بادراك وحياة وقدرة وأرادة منذ الأزل فهو يدرك أنه كائن حى قادر مريد بالفعل فعلمه من حياته وعلمه وحياته معبران عن قدرته وإرادته وعن تلك الإراده يتكون فعله الفعال الذى تلزم عنه القوة المبدعة .

وعن الفعل الفعال ينتشر الإدراك المطلق ويلزم عن ذلك أن الإدراك المطلق مصاحبا دائما للقوة الطبيعية وملازما لها وهما يتطوران فى بقية حلقات الطبيعة والحركة الأولى أو الفعل المؤثر أو القوة المحركة هى علة الأشعاع الخفى الكونى الذى يبدو خلال معرفتنا العلمية هذا الاشعاع ينتج الطاقة الذرية العامه ضرورة والكهرباء العامة المعبر عنها بالطاقة

الذرية تتصف دائما بالسلب والإيجاب وبالفعل المتبادل بين السلب والإيجاب الذى هو نتيجة الحركة تتكون الوحدات الذرية الدقيقة والتى تسمى الجواهر الفرده قديما أو الذرات النووية حديثا .

وبواسطة الفرق النسبى أو العددى بين حركة الوحدات الكهربية السالبة والموجبة تتكون سائر العناصر وبما أن الحركة تخلق دائما فى محيطها أو جوها ، فكان ما يسمونه الأثير ذلك الذى تسبح وتتحرك فيه جميع الكائنات السماوية والأرضية .

والنتيجة أن القوة تنتج الحركة والحركة دائما لها سرعة وتتطلب محيطا متأثرا فى الفراغ العام الذى تتحرك فيه وهذا هو سبب وجود الأثير العام .

وفى هذا الجو الذى يتخلل الفضاء وبتأثير وحدات الكهربائية العامة السابحة فى الأثير بسالبها وموجبها يكون الدم ولشدة الحرارة فى هذه السدم تنحل بعض الذريرات المتكثفة وأولها الأيدروجين التى كونتها البسائط الذرية إلى عناصرها الأولى ثم إلى بسائطها الكهربائية مرة أخرى فتعود ثانية أشعاعا يكون عناصر جديدة لبناء مادة جديدة أو مركبات جديدة وهكذا دواليك — ومعنى هذا أن بين هذه الحركة الذرية تحليلا وتركيبا من الإشعاع إلى العناصر إلى المادة .

فمن العناصر الخفية تتكون المادة الماثلة لأعيننا ولا تكون المادة فى الواقع إلا حالة أو ظاهرة من ظاهرات القوة العامة وهذه القوة الطبيعية من ناحية أخرى مظهر الفعل الإلهى الفعال أو القدرة المبدعة وكذلك تكون الحياة (حياتنا) وليدة الحياة المطلقة التى هى صفة الذات العليا أو السبب الأول « الله » .

وتكون النتيجة أن المادة مجرد حالة من حالات تشكل العناصر فى اتحادها أو انحلالها والعناصر تكون نتيجة لحركة القوة سواء كانت هذه القوة فى شكل ذرات نووية أو كهرباء أو مغناطيس أو حرارة أو ضوء أو حركة الخ فهى مظهر الإشعاعات الخفية والإشعاعات الخفية مظهر الفعل الإلهى الفعال الذى هو مظهر للإرادة المطلقة والإرادة المطلقة مظهر للإدراك الإلهى الأعلى .

والإدراك الإلهى الأعلى يحوى القدرة والحياة متمثلين فى الإرادة وهذه هى الصفات الإلهية الإساسية وهى الصفات التى يترتب عليها ماعداها ولانتصور صفة تقوم بغير ذات متصف والذات المتصف هى ذات الله عز وجل وهى الذات المركزية للوجود (مع تنزهها وتنزه خصائصها عن أن تحل فى شيء من الكائنات أو تتحد به إنما هى تباشر الفاعلية فى الكائنات (كما يباشر الفكر العمل الواقعى) ولانخطىء إذا قلنا إن الفكر هو أصل العمل والفرق واضح جدا بين ماهية الفكر وماهية العمل فلدينا الفعل والصفة الفعالة وذات الموصوف ،أما الموصوف فهوماقامت به الصفة والصفة لاتقوم إلا بالذات والذات أما إن يكون لها نشاط وأما لا تكون نشاط لها فى الخارج فإن لم يكن لها آثار أولا فإن لم يكن لها آثار فهى أيضا معدومة أو شبيهة بالمعدومة وذلك من حيث أن لا بد لكل صفة من أثر وأيضا الأثر فاما أن يبرز إلى محيط الفعل وأما أن يكون موجودا بالقوة فإن كان الأثر موجودا بالقوة أى كامنا فى المؤثر فهو شبه بالمعدوم أيضا لعدم وضع الدلالة عليه وإن كان بارزا وله أثر بالفعل ولابدأن يكون لهذا الأثر البارز حركة أو فاعلية تدل عليه والحركة والفاعلية لاتكونان إلا فى محيط كونى مثل عالمنا الذى نعيش فيه .

حرف «ح» كيف تكونت الكائنات الطبيعية ؟..

تذكر الكتب السابقة على نزول القرآن أن الأصل فى الوجود . وقالت هذه الكتب وكانت الكلمة عند الله ، وكانت الكلمة هى الله وهذا كلام فيه إبهام .

فلما نزل القرآن أفصح عن ذلك الكلام وذلك فى قوله تعالى . . « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

فالكتب السابقة عبرت عن هذا الأمر بالكلمة أى الكلمة التى تخرج من فم الله كأمر ويؤيد ذلك قوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) ونحن قدمنا فيما أسلفنا من قول أن الكائنات أصلها النور (النور الذرى) وكذلك الحياة أصلها النور أيضا (النور الروحى) على أن النور الروحى والنور الذرى كلاهما انبثقا عن النور الإلهى الأقدس فى رتبتين متلازمتين وإن كانتا متغايرتين (النور الذرى الكهربى والنور الروحى الحيوى) ثم تعاونا بأمر الله (النور الذرى النور الروحى) فى تكوين هذه الكائنات حيّها وناطقها أو قـــل نور الفكر الروحى مع نور الطاقة الطبيعى .

وقدمنا أيضا أن أصل الكائنات التى تبدو لنا مادية منظورة أصلها غير مادى بالمعنى المقصود وغير منظور أيضا وهو مجرد الطاقة ، وبينا أن الطاقة ترجع فى مصدرها إلى القوة والقوة ترجع إلى قدرة الله التى تتمثل بها الإرادة والعلم والحياة .

وبهذا وذاك يكون الكون الامكانى الطبيعى ظلا وأثرا للخصائص الإلهية ، والخصائص ترجع بدورها إلى ذات الحق سبحانه وتعالى .

فجميع الكائنات نشأت عن مجرد الأمر الإلهى والقدرة الإلهية مشمولة بإرادته سبحانه وتعالى وبعلمه وبحياته :

فان تسألنا كيف بدأت هذه الكائنات من نور غير مرئى سواء كان روحيا أو ذريا ؟ وكيف تم تجسيمها وتقسيمها إلى عوالم عدة من سدم ومجرات ونجوم وشموس وسيارات ؟ — كان الجواب أنه كما ذكرنا فيما قدمنا من أقوال أن الأصل فى المادة المحسة الملموسة الماثلة لحواسنا هو النور الذرى الذى عنه تنشأ العناصر ، وأول تلك العناصر وأخفها وزنا وأبسطها عددا هو الأيدروجين من حيث إنه يتكون من نواة (بيرتون) واحد ويدور حول النواة كهيرب واحد هو (الألكترون) هذا فضلا عما اكتشف حديثا من فترون وبورتورون وغير ذلك وعن عنصر الأيدروجين تكونت بقية العناصر وكل هذا قد قدمناه .

ومن العناصر تكونت الأكوان المحسة ما بين سماوى وأرضى ويقول الله سبحانه وتعالى متكلما عن ذاته (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى ضباب ومعنى استوى فى الآية أى استولى بقدراته وسلطانه على ذلك الضباب فصاغ منه الكائنات والدخان أو الضباب هو وصف أول عنصر أو قل أول بقعه فى تكوين الكائنات من عنصر الأيد روجين وغيره كالهليوم ٢ ثم السوريوم وعدده ٣ إلى آخر جدول مندليف .

وعملية التكوين فى نفسها تمت كما يأتى : كان أول ما أنشىء من الكائنات السدم ثم المجرات وبقية النجوم والشموس والسيارات الخ .

وقد بدأت سحابة الهيد روجين فى محيط الوجود كسحابة غازية ترابية دوارة وفيها قطرات أو ما يشبه القطرات ، ثم أخذت هذه القطرات فى التجمع داخل تلك السحابة ثم الانكماش إلى بقع اكبر وأكثر تماسكا وتكون هذه البقع شديدة الحرارة بقدر كاف لأن يجعلها تتوهج وتشع وتضىء .

ومن هنا يبدأ مولد النجم ويكون أشعاعه ضوءا أحمر، ومغزى هذا أن التراب النجمي والغاز الكوني ينتجان فى النهاية نجما يشع بالضوء وتليه نجوم أخرى وغازات تتجمع وتتكاثف وتثب وتتصادم بقوتى الدفع والجذب حتى صارت عناصرها وذراتها منها مايقل فيتمركز ومايخف فيكون سطحا وهكذا تتكون من ذلك العماء السدم وأولهـــا سديمية لابلاس المسماة بالسديم الأكبر وعنه تكونت سدم أخرى وشموس ومجرات ونجوم تعد بالملايين .

وكانت شمسنا التى تدور حولها أرضنا واحدة منها بل أنها وليدة إحدى المجرات الكونية الكثيرة وهى مجرة المرأة المسلسلة أو الطريق اللبنى كما يسميه الناس وأن شمسنا ومايتبعها من الكواكب غير المضيئة بذاتها يتألف منها جميعا ما يسميه الفلكيون بالنظام الشمسى .

وهذا النظام يتألف من الأجرام الآتى بيانها وأولهـا الشمس ثم الكواكب المسماة بالكواكب السيارة أو المتحيرة ومنها (١٦٧) كوكبا صغيرا لاتظهر إلا بالتلسكوب وتوجد مداراتها فيما بين مدارى المريخ والمشترى وعلى أبعاد متساوية تقريبا من الشمس .

والشمس هى قوام ذلك النظام الشمسى المعروف وهى وسياراتها لاتساوى فى النظام النجمى الكلى إلا كما تساوى الهباءة فى صحراء واسعة ، ومعلوم أن الشمس مصدر الحرارة التى تتلقاها الأرض، ومقدارها فى كل مترمربع من سطح الأرض أثناء ثانية واحدة يعادل قوة حصانين تجاريين . وحرارة الشمس تعادل فى شدتها حرارة الحديد المذاب (٥٠٠٠) مرة أو حرارة القمر (٤٧٠٠٠) مرة أو حرارة الزهرة (٦٢٠٠٠) مرة أو حرارة الشعرى اليمانيه (٥٩٠٫٠٠٠) مرة والمسافـــة بين الشمس والأرض (١٤٩٥٠٠٠٠٠) كيلومتر ويستغرق ضوء الشمس فى وصوله إلى الأرض ٨ دقائق ، ١٨ ثانية بسرعة (٧٥٠٠٠) فرسخ فى الثانية الواحدة ويبلغ طول

قطر الشمس (١٣٩٤٤٠٩ كيلو مترا) وحجمها (١٤١٩١٧٥٠٠) مليون كيلو متر مكعب أى بحجم الأرض (١٢٨٨٣٢٠) مرة ومدة دورة الشمس حول نفسها مرة واحدة فى ٢٥ يوما تقريبا .

وأما حرارة الشمس فتختلف من ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ درجة بميزان سانتجراد وسطح الشمس إذا شوهد بالتليسكوب وجد أنه يشبه ثلجا مضيئا مغمورا فى سيال أقل إضاءة . ويسمى هذا السطح بالفوتوسفير وتشاهد فوقه طبقة غازية وردية اللون لايتيسر رؤيتها إلا فى أوقات الكسوف ، ويبلغ ارتفاعها أو سمكها من (٨٠٠٠) إلى (١٦٠٠٠) كيلو متر وتسمى بالكروموسفير .

أما الكواكب السيارة أو المتحيرة فاليك بيانها بحسب ترتيب بعدها عن الشمس وأولها (عطارد) ومتوسط بعده عن الشمس (١٣٢٩٩٧٤٢) فرسخا ودورته حول الشمس تستغرق (٨٧ يوما (و ٢٣ ساعة) و (١٤ دقيقة) و (٣٣ ثانية) ويساوى قطره ثلثى الأرض تقريبا .

وثانيها : الزهرة ومتوسط بعدها عن الشمس (٢٤٨٥١٨٨٥) فرسخا وحركتها الدورية حولها تستغرق(٢٢٤ يوما)، (١٦ساعة)، (١٤دقيقة) و (٢٤ ثانية) . ويعادل طول قطرها قطر الأرض تقريبا (و ثالث السيارات) الأرض ومتوسط بعدها عن الشمس (٢٤٣٥٧٤٨٠) فرسخا وتستغرق حركتها الدورية حول الشمس (٣٦٥ يوما) و (٥ ساعات و (٤٨ دقيقة) و (٥١ ثانية) وطول قطرها (٢٨٧٠٠) فرسخ وحجم الأرض يبلغ (١٠٨٢٠) مليارا من الكيلو مترات المكعبة وقطرها عند خط الاستواء = (١٢٧٥٦) كيلو متر وقطرها بين القطبين (١٢٧٣٥) كيلو مترا وعليه فيكون انبعاجها أى تفرطحها معادلا لجزء واحد من قطرها مقسما إلى (٢٩٣) جزءا أما سطحها فيبلغ (٥١٠٠٢٨٠٠٠) كيلو متر

مربع ووزنها أكبر من وزن القمر (٧٦) مرة ، والأرض تدورحول نفسها مرة فى كل (٢٤ ساعة) وحول الشمس مرة فى كل (٣١٥ يوما تقريبا وهى أصغر حجما من نبتون (٥٦ مرة) من أورانوس (٧٠) مرة من زحل (٧٢٣) مرة ومن المشترى (١٠٣٥) مرة ومن الشمس (١٢٨٣٧٢٠) مرة .

(ورابعها المريخ) ومتوسط بعده عن الشمس (٥٢٣٥٠٢٤٠)فرسخا وحركته الدورية حول الشمس تستغرق (٣٢١) يوما و (٥٩) دقيقة وقطره نصف قطر الأرض (وخامسها المشترى) ومتوسط بعده عن الشمس(٢٧٨٦٩٢٥٥٠) فرسخا وحركته الدورية حول الشمس (١١عاما) و (٣٠٧) أيام و (١٤) ساعة و (١٨ دقيقة (ويعادل قطرة قطر الأرض (١١ مرة) وسادسها(زحل)ومتوسط بعده عن الشمس(٣٢٧٧٤٨٧٢٠) فرسخا وتستغرق حركته الدورية حول الشمس(٢٩) سنة و(١٧٣ يوما) و (٢٣ ساعة) و (١٦ دقيقة) و (سابعها أورانوس) ومتوسط بعده عن الشمس (٦٥٩١٠٠٥٦٠) فرسخا وحركته حول الشمس تستغرق (٨٤) سنة و يوما) و (٢٧ دقيقة) وقطره يعادل قطر الأرض(٦٤ مرة وبعض الكسور .) .

ثامنا : نبتون ، ومتوسط بعده عن الشمس (١٠٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠) فرسخ وتستغرق دورته حول الشمس (١٦٤) يوما وطول قطره يعادل قطر الأرض (٥) مرات .

تاسعا : السيار « بلوتو » الذى كشف حديثا فى مارس سنة ١٩٣٠ ويبعد عن الشمس (٤٠) مرة عن مقدار بعد الأرض عنها ، ويتم دورته حول الشمس فى (٢٥٠) سنة .

وهكذا يتبين لك أيها القارىء كيف خرج الكون المجس ومعه النور المحس من أطياف وأنوار وأضواء غير محسة . ولامرئية .

والفرق بين هذا النور الذرى الخفى وبين النور الروحى الأخفى منه كالفرق بين وجهى الدرهم اللذين يكونان وحده لا تنفصم إلا بموت الكائن الحى أو بنهاية العالم بأسره .

حرف « ح »

.. كيف نرى الأشياء الكونية ونحسها ؟ ..

أن الشيئية والواقعية اللتين تبدوان لحواسنا كوجود حقيقي ليست فى ذاتها وحقيقتها كما تبدو لحواسنا كشيء مجسم ملموس ، وإن هى إلا عظيم من الطاقة المختلفة السرعات وإشعاع من النور الخفى الذرى وأنها تبدو كأطياف لتلك الذرات الكهربية .

وبعبارة أخرى ما الأشياء الواقعة خارج الذهن فى حقيقتها سوى تيار نورانى ذرى كهربى تجسمه الحركة والسرعة وبالحركة أيضا وبالنور ترى حواسنا ، الأشياء ، ويدرك منها أحساسنا الذهنى (الادراك الحسى) صورة عنها تتحول فى الذهن إلى مدركات عقلية .

أظنك تعلم : ان نور الشمس الأبيض الذى تتضح لنا به رؤية الأشياء يتكون من أطياف وألوان سبعة (١) .

وتلك الألوان هى أطياف للعناصر التى تتكون منها الشمس والتى بها كونت الشمس سياراتها ومنها أرضنا ثم أن وراء تلك الاطياف إشعاعات غير مرئية (لبطء ذبذباتها) وهى نورانية أيضا .

ومتى تم هذا : بذلك النور تتكون الأشياء المحسة وبه أيضا نتمكن من رؤية أطيافها بواسطة حواسنا الخمس: النظر واللمس والتذوق والشم والسمع وبادراكنا الحسى الذى يوصل مفهوماتها إلى العقل فيتم تفهمها .

حواسنا الخمس التى ندرك بها الأشياء إدراكا حسيا تبدى لنا صورها وصفاتها وتلك الحواس الخمس هى : —

---

(١) هى البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر .

(البصر) وهو أعمقها ، (واللمس) وهو أوسطها ، ثم (السمع) ، (فالشم فالتذوق) .

وعضوا البصر كما لايخفى هما العينان بما لهما من شبكية وعدسية وأعصاب وما إلى ذلك ، وبواسطة العينين ندرك الضوء والألوان وصور الأشياء والكيفيات التى هى عليها .

وعضو السمع طبعا الأذنان بعصبيهما السمعى ، وماركب فى الأذن الوسطى من غشاء طبلى ، وبواسطة الغشاء الطبلى والعصب السمعى يدرك حسنا الاهتزازات الصوتية .

وأما التذوق فعضوه اللسان ، وماركب فى غشائه المخاطى من عصب دقيق حساس وبه تتذوق الطعوم حلوها ومرها . . . . الخ .

وأما الشم فعضوه الأنف ، ويحصل شمنا للروائح بواسطة الغشاء المخاطى الكائن فى الحفرتين الانفيتين ، وفيه العصب الشمى .

وأما اللمس فإن للاحساس به فريعات عصبية دقيقة عدة خاصة بالاحساس اللمسى ومنتشرة على سطح الجسم كله ، وبالأخص باطن اليدين وأطراف الأصابع ،وبواسطة تلك الأعصاب الدقيقة ندرك الحرارة والرطوبة والصلابة والرخاوة وغير ذلك .

والعامل المميز لما تأتينا به الحواس عن العالم الخارجى هو الادراك الحسى الماثل فى أذهاننا ومن هذا تعلم أن أحاسيس الحواس ، أعنى وظيفة الأحساس ، يقوم بها مجموعنا العصبى الذى يتأثر بأحاسيس الأشياء وذبذبتها ثم يحملها إلى المخ وهناك الذهن . فيقوم الذهن بتحويلها إلى مدركات عقلية بواسطة الحس المشترك وبعبارة أخرى بادراكنا الحسى الذى يحول تلك الأحاسيس إلى ادراكنا العقلى .

والمجموع العصبي هو المخ ، والمخيخ ، والنخاع الشوكي أو النخاع المستطيل والعصب السمبتاوى ثم بقية فروع الأعصاب الدقيقة .

والأعصاب تبرز من أسفل الدماغ،أى من النخاع الشوكى، وتنتشر فى جميع أجزاء الجسم ومن وظائفها ماهو للحركة ، وماهو للحس ، وماهو للمس والحركة معا :

أما وقد شرحنا لك كيف تتفرع ناقلات الإحساس إلى الذهن وهى الأعصاب ، فلنحدثك عن الأحاسيس التى ندركها عن الأشياء وكيف تصل إلى عقولنا .

أما الروائح ، فهى جزئيات أو هباءات من مادة الشىء المشموم تنطلق متطايرة فى الفضاء الخارجى حتى تصل إلى فتحتى الأنف فتتصل بنتوءات عصبية فى غشائه المخاطى ، فتتأثر بها ، وتحمل ذلك الإحساس إلى المخ ، وبذلك تتم عملية الشم فيميز الذهن الفروق بين عبيقها العاطر أو رداءة ريحها وأما الشىء المشموم فإنه بتطاير هباءاته بعد ذلك يتحلل شيئا فشيئا تحللا بطيئا حتى يتلاشى .

وأما حاسة اللمس : فهى كما تقدم منتشرة فى سائر أجزاء الجسم بواسطة فريعات الأعصاب التى يتكون عنها إحساسنا بالشىء الذى تلمسه ثم يتحول ذلك الإحساس إلى المخ الذى يدرك نوع الشىء الملموس .

وأما حاسة الذوق ، فانها خاصة باللسان كما تقدم ، وتحصل بتفاعل جزئيات الشىء المذاق التى تنتشر على اللسان مع الغدد اللعابية ، فيتأثر بها العصب الذوقى وينتقل إلى المخ كيفية إحساسه بالذوق .

أما الأصوات ، فهى ذبذبات أو اهتزازات تؤثر على غشاء الأذن الوسطى بتموجاتها الصوتية فيتأثر بها العصب السمعى الذى ينقلها إلى المخ

فيحولها الذهن إلى مدلولاتها ،ويفقه الذهن حينئذ إن كانت ناشئة عن صوت موسيقى محبب أو عن صوت مزعج مكروه .

ثم اعلم أن متوسط اهتزازات الصوت المسموع لنا هو ما بين (٥١٧) اهتزازة فى الثانية وبين (١٠٣٤) اهتزازة تقريبا ، فإذا بلغت الاهتزازات إلى اكثر من ذلك تعود الأذن لاتطيقها وإذا قلت عن المتوسط فهى لاتسمعها وإذا زادت — فبلغت (٣٢٧٦٨) اهتزازة فى الثانية تعود الأذن لاتسمعها أيضا لأن الصوت يكون حينئذ قد تحول إلى كهرباء وأشعاعات نورية أو حرارية وذلك بحسب سرعة تلك وزيادة أو نقص اهتزازاتها وطول أو قصر موجاتها .

وأطول الموجات ماهو تحت الأحمر من الطيف الشمسى ، واقصرها ما هوفوق البنفسجى وها أنت قـــد رأيت أن الصوت يتحول إلى ضوء وبعبارة أخرى إلى نور .

وأما البصر ، وهو أعظم الحواس وأشملها تأثرا : فانه يرى الأشياء بحسب أهتزازت النور فى البيئة المتوسطة بين الرائى والمرئى . وذلك يتم بأن يحدث فى المحيط وبذرات ضوئية متدافعة متأثرة بذبذبات الأشياء نفسها بواسطة الأطياف الضوئية التى تنكسر وتنعكس على الأشياء كما قدمنا، فتؤثر على شبكية العين ومن ثم على العصب البصرى الذى يحمل أطياف صورها وألوانها وأحجامها إن خطأ أو صوابا إلى الذهن وبعبارة أخرى إلى الإدراك الحسى الذى يكيف المرئى ويحول صورته المحسة إلى إدراك ذهنى عقلى ، فيدرك العقل حينئذ مفهوم الشىء المرئى .

وهنا تعلم أن مرئيات الأشياء لاتدخل إلى الذهن كذبذبات كما صدرت عن أشيائها ، وإنما تدخل إلى الذهن كمعان إدراكية مجردة ومن

هنا نعلم أيضا أن ليست أفكارنا وتصوراتنا مجرد إفرازات للمخ كما يزعم مغالطو الماديين .

وليس يخاف عليك أن النور الشمسى الأبيض الذى نبصر به الأشياء ، هو فى الحقيقة مركب من ألوان مختلفة هى أطياف النور السبعة كما قدمنا وهى التى تبدو لنا فى قوس قزح الذى يظهر أحيانا فى السماء بالألوان السبعة وهى : —

(البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر) وأنها أيضا تتحرك بسرعات فى موجات تختلف أطوالها ما بين (٦٢٨) جزءا من مليون من المليمتر للأحمر (٤٨٦) للبنفسجى ، وبعبارة أخرى يبلغ طولها نحو جزء من (٢٥٠٠٠) جزء من البوصة للأحمر ونحو نصف ذلك للبنفسجى ، ولايخفى أن فوق البنفسجى ، وتحت الأحمر إشعاعات عدة ولكنها لاترى ولايتناولها البصر وكذلك يوجد للأشياء التى نبصرها ألوان متكيفة طبعا بتلك الألوان النورية المنعكسة عليها ، والمرتدة إلى أعيننا (ألوان الطيف الشمسى) بل قل إن العناصر التى تتركب منها تلك الأشياء . أيضا لها أطياف لانحسها . وأنما تحسها الألواح الحساسة الفوتوغرافية وهنا تتكون مقبرة المادة والرؤية المادية أيضا .

والعين نفسها بعد ستها اللامة للأشعة ، وعصبها البصرى ، لاتعطينا عن الشيء المرئى إلا مجرد ذبذبات لاطياف نورية تحدثها الألوان والصور أيضا فان زادت سرعة تلك الذبذبات تعود غير مرئية بالنسبة للبصر وغير مسموعة بالنسبة للأذن وإنما تحسها أو تسمعها الأجهزة المعدة لذلك كالراديو والتليفزيون والرادار ومن تلك الأشعة السريعة الذبذبات أشعة هرتز التى تظهر فيما قدمنا من أجهزة وفى أجهزة اللاسلكى فتجسمها تلك الأجهزة ثم تردها مبصرة ومسموعة لنا .

وتكون الحقيقة أن القوة الطبيعية هي أصل وجود الأطياف المحسة المادية وأيضا أصل أعيانها التي تبدو الأطياف عنها بما تحويه من حركة وسرعة ومن تكوينها تحدث الأشعاعات والذرات والعناصر وغير ذلك ، ثم بعد ذلك تتكون الكتلة المادية أخيرا .

ونتيجة القول أن المادة كون والكون إيجاد ثم الكون ووجوده عبارة عن حركة والحركة تحدث عن سرعة والسرعة والحركة يصدران عن قوة ضرورة والقوة أثر لفعل فعال تلزم عن فاعلية يلزم عن ذات مريدة مدركة هي ذات (الله) تعالى .

وفي مثل هذا المقام يقول العلامة الفيلسوف هيربرت سبنسر :

« إننا نرى بين كل هذه الأسرار الكونية التي تزداد غموضا كلما زاد بحثنا فيها حقيقة وأحده واضحة كل الوضوح ولا بدمنها — وهي أنه يوجد فوق الإنسان والأشياء والقوانين ذات أزلية أبدية مدركة ينشأ عن وجودها وجود كل شيء » .

وإلى هنا تكون قد وفينا الكلام شارحين ومفصلين عن النور الكوني الذي جعله الله علة قريبة لظهور الكون بما فيه من مادة وطاقة وقوة وإشعاع وبقي علينا أن نتكلم عن النور الروحي الحيوي والنفسي بعد أن تبينا الطريقة التي بها برزت الكائنات السماوية والأرضية الامكانية عن نشاط فاعلية مبدعها وأيضا بينا كيف نرى هذه الأشياء ونحسها ونلمسها وذلك من طريق أحدث النظريات العلم توفية لهذا الموضوع (على هامش المعرفة العظمى) وبقي علينا أن نبين كيف جاءت الحياة إلى الأرض وكيف أصلت التعقل والفكر الكائنات ذوات الخلية الواحدة إلى أرقاها وهو الإنسان .

حرف « ط »

الحياة والفكر

أنهينا الآن الكلام عن النور الذرى والإشعاع السرى الذرى غير المرئى وغير المحس الذى جعـــله الله سببا قريبا فى تكوين الكتلة المادية المحسة .

وبقى علينا أن نتكلم عن نور آخر أعلى وأسمى من النور الكونى الموضوعى وهو النور الذاتى الروحى ذلك الذى ماعقلنا أوتفكيرنا إلا ناحية من نواحيه العدة وشعاعة بازغة عنه :

إختلاف آرء العلماء فى ماهية الحياة :

لم يضع العلماء تعريفا جامعا مانعا عن سر طبيعة الحياة حتى الآن ولم يتفق العلماء على تعريفها التعريف المطلوب فالبعض يقولون إنها تفاعل كيميائى ثم تفاعل كهربى بين الكائن الحى والمحيط الذى يعيش فيه . فالمحيط يوصل تأثيره إليه ، وهو يتأثر وينفعل به ، ويكادون يقولون بكلمة أو بكلمتين ، أن الحياة ظاهرة كهربية لاغير .

وهناك من يقول : بأن الحياة مبدأ مستقل بثه الخالق فى المادة فى زمن لانعرفه وعلى كيفية لانفهمها ووضع لها النواميس والشرائع الخاصة بها وقضى عليها بالتوالد والموت لحكمة لاتدركها عقولنا .

وتنحصر أشهر آراء العلماء فى ماهية الحياة فى ثلاثة آراء وهى كما كانت منذ الفى سنة بل منذ أيام فلاسفة اليونان .

يقولون الكون فى النظر العلمى العام قسمان ، جماد وحياة ، وفوقهما النفس وقواها المختلفة . فكأن العالم مركب من ثلاثة أصول : المادة والحياة والعقل .

وإلى هذه الأقسام وعلاقتها بعضها ببعض يرجع الخلاف بين أصحاب الآراء الثلاثة فمنهم من يقولون بوحدتها وخضوعها للنواميس الطبيعية كأى مادة ومنهم من لا يفرق بين الحياة والنفس فيقسمون العالم إلى قسمين : مادة وغير مادة ومنهم من يميزون بين الثلاثة الحياة والمادة والعقل ، فكل منها فى نظرهم جوهر مستقل .

والماديون لايعرفون حدا فاصلا بين الجماد والحياة والعقل ، بل يقولون بخضوعها كلها للقوى الكيمائية والمادية وهو فكر قديم تطور أطوارا مختلفة وطرأ عليه تغيرات شتى ، ولكن مآله شىء واحد وهو ارجاع كل مافى الكون إلى المادة فالمظاهر التى نسميها حيوية أو نفسية ليست فى نظرهم إلا مادة نظمة بشكل مخصوص وحركة مخصوصة .

ثم القائلون بوجود جوهر غير المادة مستقر فى النبات والحيوان ويعبرون عنه بالروح أو النفس وهو علة أعمالها الحيوية دون القوى الكيميائية والمادية ، وهو أقوم تعليل خطر للإنسان الأول وأقربه إلى الصواب حينما أدهشه الفرق البدهى العظيم بين الجسم الحى وغير الحى .

فالرأى الأول يجعل الجسم كالبيت المهجور والثانى يجعـــله كالبناء المأهول

وقد حاول الأستاذ اوزرن الأمريكى فى العصر الحديث أن يستجلى سر الحياة ولكنه كما فعل غيره ، وفى اعتقادهم أن من المحتمل أن يكون فى الخلية الحية عنصر كيميائى غير معروف حتى الآن وهو سبب الحياة وسرها الأعظم أوقد يكون ثمة مصدر غير معروف تستمد منه الحياة فاما وجود مصدر غير معروف تستمد منه فى الحياة فأمر محتمل ، وأما احتمال وجود عنصر كيميائى غير معروف فى الخلية الحية هو سبب الحياة فينكره جميع علماء الكيمياء وعلماء البيولوجيا (الحياة) إذ يقولون أنهم قد حللوا الخلية

إلى جميع العناصر التى تتألف منها وهم يعرفون تلك العناصر كلها ويعرفون الأجزاء النسبية التى تتألف منها :

وإذن فما هى الحياة ؟ وكيف نميز الأشياء الحية من غير الحية ؟ سؤال يصعب الجواب عليه وهو مثير جدا وقد أعجز العلماء . ومع أننا نعلم العناصر التى تتألف منها خلية البروتوبلازم — المادة التى تظهر فيها الحياة — فانا إذا جمعنا تلك العناصر كلها بنسبها المئوية فلا نستطيع أن نخلق الحياة .

وقد نشرت كلية شيكاغو فى سنة ١٩٢٨ كتابا ألفه ١٦ من أساتذتها عن التقدم العلمى ، وقد جاء فى هذا الكتاب تلك العبارة التى تستوقف الذهن : « ولكن يجب أن نقول بعد البحث الطويل بكل صراحة أن أصل الحياة مسألة لم تحل الآن ، وأحسن ماعندنا عن هذه الحال فروض ابتدائية ، أما حقيقة ابتداء الحياة فلاتزال عقدة غير قابلة للحل والهوة السحيقة التى التى كانت بين الجمادات والأحياء لاتزال كما كانت » .

ويقول بعض العلماء أن المخلوقات الحية بدأت تعيش على هذه الأرض بطريقة بعيدة عن دائرة التجارب العلمية التى نعرفها فالبروتوبلازم الذى يرجعون إليه أصل الحياة ليس إلا كمية من الأتربة سخرها الله وهذا التعليل يمكن أن يقال عن كل شىء وهذا قولهم ، وسواء أكان هو الصدق أم لا فإنه لايشبع النفس المتعطشة لمعرفة الحقيقة على نور التجارب العلمية المؤكدة .

ومن العلماء من يقول بصراحة إننا لانعرف كيف نشأت الحياة ، وهؤلاء العلماء يشكون أيضا فى صحة السؤال نفسه ويتساءلون عن الحياة إذا كانت لابدائية لأنهم يرون أنهـــا قد تكون قديمة كالكهرباء وماشابهها من القوى الخفية التى ليس يفيدنا أن نتعب أنفسنا فى البحث عن أصولها .

وهذا مبلغ ما كان فى البحوث السالفة عن سر الحياة ، وإما الآن فقد جب بستير العظيم كل قول لكل عالم قبله بأن أثبت أن الحياة لا تأتى إلا عن مبدأ حى وتلك العبارة الوجيزة تسقط كل التحملات القائلة بأن الحياة وجدت من بضعة عناصر أرضية والقول بأنها وفدت على الأرض من عالم آخر لا يعرفه كذلك القول بالقول الذاتى . فالعنصر الحى فى حقيقته غريب عن المادة وعن كل مايتولد منها وإنما هى هبة من الله وهبها لكل كائن مستعد لأن يحيا .

ولاشك أن أهل العلم الحديث قدكشفوا عن ظواهر كثيرة تتعلق بالنظام الذى تتبعه الأحياء فى انقسام خلاياها ونموها وتوالدها وتكيفها وتطورها وغير ذلك .

وإما فيما يتعلق بطبيعة العمل داخل الخلية والأسباب التى تعدها وتؤهلها للتطور والترقى ثم ترشدها إلى تنظيم أعمالها وأحوالها « فهذا ما يجهله العلم بسائر أبحاثه وأقواله وايضا مما يجهله العلم والعلماء عن كيفية اتصالها بمبدعها ولم يعللوا ذلك إلا بافتراضات لا تغنى عن الحق شيئا وبهذا وذاك يكون قدعجزوا تماما عن كشف أسرار الحياة وعن بيان الحياة وعن بيان السبب فى تحول حبة البلوط مثلا إلى سندياته . وكذلك بقية الكيفيات التى تطور بها الحياة الأحياء وقد اكتفوا بصيغ مبهمة من القول لاتقوم مقام التفسير الصحيح ولاتدل على السر الذى تنشأ به الحياة فى الخلية الأولى كالاميبا أوالبروتوزا أو البروتوبلازما وغير ذلك وغاية ما أمكنهم أن يعللوا به وجود الخلايات الحية أنها اشتقت من بضعة عناصر مادية تحولت إلى حيوية فى الكائن الحى أو قولهم إنها آتية من عالم آخر . وأما المبدأ الحى نفسه ذلك الكائن المتطور المتكيف المرتقى فالعلماء لايعرفون عنه شيئا فى الحقيقة والحياة كما قدمنا لايمكن أن تأتى إلا عن فعل مبدأ حى .

فالمبدأ الحى هو الجوهر العلمى الذى يوزع غذاء الكائن الحى و يقسمه على الخلايا والأعضاء ومايدخل فى بنائها سواء كانت عضلات أو عظاما أو أوعية أوجلدا أو أعصابا أو مخا (أو مخيخا وفى النبات بذورا أوسوقا أوفروعا أو أوراقا أو ثمرا ويعطى كل عضو ما يصلح له من غذاء واحد .

فما هى تلك القوة ياترى التى تستخرج من الدم لكل عضو من أعضاء الكائن الحى مابه قوام وجوده ومابه يؤدى وظائفه ، فتنشىء هنا الخلايا عظميه وأخرى عضلية وكذلك خلايا عصبية . . . . الخ . تلك القوة الحيوية هى نفحة سر الله ونفحته فى الكائنات الحية وهى طبعا كائن ذاتى غير مادة الجسم ومادة الكون لأنها تغايرهما .

فلا مناص إذن لأهل العلم وأهل العقل جميعا من الاعتراف فى النهاية بوجود قوة روحية مدبرة للاحياء مدركة داخل هيكل الكائن الحى وتفهم معنى التصريف والتصرف وهبها الخالق عز وجل لتلك الكائنات الحية بل أمد بها كل خلية من خلايا الكائن الحى وتلك هى (الروح) . ومن المعلوم أن كل كائن حى سواء كان نباتا أوحيوانا يبدأ تكوينه بخلية واحدة تنقسم وتتكاثر وتتنوع إلى أشكال وأشخاص عدة ولا يعلم العلماء عن ذلك السرسوى أن مظهر الحياة يبدأ فى مادة حية هى البروتوبلازما واعتبروها هى المادة الأولية للحياة وقالوا إنها تتركب من الناحية الكيميائية من مواد معروفة هى الكربون والايدروجين والازوت والأكسوجين هذا غيرمواد أخرى ثانوية تدخل فى تركيبها كالكبريت والفسفور والكلور والبوتاسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والحديد . . . الخ .

وبهذا يبدوأن تركيب البروتوبلازما شديد التعقيد ، فكيف اتحدت كلها كيميائيا وبمقادير منظمة الإنشاء كائنات حية ؟ .

هذا ما استعصى على تحليلهم الفنى والعلمى على أنه يوجد فوارق كبيرة بين الخلية الحية والخلية الميتة التى فارقتها الحياة مع بقاء تلك العناصر نفسها فيها وتلك الفوارق تنحصر فى وجود الحياة نفسها أو عدم وجودها وهذا فضلا عن انعدام تلك الحركة الباطنية المعنوية المستمرة التى كانت تحى الكائن وتضبط تصرفاته العقلية والجسدية وفى مفارقة الحياة للخلية الميتة وبقاء عناصرها المتعددة دليل على وجود المغايرة بينهما .

ووظيفة تلك الحركة الداخلية الحيوية أن تحفظ وجود الخلية سليما مدة عمر الكائن الحى فى حالة حياة ، وتفقد كل ذلك فى حالة الموت ، وليس هذا فقط ، بل إن خلايا الميت تزداد قوة حيوية بتحولها إلى حيويات أخرى فى النبات والحيوان والانسان لأنها خالدة لاتفنى فتقى هذا الحى من الضمور والتلاشى ولذا كان المبدأ الحيوى العظيم (حيث لا يوجد الحى إلا من حى) وتلك عقيدة لكبار العلماء ويكون وجود باعث الحياة أو النظام المحيى لزاما إذا ترقينا فى سلم نظام الكائنات الحية وتعددت خلاياها ووظائفها فى النباتات والحيوانات وخصوصا العليا منها لتحفظ منشآتها فى كل جيل من أجيال تطورها بتجدد الحياة فيها وتقدمها فضلا عن معطياتها فى الكائنات العليا كالإنسان مثلا ومافيه من تعقل وادراك والهام ، فتلك القوة القديرة الواعية المسماة بالروح أو الحياة هى قوة الحياة الإلهية نفسها منبثة فى مخلوقاتها لأن الحياة صفة من أخص صفات واجب الوجود (الله) وسببه الأول ومبدعه سبحانه وتعالى .

وإن فى أصغر النباتات وأضعف الحيوانات من الغرائز مايعجز العقل ويحيره لدهشته كالنباتات التى تدرك بالغريزة كيف تجلب غذاءها من الأرض حتى وأن صادف الجذر حجرا يتحول عنه إلى جهة أخرى أو تتصيد بأوراقها الحشرات للتغذى بها أو كما يحدث للنمل فى بيوته التى يصنعها بإحكام فوق

تصور الإنسان ومن ذلك أن النمل إذا اختزن حبوبا مثلا يجعل الحبة فلقتين لكي لا تنبت ثانية ، وكما يحدث فى خلايا النحل وفى كيفية صنعها من المسدسات الهندسية أقراصا معلومة ، وفى توجه النحلة صوب الزهور لاجتناء الرحيق ثم أوبتها إلى خليتها ثانية بمجرد الإلهام الغريزى ومن عجائب ما فى النبات والحيوان من الإلهام والتدبير والتوجيه الغريزى ما يغنى عن المقال ويدهش الأفكار السليمة عند الاطلاع عليه بل قل إن الجماد نفسه يحيا حياة غير متيقظة لأن ما فيه من عوامل الدفع والجذب ثم ما فيه من ذرات نورية تتحول من حالة لأخرى إلى أن تصل لحالة غير مرئية لا تدفة بالقوة العامة فى كل هذا ما يدعو إلى فهم قيمة ما فى الجماد نفسه من حياة وإن كانت غير واعية .

واستمع إلى العلامة رسل والاس حيث يصف ذلك فيقول : « إذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجـــلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية » .

وفى مثل ذلك يقول الله عز وجل :

« ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

حرف "لف" الفروق الحادثة بين قوى الجسم وقوى النفس

هذا ونحن لانرى أيضاً فى التركيب الإنسانى من مبدأ الحياة فى الجرثومة إلى مايظهر فى أفعال الإنسان نفسه من أفعال اجتماعية وخلقية إلا مسيطر ومسيطر عليه كما قدمناه وهو مايقول به كبار علماء النفس أيضاً :

والشىء لايسيطر على نفسه بنفسه إلا إذا كان فيه مبدأ فكرى وإرادة، فالإرادة والفكر هما المبدأ المسيطر عليه — فهناك مبدأ مسيطر ومبدأ مسيطر عليه وحسب ، وهذا غير ذاك فى النزوع ضرورة إن تلازما فى مبدأ التكوين .

وهناك حاجتان ملحتان : حاجة ملحة من الغريزة تتطلب حاجتها ، وحاجة ملحة من الفكر تطلب إتمام عمل فكرى لاعائدة على الجسد مطلقا منه .

فنرى عراكا فى الكائن الإنسانى الواحد بين القوتين (الفكر والغريزة) فهذا فيلسوف مثلا أو فنان يسعى فى إكمال أو تدعيم فكرة ، تحفزه لإتمامها عوامل معنوية ونفسية . وهو فى الوقت نفسه كجوعان يطلب منه الجسم حاجته من الغذاء طلبا ملحا أيضاً وتطالبه فكرة بما يحضرها من ناحية أخرى فنرى حربا عوانا فى هذا الكائن الإنسانى الحى بين قوتين متغايرتين فى شكل الميول والرغبات الفكرية والجسدية، وكثيراً ما تكون الغلبة للفكرة دون الغريزة أوبعبارة أخرى للفكر الذى يضاد حاجة الجسم أحياناً وينتصر عليه .

فكيف يتم هذا إلا إذا كانت نزعة الفكر فى أسلوبه وغايته نزعة روحية مغايرة لنزعة الجسد مع العلم بأن الشىء الطبيعى لايقاوم نفسه بنفسه ولا يضاد وظيفته الطبيعية بطبيعتها .

وقد يشير الاخلاقيون إلى مثل هذا الدليل فى عملية سيطرة الضمير على الرغبات الجسدية لأن للكائن الإنسانى ناحيتين : ناحية باطنية ، وأخرى ظاهرية (أو قل ناحية جسمانية وأخرى روحية) فناحية الباطنية تكون باعتبار بطون الذات الناشىء الوعى عنها أو القائم الوعى بها وهى أقرب خصائص الإنسان اليها وناحية أخرى ظاهرية هى الوعى الظاهر الذى يصلنا بعالم الموضوع هو الشعاع (الروحى) من معانى الذات إلى محيطها الخارجى (هيكلها) ومايتصل به من غرائز ويكون لها هى والادراك والحكم والتقدير لما يلق اليها ويلابسها من عالم الموضوع وهو (المحيط الخارجى أو البيئة) .

فالوعى الباطنى يختص :

١ — بالبصيرة وهى أول درجات الصلة بين الذات الإنسانى والعالم الأعلى الذى تأتيها رسالاته عن طريق الإلهام أو الوحى .

٢ — والشعور ، وهو ماتشعر به الذات فى محيطها الداخلى الذاتى أو محيطها الخارجى الموضوعى .

٣ — والذوق ، وهو خاصة للذات تثير فيها مقياس القيم لقضايا الشعور ووزنها وتقديرها فهو الذى يعين القيم مطلقا وسواء كانت من جهة الإدراك أو من جهة الفن كالجمال والحق والخير مثلا . ونفس هذه القيم يقدرها الذوق على الطريقة الآتية :

(ا) يشعر الذوق بالجمال فيدرك معنى الجميل والأجمل سواء كان ذلك بمحض شعور الذات أو به مع مساعدة الحواس فيكون الجمال لذى الذوق خيرا لأنه محبوب ، وخيرا لأنه جميل يقدر .

(ب) والحق يراه محبوبا وخيرا لأنه حق فى نفسه أو لأنه عدل بالنسبة لغيره فيقدر قيمته فى الوجود .

(حـ) والحب لدى الذوق قيمة لأنه يقوم به درجات التوحد أو التفرق أى الاتحاد أو التنافر ، وعنه تستمد العاطفة الدينية الصوفية وعاطفة الإخاء كذلك .

(ء) ويقوم الذوق الخير فى نفسه فيجده جميلا وحقا ومحبوبا لأنه الخير مطلقا ، ولذلك يسميه الذوق الخير الأسمى — والخير الأسمى أو الأعلى هو الله — وهو بالنسبة — لخبراتنا الجزئية سواء فى ذاته أو فى محيط صفاته أسمى تقدير من ذلك .

والأذواق وإن كانت تختلف فى الناس قوة وضعفا ، وصحة وانحرافا ، إلا أنه يوجد بينهم ذوق عام كحكم مشترك أو على الأقل مثل أعلى للذوق تشترك فيه جميع الأذواق السليمة المنتجة .

ومحتد الشعور والذوق والبصيرة هو مايسمونه العقل الباطنى وفى عرف الدين اللب ويطلق على جميع هذا الوعى الباطنى اسم الوجدان والعاطفة ضرب منه ، إذا تسامت فهى عاطفة خيرة نبيلة . وإذا تدنت وأسفت فهى عاطفة غريزية أو حيوانية تمدح إذا اعتدلت وتذم إذا انحرفت لانفعالها حينئذ بما يسميه الغريزة .

والوعى الظاهر يحوى الإدراك العقلى وهو موضع الموازنة بين المركز الداخلى (الذات) والبيئة الخارجية (الموضوع) أو المحيط والتعقل وهو حاسة المعادلة والتردد والمقايسة (والترجيح والحكم ، ثم الادراك الحسى وهو خاصة فى الذات بها يحمل الذهن للعقل مدركات الحواس الآتية لها من العالم الخارجية ليحكم فيها .

والترتيب التدريجى لما بين الوعى الظاهر (الادراك) والعقل والحس هو كما يأتى : —

والادراك أس العقل ، وهو أول فى الرتبة من جهة وهو ثان للذوات بالنسبة لها وأصل الجميع البصيرة القلبية وهى محل الإلهام ونبع الذوق .

والعقل طور من أطوار الذات يدرك به مالا تدركه الحواس ، ولكنه ذو قصور عما يدركه الوعى الباطنى أو البصيرة واما الحس (الإدراك الحسى) فهو أيضاً طور من أطوار الذات يقبل انطباع الصور المحسة التى تنقلها إليه الحواس عن طريق الأعصاب الخاصة بها ، فينقلها بدوره إلى العقل ليجردها من صورها المحسة ويرتب منها قضاياه المعقولة ليكون الحكم فى دلائل النتائج التى تفضى إليها مقدماتها .

ثم تأتى بعد ذلك الغريزة وهى طور من أطوار الذات وخاصة لها مع مشاركة الجسد بها تحافظ الذات على بقاء هيكلها الجسمانى ، وتشرف على علائقه بمحيطه الخارجى وبيئته الطبيعية (عالم الموضوع).

فالإدراك الحسى والغريزة هما العلاقة الخاصة بين الذات والموضوع فبالحواس تشرف النفس على ما فى عالم الموضوع من معلومات، وبالغريزة تتناول من عالم الموضوع مقومات حياتها الأرضية ، و"عاطفة تكون نشاط الغريزة فى الداخل والعقل العملى نشاط الإدراك فى الخارج .

والمفهوم من هذا أن البصيرة أصل الوعى ، والوعى علة للادراك والعقل مضاف إليه العاطفة أصل فى الحس والغريزة وهذا يبطل قوة برجسون إن العقل والبصيرة جميعاً عبارة عن غريزة تتسامى .

وهنا تساءل : هل الذات الإنسانية وبعبارة أخرى النفس هل هى الذات باعتبار إنها النقطة المركزية التى تشع منها سائر صفات الإنسان المعنوية والحسية ، أهى الروح ؟ باعتبار استمدادها للحياة من الروح الوجودى أو مبدأ الحياة المطلق ، أم هى النفس باعتبار علاقتها بالجسد وارتباطها بالغريزة والحس ؟ والجواب هو : الروح وهى النفس وهى القلب وهى الضمير وهى العقل الباطن وإنما باعتبارات مختلفة فهى الروح باعتبار نبعها السماوي الأقدس وفاعلية الحياة في الأحياء وهي النفس باعتبار علاقة

الروح بالجسد وهى القلب أيضاً إذا اعتبرنا أن القلب موضع التفاعل والكفاح بين العالم الأدنى والعالم الأعلى أو عالم الظاهر وعالم الباطن ، أو قل إنه هو نقطة الوسط إذا فرضنا خطا يبدأ بالروح وينتهى بالنفس ، ومن هذه النقطة الوسطى يحدث تسامى النفس أو تدليها إلى أغراض الجسد — وهى العقل الباطن بكل هذه الاعتبارات .

هذه حقيقة ماينفرع عن الذات الإنسانية من خصائص وهى فى وضوحها وبساطتها واختصارها بمكان وقد اضطررنا إلى هذا البيان عند تقسيم القدماء للنفس وتجزيئها أجزاء كثيرة وفروعا عديدة بحيث إنك ترى فى عالم الذات الإنسانى عوالم كثيرة داخل العالم . وأعيان متعددة داخل عينها وبحيث تسمع كثيراً عن العقل الأول والعقل الثانى والعقل النظرى العلمى وبهذا ترى أن الذات مغايرة للروح والروح مغايرة للنفس ، والوعى مغاير للادراك والادراك مغاير للعقل ، ونرى المحدثين بحكم رد الفعل قد جردوا النفس الإنسانية من كل هذا وتكلموا عنها ككلامهم عن كائن مادى (فزيولوجى) لاشعور ولا روح فيه ، وإن هى عندهم إلا مجرد استجابات حسية لبواعث مادية ، كأنهم يطبقون قوى النفس الإنسانية العالية التى هى نتيجة كفاح الوجود الطبيعى كله فى تضامنه وترقيه طوال الدهور يطبقون نفسه على نفس كلب أو خنزير أو حيوان من أخس الحيوانات يعيش بالحوافز والاستجابات الغريزية فقط وللقوم العذر إذا كانوا لايبصرون الإنسانية داخل البشرية ولايقررون بألوهية تشرف على عوالمهم التى خلقوها لأنفسهم وترعاها والتى أرادوا أن تكون مادية آلية ميكانيكية .

ومن لطائف النوادر فى هذا ، إن بعض طلاب العلوم الطبيعية قال لى فى حوار ظريف : إنى أستنتج من كل ماعلمنى العلم أن ليس فى هذا الوجود اله ؟

فكان الجواب : نعم .. قد لايوجد اله ولكن عندك وفى عالمك أنت

فقط وليس فى العالم الحقيقى الذى أبدعه الله بقدرته وقديماً قيل : « إن فاقد الشيء لايعطيه ، أفهمت ؟ قال نعم .. ولكن : فقلنا له آه .. آه من لكن هذه .... قال ولهم : قلنا لما وراءها من شك وإلحاد .

هذا ، ووعى الذات مطلقا ينقسم إلى وعى باطنى وهو عالم الوجدان ويحوى الشعور والذوق والاستبطان (العقل الباطن) والعطف (العاطفة) والعاطفة إما أن تكون متسامية فعاطفة محمودة وإما متدنية مستصحبه للغريزة — فغريزية .

ووعى ظاهر ويحوى الادراك الذكاء قوة التمييز (المعادلة والترجيح) والحكم (المنطق) والذكر (الذاكرة أو الحافظة) باعتبار أن الذاكرة والحافظة شيء واحد والتصور (الخيال) باعتبار أن الخيال والتصور شيء واحد ، وأما الغريزة فهى إشراف العقل (المدبر للجسم على حاجات هيكله الذى يعيش فيه والاستجابة لتناولها من العالم الخارجى باعتبار أنه مدبرله) ويجمع كل ذلك اسم النفس . والإرادة هى اتجاه الذات لقصد الفعل بعد روية واختيار . والتعبير بالذات أو الأنا أو النفس شيء واحد ، وأيضاً الذات تكون بمعنى الروح كما تقدم باعتبار أنها محل الحياة والوعى والنفس باعتبار علاقة الذات بالموضوع والموضوع بالذات ، وبالتعبير الدينى هى القلب باعتبار نقطة التفاعل والتعاطى بين الموضوع والذات وباعتبار القلب محل التسامى أو الانحطاط والخير او الشر أو الفعل المذموم والمحمود الخ (وسبحان مقلب القلوب) . والذات فى ذاتها وحدة لاتنفصل ولاتقسم أقساما لأنها طبعا غير محسوسة وإنما هذه الأقسام التى قسموها إنما هى اعتبارات وقوى وخصائص للذات فحسب ولكنها فى مجموعها شيء واحد معنوى كما تقدم .

حرف "ل" بيان الصلة النظامية للتبادل بين الذات والموضوع

أن العلم الذى يبحث فى موضوع الصلة بين الذات والموضوع هو علم الأخلاق ، وهو مجال للتسامى والتداول بين الناس والدواعى والاستجابات بين الذات والموضوع وموضوع علم الأخلاق نفسه هو البحث فى صلة الفرد بالجماعة أو صلة الجماعة الخاصة كالعائلة بالجماعة العامة كالانسانية بأسرها وفى النهاية تكون الغاية القصوى صلة المخلوقات بخالقها عن طريق صلة الخيور الجزئية النسبية بالخير الأعظم وهو الله .

وسياسة الإنسان للنفس فى صلة ذاته بعالم الموضوع فى التعامل مطلقا وهو علم الأخلاق الشخصى الذى مداره على ما يجب أن يكون عليه الشخص من صفات فى نفسه بالنسبة لصلته بالمجموع هو علم الأخلاق (الاجتماعى) وفيما بينه وبين الله مدار ذلك على الضمير والسريرة أو صلة الذات بالذات — (الله) وذلك هو قانون الأخلاق العام الغير مكتوب .

والنفس وقواها كائن بسيط باعتبار حقيقته ،لولا ما ألبسها الفلاسفة العلماء ما بين حيويين وماديين وطبيعيين وروحيين من ألبسة وأردية بتعاريفهم الكثيرة وفروضهم العديدة أو صرفها فى تعاريفها إلى الناحية الفزيولوجية المحضة أو المادية المغرقة كمقدمات قصدوا منها إما ثانوية النفس أو توجيهها إلى الناحية المادية ، وفروض أخرى أرادوا بها أن تكون نتائج توافق مقدمات علومهم ولو كانت علومهم موضوعية والنفس أمر ذاتى بطبيعته ولا شاهد أوضح لك فى ذلك من مذهب النفس الميكانيكى الفزيولوجى فى مقابل الكون الآلى .

ونحن هنا فى غنى بما قدمناه عن أن نشير إلى أن هذا اغراق مشين فى تحويل النفس والكون إلى ماكينة آلية ولكن وإن كان هذا ليس بالأمر

الغريب فى عصر الاقتصاد والمصانع والعمال . . . . الخ أو قل اجمالا فى عصر يريد أن يحيا بغير اله ولا نفس معنوية .

على أن النفس نفسها كائن روحى بسيط : وهى شعاعة مطلقة بازغة عن العالم الإلهى الأقدس .

إثبات وجود النفس بالأدلة الحسية :

أعلم علمك الله أن الروح والنفس شىء واحد واختلفت التسمية لاعتبارين . فهى الروح باعتبار اتصالها بالجسد لامداده والنفس باعتبار تكوينها للغرائز الجسدية كنقطة فصل بين الروح والجسد وقد ذهب الماديون بين فلاسفة وعلماء ماديين إلى أن مسألة وجود النفس ومسألة وجود الله تكاد تكون ضربا من الخرافات بل هى نوع من الجهالة يأباه كل عقل متنور بالعلوم الطبيعية (فى عرفهم) واثباتا لمبدئهم هذا صرفوا عنايتهم إلى البحث فى قوانين الكون الطبيعية بصرف النظر عن مبدعها وفى علم (البيولوجيا) وصرفوا النظر عن وجود حياة مستقلة وأخذوا فى الاكتفاء بعلم وظائف الأعضاء ومكوناتها من خلايا حية ووسط تعيش فيه فزعموا أن القوة العقلية الإنسان مصدرها الدماغ فقط ولا صحة لصدورها عن مبدأ روحى علوى ، وقالوا إن نسبة الفكر للدماغ كنسبة الصفراء للكبد أو البول للكلى فهى افرازات للمخ .

وبالاختصار فان الانسان فى عرفهم آلة مادية تتلاعب بها التأثيرات الخارجية الطبيعية وعند الموت يتلاشى عنه كل شىء وينطفىء فيه الفكر والنفس والروح مع انطفاء هذه الحياة الآلية وهذا مبدأ فاسد ورأى خاطىء دون شك وأما الصحيح فهو أن التعمق فى علم الحياة تعمقا بعيدا عن الغرض والتحيز المذهبى يأتى صاحبه بأقوى دليل وأسطع برهان على صحة وجود النفس وتميزها عن الدماغ ووظيفته . وليس فى وسعنا الآن أن نأتى هنا بتفصيل

العناصر المؤلف منها الدماغ لأنها معلومة ولا أن نشرح أجزاءه ووظائفه فإن هذا خاص بالفزيولوجيا بل نكتفى لضيق المقام بايراد كيفية سريان الحس فى الأعصاب والأعضاء ثم وصوله إلى الدماغ ثم رجوعه من هناك فى هيئة تأثير محرك .

فاعلم أن الأعصاب المنتشرة على سطح الجسم ، تؤثر فيها العوامل الخارجية على حدسواء بل تتابع مؤثرات معينة لايجاد اهتزازات الالياف الدقيقة المؤلفة منها الأعصاب السطحية فمثلا التأثيرات على النظر لافعل لها فى عصب السمع وبالعكس فاذا اتخذنا مثلا حاسة البصر موضوعا لبحثنا نرى أن الحركة التموجية الصادرة عن الأشياء والحاملة لصور المرئيات تمتد إلى العصب البصرى الدقيق المستقر فى وسط الدماغ . ومن هناك تندفع إلى مركز الحواس حيث تنتشر فى الخلايا الدقيقة للمخ هذا فيما يختص بالاحساس وتتيقظ العناصر العصبية المتعلقة بالتأثيرات البصرية وعليه فكل نوع من التأثيرات الحسية الخارجية تتفرق ثم تتجمع فى مكان مخصوص من الدماغ وقد أثبت التشريح وجود أماكن معينة من الدماغ وأنواع محدوده لكل حاسة تتجمع فيها وتتكاثف فيتحول ما تنقله إليها الحواس من التأثيرات الخارجية ، إلى حالة ذهنية بواسطة الحس المشترك، وقد قام علماء الفيزيولوجيا ببعض اختبارات على الحيوانات الحية أظهروا بها أنهم بنزعهم من هذه الحيوانات قطاعا مخصوصا من المادة المخية تفقد قوة الادراك للتأثيرات النظرية أو السمعية أو اللمسية مثلا بل أثبتوا بالامتحان أن دماغ الكلب ترتفع الحرارة فى جزء من أجزاءه بالنسبة لنوع من التأثيرات الواصلة إليه من احدى الحواس وكل هذا معلوم. ولكن إذا سألنا الماد بين كيف تتحول هذه الحركات الاهتزازية بعد وصولها إلى مراكزها من الدماغ إلى أفكار ذهنية عقلية ؟ فيجيبوننا بأن هذه الاهتزازات حينما تبلغ الخلايا الحسية من الدماغ يحدث فيها من رد فعل بما يحدث فى النخاع الشوكى .

فغير خاف على أحد ماتم فى حديث رد الفعل هذا وهو أن محركات الأعصاب الحية تنقل إلى الخلايا من النخاع الشوكى تهيجا ، ثم تنعكس إلى الخلايا الغليظة فتهزله الأعصاب المحركة المناسبة لها وعلى هذه الصورة يرتد الاهتزاز إلى نقطة مصدره تحت هيئة تأثير محرك .

هذا مايحدث فى ضفدعة مثلا قطع رأسها ومع هذا فتتشنج رجلها لدى حسها بحامض مهيج .

فالأمر نفسه يحدث فى المؤثرات الطارئة على الخلايا الحسية من الدماغ أى أن الخلية القشرية . عندما يبلغها الاهتزاز الخارجى تتنبه حاسيتها الذاتيه الذهنية وتفرغ القوة الكامنة فيها ثم تمتد الحركة إلى ماجاورها من الخلايا وتوقظ القوات المعنوية المضمرة فيها حتى تبلغ الخلايا الغليظة . وهذه تنقلها إلى الطبقة الرمادية ذات الأخاديد التى تقوى الاهتزازات وتدفعها إلى الأعصاب تحت هيئة تأثيرأو بالأحرى أمر محرك أو ردود الأفعال .

أننا نسلم مع نا كرى النفس بكيفية مجرى الحس المعبر عنه بالاهتزاز الطبيعى العصبى أو ردودا للأفعال وبلوغه إلى الدماغ ثم ارتداده من هناك تحت هيئة أمر محرك . ولكن فات خصوم الروح حادث خطيرجرى ما بين هذا البلوغ والارتداد . وهو حادث الادراك الذهنى أى دراية الشخصية الإنسانية بما يحدث من الأمور الخارجية وتأويل معانيها ومن ردودالأفعال هذه لأن تلك الاهتزازات والتهيجات العصبية ماهى إلا حركات مادية محضة جعلت تولد حركات أخرى . ولكنها لاتحدث بنفسه وعيا نفسيا ومانتيجتها سوى أن تتنبه القوة العاقلة لادراك مصدر هذا التنبيه وعلته وغايته . وبدون وعى النفس لايكون الاهتزاز أو الحركة الخارجية أدنى مفعول فى القوة والفهم ودليل ذلك أن المشغول الذهن بأمرمهم

لايعى مما يحدث حوله فيما عـــداه وذلك مع وجود ردود الأفعال والإهتزازات العصبية .

أن الخلية العصبية المركبة من كميات متناسبة من الكوليسترين والماء والفسفور وحامض الكربون .... الخ . ليست فى ذاتها قوة مدركة ، والحركة الاهتزازية أيضا حركة مادية محضة فكيف أن أهتزاز هذه الخلايا العصبية يولد ادراكا عقليا أو وعى ذهنى هذا ماعجز الماديون عن تبيانه وإثباته .

أما الفلاسفة الروحيون فيعترفون بوجود شخصية عاقلة فى الإنسان تدعى نفسا أو ذاتا فإذا حدثت الاهتزازات العصبية تنبه العقل فتدرك ماترى من الحوادث الخارجية وعندما يتم انتباهها يحدث الادراك ويؤيد ذلك بأجلى بيان حادث الذهول مثلا فعندما نكون مستغرقين داخل مكتبنا أو حجرتنا فى عمل من الاعمال الهامه قد نشغل عن سماع دقات الساعة بل عن صوت ناقوسها أيضا وذلك فى حالة عدم الانتباه الذهنى ومع هذا فان الاهتزازات الصوتية قد حدثت وأثرت ولاشك فى عصب سمعنا وبصرنا وبلغت حتى الدماغ الباطنة بدون أن ينتبه لها الوعى بل وقد يمر علينا صديق لنا أوقريب عزيز علينا ولا ننتبه له عندمروره حين أنشغالنا وماذلك إلا لكون النفس فينا مشتغلة بأفكار أخرى معنوية ولم تنبهها ولاأثرت فيها إهتزازات الخلايا الدماغية حينذاك وبسبب هذا لايحدث الادراك السمعى أو البصرى .

وبالاختصار فان المادة كانت موجودة فى مخنا واهتزازاتها حاصلة ولكن لم يكن لها بنفسها اختيار فى التنبيه أو التمييز من تلقاء نفسها ، والنتيجة أن المادة الدماغية هى آلة لتبيان إحساسات ومشاعر النفس العاقلة فقط فلاتعقل بنفسها مايصدر بواسطتها من التعبيرات الفكرية

أو التأثيرات الذهنيه كما أن آلة الساعة مثلا لاتدرك حركة الأوقات التي تشير إليها وكما لاتدرك قراطيس الكتابة الأفكار المسيطرة عليها . ومن زعم أن الدماغ يدرك التفكير نفسه فهو كمن يزعم أن الساعة تدرك حركة الوقت الذى تسير إليه والقرطـــاس معانى الكتابة التى سطرت عليه .

وقد قرر علماء الفيزيولوجيا إجمالا أن كل حركة تصدر من الإنسان و الحيوان يصحبها احتراق جزئى فى المادة العضلية وكل فعل من الإرادة أو الحس يتأتى عنه تعب فى الأعصب وكل عمل فكرى ينتج عنه اتلاف فى خلايا الدماغ لدرجة أنه لايمكن لذرة أو خلية واحدة من المادة أن تصلح مرتين للحياة إلا إذا تجددت فعندما يبدو من الانسان أو الحيوان عمل عضلى او عقلى فالجزء من المادة التى صرفت لصدور هذا العمل تتلاشى تماما إلا إذا تكرر التجديد بما تستخلصه الحياة بالتغذى تجدد وتصلح لصدور العمل مرة ثانية وهلم جرا وهذا الاتلاف فى خلايا المادة الحياة ويجددها يحدث لمناسبة قوة الفاعلية الحيوية وكلما اشتد ظهور الحياة ازداد اتلاف المادة الحية ثم تكونها من جديد لحدوث الحركة مما يدل على أن هذا الاتلاف الدائم والاستهلاك يصحبه دائما تعويض متصل من المادة المتجددة الداخلية فى الدم بواسطة الهواء والغذاء كما تقدم، وهذان العاملان أى عامل الاتلاف وعامل التجديد مرتبطان ببعضهما فى الخلايا الحية ارتباطا لاينفصم لدرجـــة أنه يمكن القول أن الاتلاف شرط ضرورى فى التعويض والتجدد .

وهذا العامل الثانى أى عامل التجديد هو عمل باطنى بحت وخاص بذات لاظهور له فى الخارج فى حين أن عوامل الاتلاف تبدو ظاهرة للعيان فتدعوها ظواهر الحياة وماهى إلا بوادر الموت لأن ظهورها لايتم إلا باتلاف جزء من أنسجتنا العضوية الحية ويجب أن تستنتج مما تقدم أن

خلال تنازع هذين العاملين (الاستهلاك والتجديد) يتجدد جسمنامرات عديدة فى مدة الحياة ويتم هذا التجدد لخلايا المخ على مارتآى علماء الفيزيولوجيا فيرى بعضهم مثل مولوشوت انه يتم فى كل ثلاثين يوما ، أما فلورانس فيرى أن ذلك لايتم إلا فى كل سبع سنوات وقدقام بعضهم بامتحانات عدة على الأرانب أثبت فيها تجدد عظامهم ذرة وذرة فى مدة محدودةفى حين ان ناكرى النفس الحيوية يزعمون أن قوة الذاكرة مثلا عبارة عن اهتزازات فسفورية تختزن فى الخلية العصبية من الدماغ بعد وصول التأثيرات الخارجية إليها ، فان صح زعمهم ذلك تقرر أن كل مافينا من العظام والأنسجة العضلية والخلايا العصبية تتجدد فى مدة معلومة وهذا يقتضى أن قوة الذاكرة تتناقص فينا بالتدريج إلى أن تتلاشى تماما فى مدة أقصاها سبع سنوات وعلى هذا نضطر فى كل سبع سنوات إلى تجديد كل معلوماتنا وذكرياتنا وماحفظناه صغارا.

والحال أننا نشعر مع التأكيد بأن الأمر عكس ذلك وإن تيار المادة المتجدد بواسطة جوهر الحياة فى اتصال دائم ينتج عنه أن لايحدث تغيير فى ذاكرتنا أو فى محفوظاتنا السابقة وإن امورا وقعت معنا أيام الصبا تخطر على بالنا فى زمن الهرم وهذا كما يحدث للمصباح الكهربائى الذى استعمل سلكه الداخلى كثيرا لاينفى طبعا أن قوة التيار لاتضعف بضعف قوة الجهاز فى نفسه وكذلك الانسان مع العمر الطويل أو المرض وهذا لايطعن فى قوة التيار نفسه كالسلك الكهربائى مثلا إذا ضعف ضعفت قوة التألق الكهربائى فى المصباح بالضرورة ولكن هذا ليس معناه أن التيار الكهربائى نفسه قد ضعف .

وبالاجمال أن كل ما فينا من قوة معنوية يؤيد ثبات شخصيتنا وعدم تغييرها برغم تغيير كل ذرات كياننا المادى .

وهذا دليل قاطع على وجود قوة روحية فينا تدعى نفسا يقيها جوهرها البسيط من التحولات والتقلبات الطارئة على الخلايا العصبية أو العضلية منها أجسامنا وفى هذه القوة المعنوية تنطبع الذكريات والحوادث الماضية والعلوم التى اكتسبناها بجهادنا العقلى والفكرى وإلا كنا نحتاج أتباعا لرأى علماء الفزيولوجيا الماديين لتجديد معلوماتنا ومحفوظاتنا كل شهر مرة على الأقل وعلى الأكثر كل سبع سنوات مرة .

وفوق هذا وذاك فإن العناية الإلهية قد نفحتنا فى هذا العصر بواسطة العلم البيولوجى الصحيح وبواسطة الأبحاث النفسية إلى مايؤيد وجود النفس بأدلة حسية ناشئة عما قدمنا وأيضا عن جملة الأبحاث المغناطيسية الحيوية ومنها ما نشاهد من انفصال الروح عن الجسد مؤقتا وقيامها بأعمال مدهشة ملموسة تنبأ عن صفة وجودها الذاتى وأيضا عن صدور أعمالها الفكرية الحيوية بمعزل عن الحواس لاسيما وإن علم التنويم اليوم أصبح فى عداد العلوم الطبيعية كذلك علم النفس وفيه تنفصل روح النائم عن جسده انفصالا جزئيا وتؤدى أعمالا مدهشة بينما يكون الجسد نائما مكانه .

وقد خطب الدكتور فيز نبرج اللاهوتى العظيم والفيلسوف الكبير فى جمع من رجال الدين ورجال العلم فقال :

« لابد من قوة سببية خلقت هذا العالم ، فهل يعقل أن تكون هذه القوة الخالقة غير عاقلة وغير مدركة ؟ وكيفما وجه العالم إلا أنه العصرية من أنواع الميكرسكوب والتلسكوب رأى بها أدلة قاطعة على وجود الانتظام فى الكائنات ووجود الروح ووجود الإله حتى لقد قال هكسلى وهو من اللاإراديين : أنى أسلم بأن نظام الكون يدل على عقل منظم وإن هذا التنظيم قد ساد الكون فى كل العصور ولا أكتفى بالتسليم بهذين الأمرين بل أرانى ميالا إلى القول بأنهما من أهم الحقائق .

فالكون شيء حقيق خاضع لنواميس تجرى وكذلك الحياة وإن عناصر أبعد نجم منا مثل عناصر أقرب نجم ومثل عناصر الشمس والأرض كلها ونواميس حركات الكون معروفة جارية على سنن واحد حتى لقد عرف بعض العلماء بما رأه من التأثير فى حركات بعض السيارات أن وراءها سيارا هو « نبتون » وكان غير منظور مؤثر فيها فعرف مقداره وموقعه من تأثيره فيها قلما رآه احد أو رصده فى المكان الذى عينه فوجد فيه .

وعليه : فالعالم منتظم انتظاما يدل على أن عقلا ساميا نظمه ، وحركاته جارية حسب قوانين ثابته لامجازفة فيها . وتشارلس داروين يقول : إننا إذا التفتنا إلى العالم كله أبى العقل أن يسلم بأنه وجد صدفة » .

فانك إذا ألقيت حروف الطبع من غير ترتيب حتى يجتمع بعضها ببعض كيفما اتفق فلا يمكن أن يطبق منها عبارات معروفة ذات معنى ، ولا تترتب ترتيبا تطبع عنه جمل ذات معنى إلا إذا رتبها إنسان عاقل فوجود المعنى فى ترتيبها يدل على وجود إنسان ذى عقل وتفكير يرتبها وقد بحث رجال العلم فى الكون ورأوا أن ليس فيه شيء خال من المعنى فالذى رتب الكون هذا الترتيب كائن عاقل .

وعليه : فوراء هذا الكون المادى كائن عاقل كونه ونظمه وحياة معقولة تمد الاحياء بفيضها العامر وإذا بحثنا فى طبائع الكائنات رأينا أنها تندرج من البسيط إلى المركب ومن الادنى إلى الأعلى ، ومن مجرد غبار تتألف منه النجوم إلى الأرض الكثيرة التركيب ومن الجماد إلى النبات والحيوان ومن أدنى طوائف الحيوان إلى الإنسان العاقل وهو أرقاها فالكون متجه فى نظامه الارتقائى إلى تكوين العقل أو النفس ، فإذا كان العقل أو النفس هما الغرض الأسمى الذى ترتقى إليه المخلوقات فهل يعقل أن الخالق

يصل إلى هذه الدرجة السامية فى ترقية مخلوقاته ؟ ؟ ومتى وصل إلى ذلك يلاشيها كأن لم تكن أو هل يكون من المعقول أن الجهاد الذى جاهدته المخلوقات مدى الملايين الكثيرة من السنين يذهب هباء منثورا وكأن خالقها يلهو بها ؟ وهل يصح فى العقول أنه متى وصلت المخلوقات إلى أعظم غاية يمكن الوصول إليها فى هذه الدنيا يطرحها الخالق من يده كأنها من سقط المتاع ؟ كلا والله وألف كلا .

وقد أدرك داروين هذا الأمر فقال : « أى عاقل يستطيع أن يسلم بأن الإنسان المفكر وكل الحيوانات التى خلت من الشعور معرضة للملاشاة بعد أن ارتقت هذا الارتقاء البطىء المستمر » .

يقال إن فى بلاد الهند طائفة من الفقراء يجلس الواحد منهم أمام بركة من الماء وإلى جانبه مساحيق ناعمة من الغبار الملون ، فيرمى بعضا منه على وجه الماء ويتفنن فى رمية حتى ترتسم منه صور أشخاص ثم تعبث الرياح بالماء فتزول الصور منه — فهل يعقل أن الخالق سبحانه يسلك هذا المسلك فى عمله ؟ فيأخذ حفنة من التراب ويصنع منها مشاهير الرجال ثم يلاشيهم فجأة ويلاشى أعمالهم فهل يا ترى يستطيع أن يتصور إمكان ذلك ؟ ومن يستطيع أيضا أن ينسب إلى الخالق عملا يجل هو نفسه عنه ؟ .

وكلما قوى العقل وازدادت قوة الاستدلال فيه نفر من القول بتلاشى النفوس فتصبح كما لم تكن كلا . لأننا إذا سلمنا بما أقره العلم وهو أن نظام الكون يدل على وجود العقل فى تنظيمه أضطررنا كذلك أن نسلم بوجود الخالق المنظم وبوجود النفس بعد الموت وبخلودها أيضا وإذا سلمنا بوجود الخالق الحكيم تعذر علينا أن نعتقد بفناء أسمى مخلوقاته أى ذاتية الإنسان أو عقل الانسان فناء تاما .

وقال الماديون أن الجسد والعقل يموتان معا ويفنون بالعقل هنا . آلته اى الدماغ ولكن هل الإنسان جسده ودماغه فقط ؟ أو ليس الجسد

والدماغ اللتين تعمل فيهما النفس كالآلة التى تديرها الكهرباء شىء آخر وأن كانا متكاملين وحتى التيار الكهربائى نفسه لا يعرف أحد من العلماء كنهه وعلته الحقيقية ومسألة ارتباط النفس بالجسد.

مسألة قديمة جرى فيها البحث فى سجن سقراط وهو ينتظر شرب كأس السم الذى حكم عليه أن يتجرعه، وقد شبه بعض تلاميذه الإنسان بالآلة الموسيقية وجعل حياته العقلية والأدبية كالأنغام الصادرة من نقر أوتارها وعليه فالنغم يزول بزوال العود فرد عليه سقراط قائلا: إن الإنسان ليس بالعود ولا بالنغم بل هو العواد الذى ينقر أوتار العود، فهو محتاج إلى العود وأوتاره لإصدار الأنغام وقد يترك هذا العود وينقر على عود آخر، والذى نشاهده فى الشيخوخة هو دنو العود من الفناء وليس دنو العواد منه».

وإذا سار الانسان فى أتومبيل مقفل كواه من الزجاج توقفت رؤية الطريق وما حوله على نظافة الزجاج، فإذا غطاه الغبار تعذرت عليه الرؤية ولكن لا يستدل من ذلك على أن الإنسان لوح من الزجاج وعلى أنه يعجز عن الخروج من هذا الحيز ليرى ماحوله دون حجاب.

والصعوبة التى نراها فى الاعتقاد بأن الصدفة هى التى أوجدت الكون — نراها فى الاعتقاد بأن خلايا أجسامنا ومعها المخ هى التى توجد ما يفيض فى نفوسنا من أفكار وثبات على أن الدماغ مؤلف من خلايا دقيقة والياف بسيطة فهل يحتمل أن هذه الخلايا وتلك الالياف هى التى أنشأت روايات شكسبير — ونظمت موسيقى بتهوفن؟ وكيف علمت كل خلية من الأشتراك مع غيرها من الخلايا ولتنظيم أعمالها معها حتى يصدر من مجموعها ما يصدر من مبتدعات العقول الكاملة ونتائج العبقريات الكبيرة

فذواتنا ليست أجسامنا ولاعقولنا وإن كانت عقولنا أقرب إليها أو متفرعة عنها وما أجسامنا وعقولنا سوى آلات لها ، أو هى (سقالة) تقام ليبنى بها بناء عظيم ، ومتى تم البناء أزيلت وبقى البناء ، ولقائل أن يقول أنى لاأستطيع اتصور الإنسان من غير جسم ، فنجيبه بأننا إذا نفينا من الوجود كل مالا يستطيع تصوره وجوده لم نستطع أن نجارى العلم الطبيعى الذى يأتينا كل يوم بجديد ماكنا نتصور وجوده وأن رجال العلم يقولون أن رأس الدبوس يمثل عالما كبيرا فيه الملايين من الذرات ، هى تتحرك فى مداراتها كالكواكب فى أفلاكها . وقد ثبت أن الإنسان لايستطيع أن يعد الذرات التى يحتويها مثل رأس الدبوس فى مئات السنين . فهذا شىء يفوق تصور من لايعرفه ولكننا ندعى خطأ العلماء فيه ولم يقل أحد بأن التيار الكهربائى يظهر الضوء فى المصباح دون سلك كحامل لهذا التيار ولكن بعدم صلاحية السلك لحمل التيار ينطفىء المصباح ولا أحد حينئذ يقول بفقد التيار نفسه أو فنائه . ، وهذا نفسه هو الشأن فى استمرار الحياة بفقد موت الجسد وإن صعوبة فهم استمرار الحياة على بعض الناس بعد ذلك . لاتنفى وجودها .

أن أكبر الفلاسفة لم يكن يستطيع وهو جنين فى بطن أمه أن يفهم أحوال الحياة المستقبلة التى سيحياها فلايستطيع أن يتصور كيف ويعيش نحن ولا كيف يعيش هو لو خرج من رحم أمه وهكذا شأن حياتنا الحاضرة مع حياتنا المستقبلة بعد الموت .

ونحن فى معرفتنا بالحياة لاتزال مثل الأجنة فى تعقل ذلك الأمر ولم ينكشف لنا من خفايا الكون إلا النذر اليسير ، فلاعجب إذا تعذر علينا وقـــد تعودنا على الحس والاحساس والتعقل والمعقولات المحدودة المدى .

أن نتصور فى العالم غير المنظور أمورا وأحوالا لم نرها ولم ندرك وجودها هنا وبين أيدينا ويقول بعض الشعر متمهلا كأنه يطأ أرضا مقدسة . كان لأمى تأثير كبير جدا فى حياتى ، فقد كنت أحبها وأحب كل ملاح وجهها وأنغام صوتها ولمحات عينيها فلما ماتت انتبهت إلى أن ما كنت أراه فيها من جمال ليس هو جسمها أو عظمها أو لحمها أنما هو شيء كان موجودا ثم ذهب وهو ذاتها الحقيقية وما كان فيها من حب وعطف ورحمة وفكر هذا شأن كل منـــا ، فإن صفاتنا الحقيقية ومقوماتنا الذاتية ليست مما يرى بالعين .

وخلاصة المقال : أن العالم لايخلو أن يكون واحد من شيئين ، أما أنه مهزلة لامعنى لها ولاغرض منها ، أو أنه وجود حقيقى منظم معقول وله اله خلقه وهو يرقب أعماله ويدبر شئونه وقد أوجد فيه ذوات خالدة ثم يكون إليه المنتهى فاختر ماشئت من هذين الفرضين .

حرف "م" "الأسلوب العلمي والحقائق الوجودية"

ان القوة العامة فى نظر الأسلوب العلمى الحديث وفيما تقرره التجربة من نتائج مسلم بها عند كبار علماء الطبيعة فى عصرنا الحاضر لا يمكن أن توصف بالمادية بمعناها المحدود ولاسيما فى المعادلات الرياضية التى أصبحت دعامة العلم كما كان يقرره أنصار المادة من الفلاسفة ورجال العلم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانوا يجعلون من القوة العامة مجرد ظاهرة من ظاهرات الكتلة المادية ونتيجة من نتائجها مع أن (القوة) على ضوء الكشوف النورية الحديثة كائن عينى موجود وإن كانت لا تزال ماهيته مجهولة للعلم .

وكذلك الحياة التى كان يرى أنصار المادة أنها أيضا مجرد تفاعل كيميائى أو ظاهرة فيزيولوجية لأوليات معدلية فهى وليدة المادة مع أن الحياة كما نفهمها الآن ويفهمها العلم الحديث لا يمكن أن تنشأ إلا عن مبدأ حى كما هو الرأى الآن على مايقرره الصفوة من علماء الحياة وعلماء الجراثيم وكبار علماء الطبيعة من أمثال كوخ وباستير وغيرهما .

وكذلك الفكر الذى كانوا يرون أنه مجرد أفراز لعضو من الجسم هو المخ كما تفرز بقية الأعضاء سوائلها والحقيقة أن المخ بسائر خلاياه مجرد آلة فيزيولوجية يستعملها الفكر بل أن الكون جميعه اليوم فى نظر علماء الرياضيات والذريات يبدو كأنه محض معادلة رياضية عقلية لا أكثر ولا أقل والفكر قد يحيط فى لحظة واحدة بجميع العوالم الطبيعية وهو بذلك التجريد أولى .

والراجح : أن القوة والحياة والفكر كلها حقائق تجريدية غيبية لم يصل العلم بعد بتجاربة المعروفه إلى معرفة حقائقها منذ كان اعتماده على مجرد إدواته الآلية لحواس الخمس ومجرد المجهر والمشرط والمطرقه . . . . الخ واليوم يقرر العلم نفسه أن تلك أسرار ليست من موضوع بحثه ولم يصل بعد إلى كنهها وإن كان يعترف صراحة بوجودها وفى الحق أن تلك الحقائق والعلل الوجودية — القوة والحياة والفكر — لا تكتشف إلا بوسائل ومقاييس معنوية تتناسب مع حقائقها الجوهرية لأنها جميعا تقع فيما وراء متناول أدوات العلم الطبيعى ومقاييسه الحسية وأنه بعيد كل البعد عن ماهيتها أو خصائصها، والبحث عنها ليس من وظيفته ولا من موضوعه التجريبى المادى كما تقدم ولكن العلم مع ذلك لا ينكر وجودها بل أنه يعترف بوجود أثارها كحقائق عامية موضوعية .فمن أين ياترى جاء محدثو الماديين ودعاة الهزيمه للعلم بتلك النظريات المهلهلة الخلقة التى لا تنطبق على الواقع ؟ وبأى مصوغ من العلم ياترى يثبتون أن القوة والفكر والحياة مجرد أثار الية ظاهرية للمادة على أن المادة نفسها حالة عابرة من صنع الطاقة الذرية التى مرجعها إلى القوة العامة وأما هذا لا يصدر إلا عن فلسفة مادية مسفسطة متهافتة قد مضى وقتها وذهبت عصورها وقد بينا أن المادة اليوم بسائر أجرامها وخصائصها وصورها فى نظر العلم المجرد ظاهرة كغيرها من الظاهرات الكونية التى تنشئها وتحلها الطاقة الذرية وذلك هو رأى علم اليوم ، ونزعة فلسفة اليوم .

فالرأى القائل بفعلية مادة الكون لنفسها أو لنفسها وللعقل معا أصبح بلا قيمة علمية الآن لا سيما وإن فى الوجود طاقة عامه ومن آثارها أشياء مادية ظاهرة وواقعيات مجسمه مازال العلم الحديث يجد فى سبيل التعرف إلى ماهيتها وما وراء هذا الكون من آفاق متسامية وكلما تقدم العلم خطوة فى هذا السبيل فوجىء بأفواج متعددة من الحقائق الغيبية بل قل من الألغاز والأحاجى

والرموز غير الطبيعية تلك التى طالما أدهشت العلم والعلماء دون أن تتناولها تجاربهم الحسية وهى تتصل بآفاق الفلسفة الميتافيزيكية من بعد أو من قرب بل قل تتصل بآفاق الروحية أو قل ماتشاء مما تنقلب معه فروض العلم التى كانت مقررة فيما سبق إلى عكسها وذلك بالمقررات الحدثة وخصوصا فى تصرف الطاقة الذرية وطبعا هذا مالاينكره العلم الحاضر من حيث إن من مقرراته الحديثة عن تصرف الذرية أن ذلك التصرف إحتمالى محض وهذا يشعر بل يؤكد بأن مصائر الكائنات بمافيها من قوة وطاقة وقوانين ومادة كلها تمت بارادة عليا خفائية مسيطرة وهى متوحدة وتفيض بارادتها الحرة على مصير كل كائن جامد أو شاعر .

تلك العوامل الوجودية بل قل العوامل الإلهية الخفية تكمن وراء كل ماتعرفة الفلسفة المادية المحدودة الآفاق بل كل مايعرفه العلم نفسه بمجرد ظواهر الكائنات الوجودية ثم أن هذه الحقائق والعوامل الخفية على العلم والعلماء الماديين تبدو خلال أستار الكائنات والحادثات والقوانين كأنها دراكة مريدة تحدد بروز الظاهرات الطبيعية بمقدار وترتيب وفى أزمان وسرعات تقررها هى ثم إنها فوق هذا وذاك تتفنن فى تحويل العناصر بعضلها إلى البعض الآخر وتشرف على مايتركب منها وتقدره كيميائيا وطبيعيا تقديرا تلقائيا مضبوطا بميزان لايخطىء ولايختل ثم تحوله فى النهاية بتشع المادة إلى ذرات وأضواء خفية ثم إلى كهرباء عامه مرة أخرى بين سلبية وإيجابية ومحايدة،الأمر الذى لايعلل ولن يعلل إلا بوجود الهيه ذاتيه وقدرة بالغة وإدراك سام يسودان هذه الكائنات . اله مسيطر يرتب وينسق ثم يظهر الحوادث الكونية فى ظروف خاصة وعامة يعلمها هو وأحوال ملائمة يضع نسقها بارادته المطلقة وأما العلم وأما العقل فمحدودان المدى لكونهما أثر من آثار الروح ولا ننكر أن العقل من ضمن مخلوقات الله المحدودة بالنسبة لعلمه واقتداره .

وأن كان للعقل سننه أيضا وقوانينه ومنطقه المنظم لمجال تفكيره وله مبادىء أولية موجودة إلا أنه يستمد منها قواعد قضاياه من بدائه الوجود الاعظم وهومتجاوب فى ذلك مع مقاصد الادراك الإلهى المطلق فى الوجود وذلك مما يدل على أن وراء المادة والقوة ووراء الادراك ووراء السنن والقوانين وسائر مايخضع له الكون الطبيعى من نظم ومايبدو فيه من قوى وتطور تكمن علة الهية عليا متوحدة مدركة كاملة وهى الله فى جلاله وكماله وتوحده المحض ، وفى تنزيهه أيضا عن سائر هذه الممكنات قاطبة ، وتبدو حقيقته الغيبية وسر ذاته للعقول والبصائر فوق سائر مدركات هذا الكون ومحساته ومعقولاته وقوانينه ونظمه جميعا . ومن هنا ومن وراء أستار الكائنات المحسة والمعقوله تبزغ النبوة وتنبع الولاية وتظهر عبقرية الفن والأدب وروعة الشعر وبهجة الفلسفة وأخيرا دهشة الرجل العالم وحيرته وهذا نفسه شأن كل مايبزغ ويبدو فى الكون من حياة أو وعى أو ارادة أو جمال تنجلى كلها لكفاياتنا العليا كأنها نعوت وخصائص أصيلة لكائن أسمى يبدو لنا أنه مطلق الإرادة والفعل دون قيد أو حرج ويشمل اقتداره وإبداعه وجودنا ووجود غيرنا من الكائنات ودليل ذلك أن الوجود فى شموله مع ما يبدو فيه من كثيرة وتعدد يمثل لادراكنا الذاتى وحدة شامله متآلفة الروابط والعلائق وتضامن مع الطبيعة والحياة وإن تفاوتت فيه النسب والأوضاع والكيفيات والوظائف مما يدلك دلالة صريحة موجبة لليقين قاطعة للشك على أن أصلها سبب أولى الهى قد صدرت الكائنات عنه وهو يدرك ما يفعل قبل أن يفعل وبعد أن يفعل وتضمن ارادته الغاية والقصد فيما يفعل وتصير إليه أيضا نتيجة ما اراد وما فعل،وهو نفسه ذلك المبدأ الذى به كان نظام الكون علوية وسفلية بسماواته وأراضيه وطبعها جميعا على أسلوب يجعلها كما واحدا متناغم الوحدات مترابط الحلقات لأنه هو أحد صمد وقد جعل الكون يتطور ويترقى إلى هدف خاص بالمجموع كما لو كان كائنا واحدا يهدف إلى

حقيقة مطلقة ولايدى له العقل غورا ولانهاية وماذلك إلا لأن الكل وحدة ومبدعه اله واحد وفى مثل هذا يقول الله تعالى فى كتابه الغزيز :

(لمن الملك اليوم لله للواحد القهار) .

وهذا كله بديهى فى المنطق العقلى الصحيح ولدى القلب النير السليم كوجود المركز للدائرة التى لا يمكن وجودها إلا به وما يقوله الله ونقوله نحن هذا يدركه المتلمس عند النظرة الشاملة لهذه الكائنات الماثله لعقولنا وحواستا جميعا وذلك الذى قررناه ويقرره الله ما يجب أن يعرف عن طريق العلم والفلسفة والدين كسبب كاف لوجود مابزغ ويبزغ فى الكائنات من خصائص ونشاط وألفة ووحدة وترق .

وذلك السبب المتوحد ، هو الله الواحد الأحد الذى لا اله إلا هو وقد حاز من شرائط العلية والتوحيد والتنزيه والإبداع ماجعله هو الواحد المعبود بحق دون سواه .

حرف « سو » بين الدين والفلسفة والعلم

إن سلمنا أن المعتقد الدينى هو إلهام ذاتى وجدانى ناشىء عن علل بعيدة عن مداركنا العقلية والحسية . . وأن الفلسفة والعلم هما عبارة عن نظام عقلى أو حسى قائم على التأمل الذهنى والتجربة الحصية . . وأن نظام الطبيعة كلها وطاقتها الذاتية الاشعاعية قائمة على كائنات لاتحس ولا تلمس إلا أن يدركها العقل بوسائله المنطقية والعلمية وأذن فقد صارت الحتميه فى نظام الكائنات ومعها الصدفة فى سجل الخطأ الذى صارت إليه العناصر الأربعة القديمة : التراب ، والماء ، والنار ، والهواء .

فتصرف الطاقة الكونية اليوم احتمالى آمكانى بحت وقد ذهب القول بالضرورة مذهب المقاييس الثابته والصدف الطارئه كما كان فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وكل هذا يدل على أن الكون تدبره إرادة عليا كاملة مصرفة للوجود وأن لها تمام الحرية فى تقرير مصائر مايحدث فى الوجود من طاقة ومادة وماتتجه إليه القوى من أهداف .

ولو تأملنا ذلك على ضوء التطور العلمى الحديث لعلمنا جيدا أن عالم الذات وعالم الموضوع هما شكلان متغايزان لحقيقة واحدة هى الإدراك الإلهى المطلق والقدرة العليا التى تصرف خصائص الكائنات ووظائفها إما إلى نور مشع تحول إلى طاقة وأما طاقة تكون أصلا فى تكون الأشياء الجامدة وتكون أعيان الاشياء أطيافا لها ، وأما إلى نور مرئى أو مدرك يتصور تماما الكيفيات والخصائص التى قام عليها بناء الأشياء فى شيئيتها الظاهرية التى تراها عليها ثم يظل النور الخفى خلفها يدفعها إلى الأمام .

وكذلك وفى عالم الذات أيضا نرى أن ظاهرات الشعور الوجدانى والادراك العقلى ثم الحس كلها كفايات متوحدة فى الذات الإنسانية ومن الذات إلى محيط الكون وعلى هـــذا وذلك قام علم المعرفة العامه الحديث .

ولذا قررنا فى كتابنا « كتاب الوجود » المطبوع فى مصر سنة ١٩٤٧ والمعاد طبعه سنة ١٩٦٨ مخاطبين أهل المدارس الفلسفية المثالية ، وكذلك أنصار المدارس الفلسفية الواقعية والمادية فى عصرنا ، فقلنا « إن العقل والشيء حالتان من حالات الوجود عابرتان وهما متقابلتان متضايفتان متكاملتان ، وفى تقابلهما وتضايفهما وتكاملهما الدليل القاطع على القصور الذاتى فى كل منهما على حدته ، أو فيهما معا عن أن يكون أحدهما أوكلاهما علة أولية لهذا الوجود أو لنفسه .

وإذن فعلة الوجود الحقيقية برغم وجود تلك النظم الفلسفية المتعددة من قديمة وحديثة مازالت بكرا لم يطمثها فكر فلسفى أو علمى بعد .

وهنا ندع المادية والماديين والعقل والعقليين يدورون فى حلقتهم المفرغه التى لا آخر لها وإلى هنا ندع ذكر الماديين والعقليين ونطلع القارىء على ما حادث من التضارب بين المادية والعقلية ومعهما المثالية فى عالم الفلسفة ليلمس بنفسه الدليل على قصور العقل فانه مرة يؤله نفسه مدعيا أنه علة نفسه « فى عالم الذات » وعلة كل خارج عنه فى « عالم الموضوع » ومرة هو هو العقل فى أدمغة الماديين والعقليين جميعا يؤله العقل قائلا : ليس كل ما هو واقع فى عالم الموضوع سوى أفكار وتصورات عقلية ومرة أخرى يقول بلسان الحسيين والماديين ليس فى عالم الذهن سوى صور وانطباعات لعالم الأشياء فهو مثالى مرة يثبت لنفسه وجود كل شيء ثم ينكر نفسه مرة أخرى فيثبت لسان المادية أن لا وجود إلا للمادة وتصوراتنا عنها .

والواقع أن الإنسان جبل على أن : يعتقد فيفكر ، أو يفكر فيعتقد .

والواقع أيضا أن اول ما يثيره الشعور الديني أو النظر الفلسفي السليم عند الإنسان ذي البصيرة الفطرية أو العقل الراجح : نظره في عالم الحس وادراك عناصر والعوامل المؤثرة فيه ورؤية وتحقيق مايعتوره من استحالة أو تغيير أو زوال . فيتوجه فكره إلى معرفة العلة الأولى الثابته المؤثرة في ذلك تلك التي تسبب تصريف هذه الكائنات وتحويلها إلى غاياتها المقدرة لها ثم تدبير أحداثها الواقعة فيها ، فيتحسسها المدرك البصير في كل شيء صغير أو عظيم يبحث في عقله التعظيم والتقديس للعلة المؤثرة وذلك هو أجمل مواقف العقل وأصحها وبه يثبت العقل قصوره عن البلوغ إلى هوية العلة ويرى أنه محتاج للالهام البصيري القلبي في سبيل ادراك الحقيقة ويعلم أنه مجرد مخلوق من مخلوقاتها فيبهجه مايشاهده من ابداعها حسا وعقلا فيخرج من البحث طال أم قصر خاضعا لها .

وفي قصور العقل والحس عن بلوغ الحقيقة الغائية يقول « السير جيمس جينز بلسان العلم والعقل معا . وهو من أساطين العلم في عصرنا الحاضر ، يقول وأما طريقة العلم الحسي التجريبي التحكمية في التماس حقائق الوجود الطبيعي .. لقد حاولنا أن نبحث فيها إذا كانت العلوم الحديثة عندها ماتقوله عن مسائل صعبة معينه ، ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العلم التجريبي ولا نستطيع أن ندعي أننا لمحنا أكثر من بصيص بمجرد التجربة الموضوعية فاننا ولاشك قد اضطررنا إلى أن نجهد أعيننا اجهادا عظيما قبل أن نظفر برؤية شيء من الحقائق الثابته ولذا فليس مغزى كلامنا أن العلم عنده قول فصل يلقيه ، بل العكس ربما كان خير مايستطيع العلم أن يقوله : « أن العلم قد عدل الآن عن القاء الأقوال جزافا كما في الماضي فإن نهر المعرفة العلمية قد تعرج في اتجاه سيره مرارا وتكرارا وقد عجز أيضا عن اخضاع قضايا الدين والفلسفة لأسلوبه الحسي » وأن العلم المادي كلما تقدم في أبحاثه

التى تتزايد وتتضخم يوما بعد يوم ، يرى أن أكثر قضاياه وضوحا تخفى فى طواياها جيشا عظيما من الأسرار ومازال هذا شأنه كلما وصل إلى منطقة من مناطق البحث وخيل له فيها أنه بلغ الغاية بدت له مناطق أخرى من الحقائق بعيدة المدى تتصل فى حقيقتها ووجودها بعالم المعتقد الذى هو عالم الوجدان والإيمان » .

وكذلك يقول العالم الفيلسوف « رويس » :

« أن الكون الأكبر كالإنسان له جسد وروح ، أما الجسد فهو عالم الطبيعة وأما الروح الذى يسيرها هنا وهناك ويبعث فيها الحركة والحس فهو الله ذلك الكائن الأعلى الأعظم الذى لا حدود لعلمه» .

وأيضا يقول « وليم جيمس » :

« إن الطبيعة رمز تنطق به الروح نطقا واضحا ، وما العالم المادى سوى تعبير عن عالم روحى حقيقى » .

ويقول « ادوارد كارد » :

« أن الدين فى لإنسان هو التعبير الحقيقى عن أفصح حالة عقلية يعلل بها وجود الكون وهو المعنى المجمل لما يبلغ إليه ادراك الإنسان العقلى من معرفة الحقيقة الوجود » . ويقول . الفيلسوف هيجل : أن الدين هو حد المعرفة الذى تدركه النفس المتحيزه فى غلافها الجسمانى عن أصلها وماهيتها الحقيقية كنفس مطلقة غير متناهية .

وفى النهاية يقول « إرنست رينان » :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل ما نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ولكن من المستحيل أن ينمحي الدين أويزول المعتقد » .

ودينيا يقول ذلك لأن الدين نزعة فطرية مغروسة فى الإنسان وهو طبقة أرقى من العقل قد يشهدها العقل المستقيم والقلب التقى وذلك منذ خلق الله الإنسان مطلقا وذلك يتناول المشكك والملحـــد والطبيعى والمادى من الناس .

وبيان ذلك أن الملحد مثلا إنما يدين بالالحاد ويجاهد فى سبيل إثباته كما يجاهد المتدين فى أثبات دينه تماما وكذلك المشكك لأن قيام الشك فى نفسه عبارة عن تردد يدور ويتردد فى سبيل حقيقة يراد تحقيقها أو نفيها وهذا هو الشك المطلق، وأما شك الرجل الذى يشك ليصل إلى حقيقة مافواضح كل الوضوح أنه رجل يبحث عن عقيدة يبتغيها ، وأما الطبيعى فمن حيث أنه ينسب للطبيعة كل ذلك أمر ظاهر أو خفى و كل قانون تحدث بسببه الظاهره من الظواهر كل ذلك ينسبه الطبيعى للطبيعة فهى دينه الذى يعتنقه ومعتقده الذى يدين به ، وأما المـادى فهو أحط أولئك درجة من حيث أنه يعتقد ويدين لاله وهمى قضت على سلطانه (سلطان المادة) بل على كينونته نفسها الطاقة الذرية بنوياتها الأشعاعات النووية بأصالتها .

حرف "ع" القيم

تعنى الفلسفة بدراسة القيم المطلقة ، فما يراد بالقيم المطلقة ياترى ؟؟ يراد بها المثل العليا التى ينشدها الإنسان لذاتها ، ولا يلتمسها لغرض يبتغيه من ورائها لأن الأشياء التى يطلبها الإنسان لتحقيق أغراض معينه تعتبر قيما نسبية متغيرة ، وليست حقائق مطلقة ثابته فأذا اصاب الإنسان مرض فالتمس الدواء الذى يخلصه من بلائه ، وهو فى هذه الحالة لايطلب الدواء لذاته ، ولا يرغب فى تجرعه كغاية فى نفسه .ولكنه التمسه كوسيلة للخلاص من شر مرضه ، فقيمة الدواء هنا نسبية ، لأنها مرهونة بالغرض الذى يحققه الدواء ، وهو النجاة من المرض ، ولماذا يرغب الإنسان فى اتقاء المرض أو لماذا يرغب فى أن يكون صحيحا فى البدن ذلك لأن الصحة أعون على الشعور بالسعادة ولماذا ينشد السعادة ؟ ذلك لأن السعادة ليست وسيلة إلى غاية أبعد منها لأنها خير فى ذاتها وهى تحتفظ بقيمتها حتى ولو لم يرغب فيها أحد من البشر . . فالسعادة اذن قيمة مطلقة ، ينشدها الناس فى كل زمان ومكان وطلب الناس لها لا يفتقر إلى تبرير ولايحتاج إلى برهان أما القيم النسبية فهى وسائل إلى تحقيق غايات أبعد منها كما قلنا منذ حين ، ولهذا تقوم قيمتها بمدى حاجة الإنسان إليها فقط وترتفع قيمتها حينا وتنخفض حيا آخر . وقدمنا أن السعادة قيمة فى نفسها لأنها من الخير المطلق فالخير فى نفسه قيمة نقدرهـــا لنفسها ، وكذلك الحق والجمال . . الخ .

حرف "ف" السياسة

أن الفلسفة السياسية تعالج صور الحكم ونظمه ، وتحدد المميزات التى تميز كلا منها توطئة لمعرفة أحسنها وأسلمها عاقبة ،وتقرر ماينبغى أن تكون عليه علاقة الفرد بالمجتمع ، وتكشف عن حقوق الفرد وتعزوها إلى مصادرها التى نشأت منها وإلى هذا وغيره من مجالات النظرية والعملية تدرس الفلسفة السياسية هذه المبادىء والأصول من جانبها النظرى الخالص ودون أن تتجاوز هذا إلى تتبع تطبيقاتها الفنية الخاصة عن طريق الحكومات القائمة بالحكم فعلا ، ولاتخفى العلاقة بين هذه المجالات وموضوعات الدراسات الأخلاقية ، فإن دراسة سلوك الإنسان من الناحية الخلقية تدعو لامحـــالة إلى البحث فى تنظيم المجتمع الذى ينتمى إليه الفرد .

وقدمنا أن أفضل الحكم حكم المجتمع لنفسه بأن ينتخب من أفراده رشيدا منهم يرعى مصالحهم وهو مكلف منهم باختيارهم وذلك النمط من الحكم هو أشرف أنماط الحكم الديمقراطى والإشتراكى .

فهرس المعرفة العظمى

فهرس على هامش المعرفة العظمى

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٣٠٦٩

